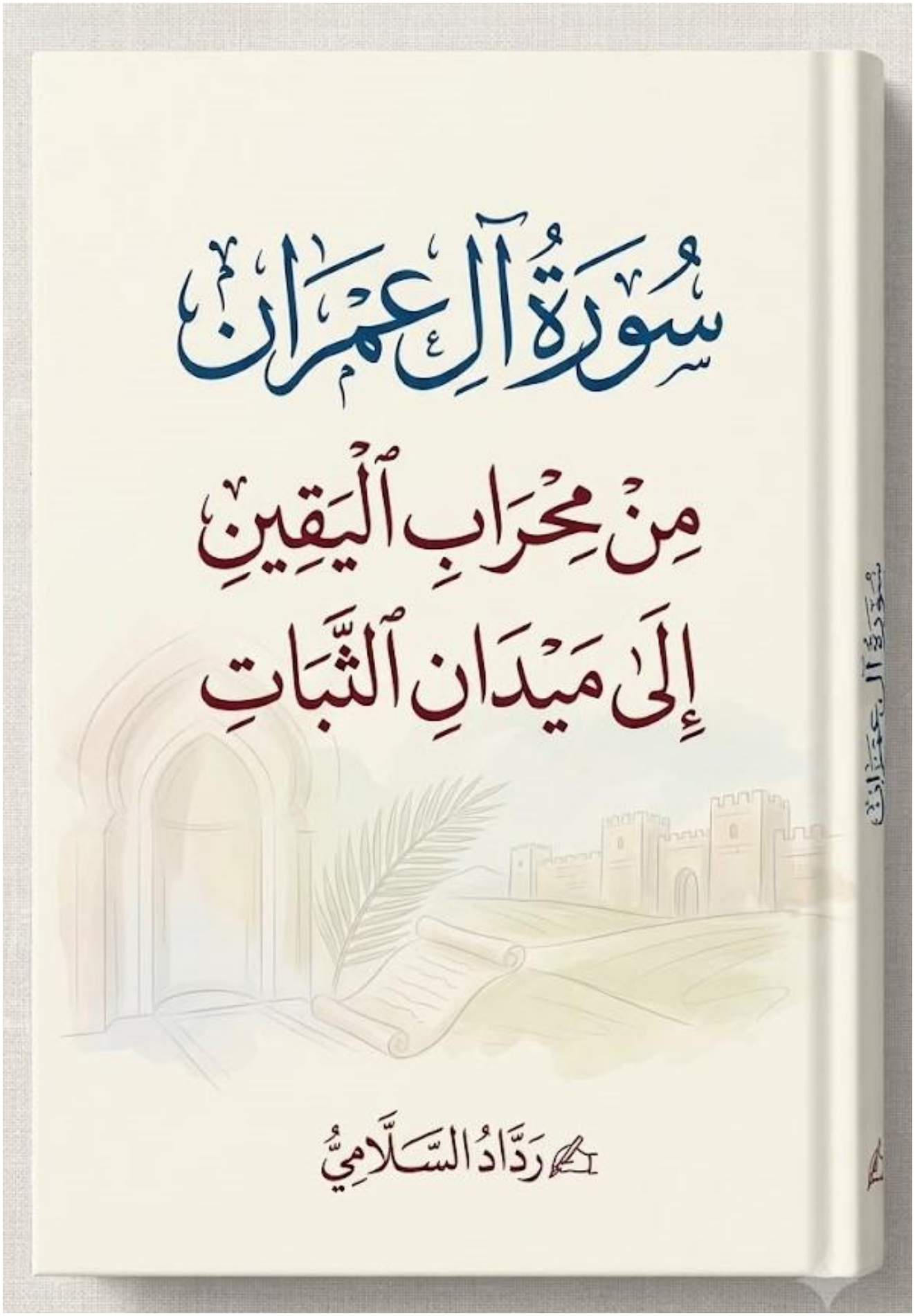

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ
مِنْ مِحْرَابِ ٱلْيَقِينِ
إِلَىٰ مَيْدَانِ ٱلثَّبَاتِ
رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

# سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

## مِنْ مِحْرَابِ الْيَقِينِ إِلَى مَيْدَانِ الثَّبَاتِ

رداد السلامي

**بسم الله الرحمن الرحيم**

# مقدمة منهجية

## حين تتحول السورة من آيات متتابعة إلى بناءٍ حيّ

ليست سورة آل عمران طريقًا ممهدًا تمضي فيه النفس بلا اضطراب؛ إنها سورة تأخذ بيد الإنسان من هدوء المحكمات إلى عواصف الفتن، ومن محراب امرأة عمران إلى غبار أُحُد، ومن سؤال الحقيقة في شأن المسيح عليه السلام إلى السؤال الذي زلزل الجماعة المؤمنة حين شاع أن محمدًا ﷺ قد قُتل. وبين البداية والنهاية تبني السورة قلبًا يعرف كيف يثبت حين تتشابه المعاني، وكيف يعتصم حين تتفرق الأيدي، وكيف يحرس موقعه حين تلمع الغنيمة في أسفل الجبل.

ومن هنا لم يكن الاقتراب من هذه السورة في هذا الكتاب اقترابًا من مجموعة موضوعات متجاورة، بل من بناء قرآني تتساند أجزاؤه، ويشرح آخره أوله، وتعود معانيه الكبرى في صور مختلفة حتى تستقر في القلب. فالحي القيوم الذي افتتحت السورة بإعلان تفرده هو نفسه الذي ترد إليه القلوب حين يموت الرسول، وتتعطل الأسباب، وتتداول الأيام، وتضطرب صفوف المؤمنين. والاعتصام بحبل الله ليس وصيةً اجتماعيةً منفصلة، بل هو الأثر الجماعي للإيمان بالمرجعية التي نزل بها الكتاب. والمرابطة التي ختمت بها السورة

ليست أمرًا عسكريًّا معزولًا، بل خلاصة رحلة طويلة في حراسة العقيدة والقلب والجماعة والثغر.

هذه الصفحات ليست تفسيرًا اصطلاحيًّا يستوعب وجوه اللغة والقراءات والأحكام والخلافات، ولا تزعم أن تحل محل كتب التفسير التي حفظت للأمة علم القرآن، وبيّنت ألفاظه وأسباب نزوله وأحكامه. إنها قراءة تدبرية تسير في ضوء ذلك الميراث، وتحاول أن تنقل المعنى من حدود المعرفة الذهنية إلى مجال الوعي والحياة.

فالتفسير يسأل: ماذا تعني الآية في لسانها وسياقها؟

أما التدبر فيضيف: ماذا تصنع هذه الآية في النفس؟ وما الخلل الذي تكشفه؟ وما الطريق الذي تفتحه؟ وكيف يتحول معناها إلى ميزان نزن به أفكارنا وأهواءنا ومواقفنا؟

ولذلك كان المنهج في هذا الكتاب قائمًا على أصول تحفظ للتأمل حريته من غير أن تسمح له بالانفصال عن النص.

أول هذه الأصول أن المعنى الظاهر للآية هو باب الدخول إليها. فلا تأمل صحيحًا يبدأ بإهمال اللغة والسياق، ولا تدبر ناضجًا يحول القرآن إلى مساحة حرة يسقط القارئ عليها ما يشاء. النص ليس مرآةً لا يرى فيها الإنسان إلا نفسه؛ إنه خطاب من الله جاء ليصحح الإنسان، لا ليكرر له أفكاره بألفاظ مقدسة.

ومن هنا حرصت هذه القراءة على أن تنطلق من نظم الآية، وموقعها في السياق، وصلتها بما قبلها وما بعدها، ثم تعبر من ذلك إلى الدلالة الإنسانية والتربوية والحضارية. فما كُتب هنا ليس تأويلًا رمزيًّا يذيب الوقائع في استعارات، ولا بحثًا عن أسرار لا يدل عليها اللفظ، وإنما هو محاولة للاستماع إلى الامتدادات التي يفتحها المعنى القرآني نفسه حين يوضع أمام أسئلة النفس والحياة والتاريخ.

وثاني الأصول أن السورة وحدة بنائية، وليست صفحات متفرقة جُمعت تحت اسم واحد. لكل آية معناها الخاص، لكن هذا المعنى يعيش داخل نسيج أوسع. ولهذا تتبعت القراءة الخيوط التي تعود في السورة مرةً بعد مرة: التوحيد، والمحكم والمتشابه، وزيغ القلب، والاصطفاء، والدعاء، والكلمة السواء، والإنفاق، والوحدة، والطاعة، والابتلاء، ومداولة الأيام، والتعلق بالأشخاص، ثم الصبر والمصابرة والمرابطة.

هذه الخيوط لا تسير متوازيةً بلا لقاء؛ إنها تتشابك لتصنع الإنسان الذي تريده السورة. فالذي يزيغ في فهم المتشابه قد يزيغ في قراءة التاريخ. والذي يجعل هواه حاكمًا على النص قد يجعل رغبته في الغنيمة حاكمةً على أمر الرسول. والذي لا يعرف الحي القيوم حق المعرفة قد يظن أن الرسالة تموت بموت حاملها. والذي لم يتعلم أن ينفق مما يحب قد يعجز عن البقاء في موقعه حين يرى ما يحب.

وثالث الأصول أن القصص القرآني ليس ماضيًا مغلقًا. امرأة عمران ليست ذكرى أم صالحة فحسب، بل نموذج للقلب الذي يقدم لله ما يحب قبل أن يعرف

صورة المستقبل. وزكريا عليه السلام ليس شيخًا مضى في التاريخ، بل شاهد على أن تأخر الأسباب لا يغلق أبواب القدرة. ومريم عليها السلام ليست موضع جدل عقدي مجرد، بل ثمرة نذر صادق ورعاية إلهية واصطفاء. وعيسى عليه السلام ليس شخصيةً تستنزفها الخصومة بين الغلو والجفاء، بل عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وآية تدل على قدرة الخالق ولا تنقل شيئًا من خصائص الألوهية إلى المخلوق.

وكذلك أُحُد ليست معركةً انتهت عند سفح جبل. إنها مختبر دائم للنفوس والجماعات. يتكرر جبل الرماة كلما وقف الإنسان في موضع أمانة، ثم رأى غنيمةً تلمع في الأسفل. ويتكرر النزول كلما غلبت المصلحة العاجلة أمر المبدأ. ويتكرر التنازع كلما رأى كل فردٍ الأمر من نافذة حظه. وتتكرر الهزيمة حين يُظن أن شرف القضية يعفي أصحابها من دقة الأداء.

ورابع الأصول أن التدبر لا يكتفي بتمجيد النماذج المضيئة، بل يصغي كذلك إلى المواضع التي يكشف فيها القرآن ضعف الإنسان. سورة آل عمران لا تقدم الجماعة المؤمنة في صورة مصقولة تخفي عيوبها. لقد أخبرت أن بعض المؤمنين أراد الدنيا، وأنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا، وأن منهم من فر، وأن الخوف حجب عن بعضهم نداء الرسول ﷺ.

لكن السورة، وهي تكشف هذا كله، لا تحول العثرة إلى هوية أبدية.

تشخص الخطأ، ثم تقول: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

وتطلب من النبي ﷺ أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمر.

وهنا تظهر إحدى أعمق طرائق القرآن في بناء الإنسان: لا إنكار للضعف، ولا عبادة له. لا تبرير للخطأ، ولا اختزال للمخطئ فيه. هناك محاسبة تحفظ الحقيقة، ورحمة تحفظ الإنسان، وتوبة تعيد من سقط إلى موضع المسؤولية.

وخامس الأصول أن الانتقال من الآية إلى الواقع ينبغي أن يكون منضبطًا بروحها، لا استيلاءً عليها. حين توسع هذه الصفحات دلالة المرابطة لتشمل مرابطة العالم على ثغر المعنى، والكاتب على ثغر الكلمة، والأب والأم على فطرة الأسرة، فإنها لا تلغي المعنى الأصلي للمرابطة في الثغور، بل تنطلق منه إلى الجامع الأخلاقي الذي يحمله: دوام اليقظة، ولزوم موقع التكليف، وعدم ترك المنفذ الذي اؤتمن الإنسان عليه.

وكذلك حين تُقرأ الشورى في ضوء القيادة، أو الإنفاق في ضوء التحرر من عبودية المال، أو كظم الغيظ في ضوء ضبط القوة، فإن المقصود ليس استبدال المعنى القرآني بمصطلحات العصر، بل إظهار قدرة المعنى على إضاءة أحوال تتجدد، ما دام الرابط محفوظًا والسياق محترمًا.

أما اللغة التي كُتب بها هذا الكتاب، فقد حاولت أن تقف في منطقة تجمع وضوح الفكرة وحرارة الشعور. فالقرآن لا يخاطب عقلًا بلا قلب، ولا يوقظ عاطفةً بلا بصيرة. ومن هنا جاء السرد متصلًا، تتجاور فيه الجملة التأملية والصورة الأدبية والتحليل النفسي والنظر الحضاري؛ لا طلبًا للزينة اللفظية، بل لأن بعض المعاني لا تدخل النفس كاملةً إذا قُدمت لها في صورة تقرير بارد.

على أن جمال العبارة يظل خادمًا للمعنى، لا ستارًا عليه. والكلمة مهما ارتفعت لا يجوز أن تزاحم نور الآية، وإنما غايتها أن تقف عند بابها، وتلفت القلب إلى شيء من اتساعها، ثم تتراجع كي يبقى كلام الله هو المركز.

ولهذا أُثبتت الآيات بأرقامها، وسارت القراءة وفق ترتيبها من أول السورة إلى خاتمتها، حتى لا تضيع آية في ظل موضوع كبير، ولا يُختزل السياق في أشهر مقاطعه. فالآية التي لا تستوقف قارئًا لأول وهلة قد تكون هي الجسر الذي يصل بين معنيين، أو المفتاح الذي يمنع فهمًا مبتورًا، أو اللمسة التي يكتمل بها بناء السورة.

وسيرى القارئ أن هذه الرحلة تتحرك في ثلاثة فضاءات متداخلة:

فضاء العقيدة، حيث تتقرر وحدانية الله وقيوميته، وتنضبط النظرة إلى النبوة والوحي والمسيح عليه السلام.

وفضاء النفس، حيث تُكشف الشهوة والزيغ والحسد والخوف والغلول والرياء، وتُبنى في مقابلها التقوى والصبر والتوكل والإخلاص.

وفضاء الجماعة والتاريخ، حيث تظهر الوحدة والشورى والطاعة والقيادة والابتلاء ومداولة الأيام وقوانين النصر والهزيمة.

وليست هذه الفضاءات منفصلة. فالعقيدة التي لا تصل إلى النفس تبقى معلومةً باردة، والنفس التي لا تتحول إلى خلق جماعي تظل صلاحًا محاصرًا، والجماعة التي تنفصل حركتها عن التوحيد قد تصنع قوةً لكنها لا تصنع رسالة.

لهذا تبدأ السورة من الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

ثم تمضي في بناء العقل والقلب والأسرة والجماعة.

وحين تصل إلى نهايتها، لا تترك المؤمن عند التأمل وحده، بل تعيده إلى موقع العمل: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

كأن الرحلة كلها تبدأ من معرفة من يقوم عليه الوجود، وتنتهي بمعرفة الموضع الذي ينبغي للعبد أن يقوم فيه بأمانته.

فالقارئ مدعو إلى ألا يعبر هذه الصفحات باحثًا عن جمال العبارة وحده، ولا عن معلومة يضيفها إلى رصيده، بل أن يقرأ وهو يسأل نفسه:

أين موضع الزيغ في قلبي؟

وما الشيء الذي أحببته حتى صار قادرًا على إنزالي من موقعي؟

وبأي حبل أعتصم حين تتنازعني الحبال؟

وهل أحب الرسول ﷺ حبًّا يحملني على اتباع رسالته، أم أكتفي بعاطفة لا تغير سلوكي؟

وما الثغر الذي أقامني الله عنده؟

وأي غنيمة يمكن أن تستدرجني إلى تركه؟

إن التدبر الحقيقي لا ينتهي بإغلاق الكتاب. إنه يبدأ هناك؛ حين تتحول الآية من نص مقروء إلى عين يرى بها الإنسان، وميزان يزن به، وصوت يوقظه في لحظة الغفلة.

وسورة آل عمران، في جوهر رحلتها، لا تعد المؤمن بأن الطريق سيخلو من الفتن، ولا بأن الصف لن يضطرب، ولا بأن العظماء لن يغيبوا، ولا بأن النصر سيأتي دائمًا على الصورة التي يشتهيها.

إنها تمنحه ما هو أبقى من ذلك كله:

تمنحه مرجعًا حين تتشابه الطرق.

وربًّا حيًّا قيومًا حين يموت البشر.

وحبلًا حين تتفرق الأيدي.

ومحرابًا يعيد بناء القلب.

وذاكرةً تتعلم من الهزيمة.

وثغرًا يعرف أن بقاءه فيه عبادة.

ثم تتركه عند خاتمتها واقفًا بين السماء والأرض؛ يذكر الله، ويتفكر في خلقه، ويحمل أمانته، ويسمع الوصية الأخيرة كأن السورة كلها اختصرت نفسها فيها:

اصبر.

وصابر.

ورابط.

واتق الله.

ولا تغادر الجبل حين ترى الغنيمة.

## الفصل الأول

## الكتاب الذي يردُّ الوعي إلى مُحكماته

## الآيات من (١) إلى (١٣)

تبدأ سورة آل عمران من أعلى نقطة يمكن أن يبدأ منها بناء الوعي:

**﴿الم﴾ (١) ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢)**

لا تبدأ بالإنسان وأسئلته، ولا بالتاريخ وتقلباته، ولا بأهل الكتاب واختلافاتهم، ولا بأُحُد وجراحها؛ لأن كل شيء سيأتي لاحقًا يحتاج أولًا إلى مركز ثابت يُقاس به. فإذا اضطرب المركز، اضطربت الأشياء كلها، وصار الإنسان يقرأ الوحي من خلال أهوائه، بدل أن يقرأ أهواءه على ضوء الوحي.

إن أول ما تفعله السورة أنها تعيد ترتيب الوجود في القلب:

**الله أولًا.**

ليس فكرةً بين الأفكار، ولا احتمالًا في مجلس الجدل، ولا قوةً عليا داخل مجموعة القوى؛ بل هو سبحانه الواحد الذي لا إله إلا هو، الحي الذي لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء، القيوم الذي قام بنفسه، وقام كل شيء به.

وحين تستقر هذه الحقيقة، تبدأ بقية المعاني في العثور على مواضعها الصحيحة.

فالإنسان ليس سيد الوجود، بل عبد.

والعقل ليس مشرّعًا فوق الوحي، بل أداة لفهمه.

والتاريخ ليس فوضى مطلقة، بل ميدان تجري فيه سنن الله.

والنصر ليس منحةً عمياء، بل ثمرة تجتمع لها أسبابها بإذن الله.

والهزيمة ليست خروجًا من سلطان الله، بل قد تكون درسًا يجري داخل حكمته.

والموت ليس انهيارًا للمعنى، لأن الحي القيوم لا يموت.

## الحيُّ الذي لا تموت معه الرسالة

ستأتي في أواخر السورة لحظةٌ تهتز فيها القلوب عند إشاعة مقتل النبي ﷺ: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

لكن السورة أودعت جواب هذه الصدمة في بدايتها قبل أن تعرضها:

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

محمد ﷺ رسول كريم، ولكنه ليس الإله الذي تتوقف عليه حقيقة الدين. يموت الرسول، ويبقى الذي أرسله. يغيب حامل الرسالة، ولا تغيب الجهة التي جاءت منها الرسالة. ولذلك لم يكن افتتاح السورة باسم الحي مجرد تقرير عقدي منفصل عن سياقها؛ بل كان تأسيسًا مبكرًا لصلابة القلب أمام موت الأشخاص وسقوط الرموز وتبدل الأحوال.

كأن السورة تقول للمؤمن منذ أول آياتها:

لا تجعل فناء البشر يصل إلى أصل يقينك؛ فإن الذي تعبد لا يفنى.

ولا تجعل قيام الحق في قلبك متعلقًا ببقاء رجل، مهما علا مقامه؛ فإن الرجال يقومون بالله، والله قائم بنفسه، مقيم لكل شيء.

أما اسم القيوم، فإنه يحرر القلب من وهم الاستقلال. فما من قوة تقوم بذاتها، ولا دولة تحمل في داخلها ضمان بقائها، ولا حضارة تحوز أسباب الخلود، ولا نفس تستطيع أن تحفظ نبضها لحظةً واحدة.

كل ما تراه قائمًا إنما أُقيم.

وكل ما تراه قويًّا إنما أُقدر.

وكل ما تراه حيًّا إنما أُحيي.

بهذا الفهم يدخل المؤمن التاريخ من غير أن تأسره ضخامة الإمبراطوريات. فقد كان الروم والفرس في زمن التنزيل يبدوان كأنهما عمودا العالم، وكانت جماعات اليهود والنصارى تستند في دعاواها إلى تراث طويل، وكانت قريش تستند إلى المال والنسب والمكانة؛ لكن السورة ترد كل قيام ظاهر إلى القيوم الحقيقي. ومن عرف أن الأشياء لا تقوم بنفسها، لم يعبد قوتها، ولم ييأس من سقوط باطلها.

## الكتاب نازلٌ من جهة الحق

بعد تثبيت الحقيقة الأولى، تنتقل السورة إلى حقيقة الوحي: ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**﴾ (٣) ﴿**مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾ (٤)

لم يقل: نزل عليك كتابًا فحسب، بل قال: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

فالحق ليس موضوعًا من موضوعات القرآن؛ بل هو المادة التي نزل بها، والجهة التي صدر عنها، والميزان الذي يقيمه في الأرض. لم ينزل ليجامل تصورات البشر، ولا ليكون شاهدًا تابعًا على ثقافاتهم، بل ليزنها ويكشف ما فيها من بقايا الهدى ودخائل التحريف.

وهو مصدّق لما بين يديه؛ لأن مصدر الرسالات واحد.

فالقرآن لا يبدأ تاريخ النبوة من الصفر، ولا يقتلع المؤمن من ذاكرة الوحي الممتدة؛ إنه يعيده إلى النهر الأول الذي شرب منه إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

لكن التصديق لا يعني إقرار كل ما صار الناس ينسبونه إلى الكتب السابقة؛ بل يعني إثبات أصل التنزيل الإلهي وما بقي من الحق، مع الهيمنة التي ترد الأمور إلى نصابها. فالقرآن يصل ما قطعه التحريف، ويصحح ما أفسده الغلو، ويفصل بين الوحي المنزل والذاكرة البشرية التي امتدت إليها يد التبديل والتأويل.

ولهذا ختم السياق بلفظة حاسمة: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

الفرقان هو الذي يمنع الحدود من الذوبان.

يفرق بين الخالق والمخلوق.

وبين الرسول والإله.

وبين تعظيم الأنبياء والغلو فيهم.

وبين التصديق بالكتب السابقة والخضوع لما طرأ عليها من تبديل.

وبين الحوار الذي يطلب الحق، والجدل الذي يطلب الغلبة.

وبين التأويل الذي تهدي إليه اللغة والسياق، والتأويل الذي تصنعه الرغبة ثم تبحث له عن لفظ تتكئ عليه.

وفي زمن تختلط فيه الكلمات، يصبح الفرقان رحمة. فالالتباس ليس دائمًا دليل عمق؛ وقد تكون بعض الأفكار شديدة الغموض لأنها لا تريد للحقيقة أن تُرى واضحة. يأتي القرآن، فيرسم الحدود التي محتها الأهواء، ويعيد لكل حقيقة اسمها.

## حين يصبح الكفر موقفًا من آيات الله

لكن الآية لا تقف عند إنزال الفرقان، بل تكشف أن ظهور الحد الفاصل يحمّل الإنسان مسؤولية موقفه منه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالفرقان لا يكتفي بأن يكشف الحق؛ إنه يكشف كذلك حقيقة الرافض له. وقبل مجيء النور قد تختلط المسالك، أما بعد أن يتبين الطريق، فإن الإعراض لا يعود حيرةً بريئة دائمًا، بل قد يصير جحودًا لآيات الله.

ولم يقل: إن الذين لم يفهموا، أو الذين أخطؤوا في اجتهادهم؛ بل قال: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. فهناك فرق بين عقلٍ يبحث فيضل الطريق ثم يعود، وقلبٍ قامت عليه الدلالة فأغلق أبوابه؛ لأن الحق يطالبه أن يتنازل عن شهوة أو كبرياء أو مصلحة.

قد يعرف الإنسان أن هذا هو الحق، ثم يكرهه لأنه لا يمنحه الموقع الذي يريد.

وقد يرى الفرقان، ثم يختار المنطقة الرمادية؛ لأنها تتيح له أن يحتفظ باسم الإيمان ومكاسب الباطل معًا.

وقد لا يرفض الآية بلسانه، لكنه يعزلها عن الحياة حتى لا يكون لها سلطان على قراره.

ولهذا جاء الوعيد شديدًا؛ لأن الجريمة ليست خطأً في معلومة، بل تمردًا على آيات الله بعد أن جاءت بالهدى والفرقان.

ثم تختم الآية: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

عزيز لا يضعف ملكه بكفر الكافرين، ولا تحتاج آياته إلى تصديق البشر حتى تكون حقًّا. وهو ذو انتقام ممن عرف ثم استكبر، وظلم ثم أصر، وجعل من القوة أو العلم أو المكانة ستارًا يحتمي خلفه من الحساب.

وانتقام الله ليس انفعالًا بشريًّا منفلتًا، تعالى الله عن مشابهة خلقه؛ بل هو عدله الذي يضع الجزاء في موضعه، بعد علم محيط وحجة قائمة وحكمة لا تظلم أحدًا.

وهكذا يجتمع في الآية الفرقان والجزاء؛ لأن الحق الذي لا يترتب على اختياره أو رفضه مصير، يتحول في وعي الناس إلى رأي من الآراء. أما القرآن فيقرر أن الحقيقة ليست لعبة لغوية: وراءها جنة أو نار، وقرب أو خزي، ونجاة أو هلاك.

## لا يخفى عليه شيء

ثم تنتقل السورة من تنزيل الكتاب إلى إحاطة منزِّله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ **(٥)**

كان يمكن أن يقال: إن الله يعلم كل شيء. لكن التعبير بنفي الخفاء يضع الإنسان أمام عجزه عن حجب شيء عن الله. فنحن لا نملك أسرارًا بعيدةً عن علمه؛ إنما نملك أشياء أخفاها بعضنا عن بعض.

يعلم الله ما يُقال في مجالس الجدل، وما يُضمر خلف الألفاظ المزخرفة.

يعلم من يقرأ المتشابه طلبًا للهداية، ومن يتبعه طلبًا للفتنة.

يعلم من ينفق ابتغاء وجهه، ومن يريد أن تُرى يده.

يعلم من ثبت في المعركة لأن الإيمان ملأ قلبه، ومن ثبت لأن أعين الناس كانت عليه.

يعلم الرغبة الصغيرة وهي تختبئ داخل التفسير الكبير.

وهذا المعنى شديد الصلة بقضية المحكم والمتشابه التي ستأتي. فالقراءة ليست عملية عقلية محايدة دائمًا؛ يدخل القلب إلى النص بما فيه. قد يتظاهر المرء بأنه يبحث عن الدلالة، بينما هو يبحث عن منفذ يهرب منه من دلالة واضحة. وقد يرفع شعار الاجتهاد، بينما الذي يحركه رغبة قديمة في التخلص من تكليف أو تسويغ انحراف.

والله لا يخفى عليه شيء.

إنه يرى الفكرة قبل أن ترتدي ثوب العبارة، ويرى الهوى قبل أن يتعلم لغة الاستدلال.

وفي الآية وجه آخر من وجوه السكينة: فالذي لا يخفى عليه مكر الماكرين، لا يخفى عليه كذلك ضعف المستضعفين. يعلم الكلمة التي قيلت ظلمًا وإن عجز صاحبها عن ردها، ويعلم دمعةً أخفاها صاحبها عن أقرب الناس، ويعلم عملًا صالحًا لم تصفق له الأيدي.

فلا يحتاج المخلص إلى أن يرفع صوته ليصل عمله إلى الله، ولا يحتاج المظلوم إلى أن يتقن رواية ألمه حتى يحيط الله به علمًا. قد تخطئك عيون الأرض كلها، لكنك لا تغيب لحظةً عن علم رب الأرض والسماء.

## في ظلمات الرحم تبدأ الحجة

ثم تقول السورة: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ **(٦)**

تأتي هذه الآية قبل الحديث المفصل عن ميلاد مريم والمسيح عليه السلام، وكأنها تضع القاعدة قبل عرض القضية:

إن الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء لا يعجزه أن يخلق عيسى من غير أب.

والرحم الذي سيجعله بعض الناس مدخلًا إلى الغلو، ترده السورة إلى سلطان الخالق. فالمسيح عليه السلام لم يصنع صورته، ولم يختر كيفية ميلاده، بل صوّره الله كما صوّر سائر خلقه، وإن اختلفت كيفية خلقه آيةً دالةً على القدرة.

ومن العجيب أن الغلو في المخلوق يبدأ أحيانًا من آية تدل على الخالق. يولد عيسى من غير أب، فيكون مقتضى الآية أن تزداد القلوب تعظيمًا لقدرة الله؛ لكن الهوى يقلب اتجاه الدلالة، فيجعل الآية التي تشهد بقدرة الخالق ذريعةً لرفع المخلوق فوق منزلته.

وهذا واحد من أخطر أمراض التأويل: أن ينظر الإنسان إلى الآية، ثم يتحول بصره من صاحب الآية إلى الآية ذاتها، فيقف عند الخارق وينسى من أخرقه.

لقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من رجل بلا امرأة، وخلق عيسى من امرأة بلا رجل، وخلق سائر البشر من رجل وامرأة. تنوعت الكيفيات، وبقي الفاعل واحدًا: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾.

فليست كيفية الخلق هي التي تمنح المخلوق ألوهية، وإلا لكان آدم أولى بهذه الدعوى. وإنما تشهد الكيفيات المختلفة أن القدرة الإلهية لا يحبسها مألوف، وأن السنن التي اعتادها الناس ليست قيودًا على مشيئة من أنشأها.

ثم تختم الآية باسمين: **العزيز الحكيم.**

**عزيز** لا تعجزه صورة من صور الخلق.

**حكيم** لا يخلق عبثًا، ولا يختار كيفيةً إلا لحكمة.

**فقدرته** ليست قوةً منفصلة عن الحكمة، وحكمته ليست معنىً يعوق القدرة. ما شاءه نفذ بعزته، وما أنفذه جرى بحكمته.

## المحكمات: أعمدة المعنى

بعد أن قررت السورة مصدر الكتاب وإحاطة منزله وقدرته، انتقلت إلى طريقة تلقيه: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ**

**الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧)**

هذه الآية لا تصف بناء القرآن فحسب؛ بل تكشف أخلاق القارئ.

في الكتاب آيات محكمات، واضحات الدلالة، هن أصوله التي تُرد إليها بقية المعاني. سماهن الله: ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

والأم هي الأصل الذي يُرجع إليه، والحضن الذي تلتئم فيه الفروع المتفرقة. فالمحكمات ليست قسمًا من القرآن معزولًا عن غيره، بل هي مركزه التفسيري، والمعاني الكبرى التي تمنع القراءة من التشظي.

توحيد الله محكم.

تنزيهه عن الشريك والولد محكم.

عبودية المسيح ورسالته محكمة.

مسؤولية الإنسان محكمة.

الجزاء والبعث والعدل الإلهي محكمات.

فإذا مر القارئ بنص يحتمل في فهمه وجوهًا، لم يقتطعه من هذا البناء، ولم يجعله يهدم ما ثبت بعشرات الآيات الواضحة؛ بل رده إلى أمه، حتى يأخذ الفرع مكانه داخل الشجرة، ولا يتحول إلى فأس يقطع جذورها.

إن الضلال لا يحتاج دائمًا إلى نص باطل؛ قد يأخذ صاحبه نصًّا حقًّا، لكنه ينقله من مرتبته، ويفصله عن سياقه، ويجعله حاكمًا على ما ينبغي أن يحكم عليه.

كلمة واحدة مجتزأة قد تُستخدم لهدم معنى أقامه القرآن كله.

واحتمال لغوي بعيد قد يُقدَّم على ظاهر متكرر ثابت.

وآية متشابهة قد تُنتزع من حضن أم الكتاب، ثم تُحمَّل مشروعًا فكريًّا كاملًا لم تعرفه لغة القرآن ولا سياقاته.

هنا لا يكون الخلل في الكتاب، بل في اليد التي فرّقت ما أنزله الله متماسكًا.

## المتشابه امتحانٌ للقلوب

لماذا وُجد المتشابه؟

لأن الكتاب ليس صفحات تمنح المعلومات فحسب، بل هو كذلك ميدان يكشف كيفية الوقوف أمام الله. فالمتشابه يمتحن تواضع العقل، وأمانة الباحث، ونقاء المقصد.

هناك إنسان يرى احتمالًا في آية، فيجمع إليها نظائرها، ويردها إلى المحكم، ويتأنى، ويقول فيما لم يعلم: الله أعلم.

وهناك إنسان يرى الاحتمال نفسه، فتلمع في قلبه فرصة الفتنة، فيترك عشرات النصوص الواضحة ويتعلق باللفظ الذي يستطيع أن يجره إلى غرضه.

النص واحد، لكن القلبين مختلفان.

ولهذا لم تقل الآية: فأما الذين في عقولهم قصور، بل قالت: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾.

موطن الأزمة هو القلب.

قد يكون العقل حادًّا، واللسان فصيحًا، والأدوات المعرفية واسعة؛ لكن القلب مائل، فيتحول الذكاء من مصباح يكشف الطريق إلى أداة بارعة في تزيين الانحراف. بل قد يكون الذكاء، إذا انفصل عن التقوى، أخطر من الجهل؛ لأن الجاهل يعجز عن إقامة الشبهة، أما الذكي الزائغ فيبني للهوى قصرًا من المصطلحات.

والزيغ ليس دائمًا انحرافًا صاخبًا يُرى من أوله. إنه ميل دقيق يبدأ في الداخل، ثم يأخذ صاحبه كل يوم خطوةً بعيدًا عن المركز. وربما ظل يتكلم بلسان النص، لكنه لم يعد يقف حيث يقف النص.

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

تأمل لفظ يتبعون.

لم يقل: يمرون به، أو ينظرون فيه، أو يجتهدون في فهمه؛ بل جعل المتشابه أمامهم وهم يمشون خلفه. لقد أصبح الاحتمال قائدًا، مع أن مكانه الصحيح أن يُقاد إلى المحكم.

إنهم لا يتبعونه لأنه أقوى دلالة، بل لأنه أكثر قابليةً لأن يوصلهم إلى ما يريدون.

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

هناك إرادة سابقة على القراءة: ابتغاء.

فالفتنة لم تكن نتيجةً عرضية لطريقتهم، بل كانت مطلوبة. إنهم يدخلون إلى النص وفي أيديهم النتيجة، ثم يفتشون عن طريق يوصل إليها. لا يسألون: ماذا يقول الكتاب؟ بل يسألون: كيف نجعل الكتاب يقول ما نريد؟

وهكذا قد يتحول التفسير من طلبٍ للمراد الإلهي إلى صناعة غطاء مقدس للمراد البشري.

## وما يعلم تأويله إلا الله

في قلب الآية سياج من الأدب المعرفي: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

فالإنسان مهما اتسعت أدواته لا يتحول إلى محيط بمراد الله، ولا يصير عقله مرآةً تستوعب حقائق الوحي كلها. ثمة حد يقف عنده العلم، ولا يكون الوقوف عنده عجزًا مذمومًا، بل عبوديةً تعرف الفارق بين علم الخالق وعلم المخلوق.

إن من أخطر أوهام العقل أن يظن أن ما لم يدركه لا حقيقة له، وأن ما عجز عن تأويله ينبغي أن يعاد تشكيله حتى يدخل في حدوده. عندئذ لا يعود العقل طالبًا للمعنى، بل يجعل نفسه مقياسًا لما يجوز أن يكون من المعاني.

أما المؤمن، فيستعمل عقله إلى أقصى ما وهبه الله، ويجمع النصوص، وينظر في اللغة والسياق، ويرجع إلى أهل العلم؛ ثم لا يستحي أن يقول عند نهاية قدرته: الله أعلم.

إن في الوحي ما نفهمه فنزداد به هدى، وفيه ما نؤمن به ونرد علم حقيقته إلى الله. وفي الحالين نبقى داخل العبودية: عبودية الفهم حين يتبين، وعبودية التسليم حين يقف العقل عند حدّه.

## حين ينحني العقل أمام حدِّه

في مقابل هذا الزيغ تقف صورة الراسخين في العلم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

الرسوخ ليس كثرة المعلومات وحدها؛ بل ثبات القدم حين تتكاثر الاحتمالات. قد يجمع المرء مسائل كثيرةً، لكنه يتبع كل شبهة طارئة، فلا يكون راسخًا. وقد يعرف العالم حدود معرفته، فيقف عندها بأدب، فيكون اعترافه بما لا يعلم جزءًا من علمه.

الراسخون لا يؤمنون بالمحكم ويخاصمون المتشابه، ولا يجعلون ما أدركوه عدوًّا لما لم يدركوه، بل يقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

هذه الجملة تعيد أجزاء الكتاب إلى وحدة المصدر. وما دام الكل من عند الله، فلا يمكن أن يكون بعضه هادمًا لبعض. التعارض الحقيقي لا يقع في الوحي، وإنما قد يقع في الفهم البشري؛ وحين يضطرب الفهم لا نتهم الكتاب بالتناقض، بل نراجع موضع نظرنا.

والإيمان هنا ليس تعطيلًا للعقل، بل حمايته من الغرور. فالعقل الذي لا يعرف حدوده قد يظن عجزه عن إدراك الحكمة دليلًا على غيابها، كأن الوجود لا يملك من المعاني إلا ما اتسعت له أدواته.

أما الراسخ فيعلم أن العقل مكرّم، لكنه مخلوق؛ بصير، لكنه محدود؛ قادر على الفهم، لكنه ليس محيطًا بعلم من أنزل الكتاب.

وهنا تبلغ اللغة مقام السجود أمام المعنى.

لا لأن الإنسان أُمر أن يلغي عقله، بل لأنه استعمله حتى عرف أن وراء شاطئه بحرًا لا ينفد. إن التواضع في نهاية المعرفة ليس هزيمةً للعقل؛ إنه ذروة نضجه.

ثم تختم الآية: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ليس كل صاحب معلومات من أولي الألباب؛ فاللب هو جوهر العقل بعد أن يتخفف من قشور الغرور والهوى. وقد يزدحم الرأس بالمحفوظات، بينما يظل القلب بعيدًا عن التذكر.

أولو الألباب لا يمرون بالمعنى مرور المتفرج؛ يستقبلونه في مركز الوعي حتى يعيد ترتيبهم. لا تزيدهم الآية قدرةً على محاجّة غيرهم فحسب، بل تزيدهم خوفًا من زيغ أنفسهم.

ولهذا كان أثر العلم الحقيقي أن يقود صاحبه من الحديث عن أخطاء الآخرين إلى الدعاء لقلبه.

## الدعاء الذي يحرس المعرفة

بعد هذا البيان لا يتحدث الراسخون عن رسوخهم، ولا يطمئنون إلى علمهم، بل يفزعون إلى الدعاء: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ **(٨)**

يا للعجب!

الذين وصفهم الله بالرسوخ يخافون الزيغ، والذين في قلوبهم زيغ يظنون أنهم أصحاب الكشف والتحرير.

كلما ازداد الإنسان علمًا بنفسه، قلَّ اغتراره بثباتها. إنه يعرف أن القلب لا يحمل ضمانه في داخله، وأن هداية الأمس لا تعفيه من خوف الغد، وأن المرء قد يبدأ الطريق مخلصًا ثم تتسلل إلى قلبه رغبة خفية تغيّر وجهته.

لذلك قالوا: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

فالهداية نعمة وقعت، لكنها تحتاج إلى حفظ. وليس أخوف على القلب من أن يتذوق نور الطريق ثم ينحرف عنه؛ لأن الضياع بعد المعرفة أشد وحشةً من الضياع قبلها.

وهم لا يقولون: ربنا لا تُزغ عقولنا؛ لأن القلب هو موضع الاتجاه. قد تبقى المعلومات في الذاكرة بعد أن تنحرف الوجهة، وقد يظل اللسان يتلو الأدلة نفسها بعدما يغادرها القلب. ولهذا يسألون الله سلامة المركز الذي يقود المعرفة كلها.

ثم يقولون: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

## الثبات هبة.

ليست القضية مهارةً عقليةً محضة، ولا حصيلة قراءة فحسب. يحتاج الإنسان إلى رحمة تأتيه من عند الله، تحفظ علمه من الكبر، وفهمه من الهوى، ولسانه من طلب الغلبة، وقلبه من أن يتخذ من الوحي سلّمًا إلى نفسه.

إنهم لم يقولوا: وأعطنا، بل قالوا: هب لنا؛ لأنهم يشعرون بفقرهم الكامل. والهبة عطاء لا يستند إلى ثمن يقدمه العبد، بل إلى جود الواهب.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

وما دام الله هو الوهاب، فلا ييأس قلب من الثبات، ولا يغتر قلب بما عنده. هذا يرجو الهبة، وذاك يعلم أن ما عنده هبة، وبين الرجاء والشكر تمشي المعرفة آمنةً من اليأس والغرور.

## الآخرة تحسم عبث التأويل

ثم يتصل الدعاء بالإيمان باليوم الآخر: ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ **(٩)**

ليست هذه نقلةً بعيدةً عن موضوع المحكم والمتشابه. فالذي يعبث بدلالة النص قد ينجو في الدنيا من انكشاف قصده، وقد تصفق له جماعة، وقد يصنع لنفسه اسمًا ومكانة؛ لكن هناك يومًا تُجمع فيه القلوب مع أقوالها، والنيات مع تأويلاتها.

سيظهر يومئذ من كان يطلب الحق، ومن كان يطلب نفسه من خلال الحق.

الإيمان بالآخرة يمنح القراءة أخلاقها؛ لأن المفسر لا يقف أمام نص صامت يستطيع أن يفعل به ما يشاء، بل يقف أمام كلام الله، ثم يمضي إلى يوم يقف فيه بين يدي المتكلم به.

وكم يتغير التأويل لو استحضر صاحبه لحظة الحساب!

كم من عبارة متعجلة ستتوقف قبل أن تُكتب.

وكم من احتمال بعيد سيعود إلى موضعه.

وكم من كبرياء معرفي سينكسر حين يتذكر الإنسان أن الله سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه.

إن سورة آل عمران تربط سلامة الفهم بسلامة القلب، وسلامة القلب باستحضار المصير. فالمشكلة المعرفية ليست منفصلةً عن المشكلة الأخلاقية، والمشكلة الأخلاقية ليست منفصلةً عن نسيان الآخرة.

من نسي يوم الجمع، اتسعت عنده مساحة العبث.

ومن أيقن أنه سيقف بين يدي الله، صار أكثر خشيةً من أن ينسب إلى الوحي ما لم يقله.

## حين تسقط الحصانات الزائفة

بعد أن ذكرت السورة يوم الجمع، نزعت عن الإنسان الأوهام التي يتخيل أنها تستطيع حمايته في ذلك اليوم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**﴾ **(١٠)**

يعيش الإنسان في الدنيا داخل شبكة من الأسباب تمنحه شعورًا بالقوة. يملك المال، فيظن أن كل باب مغلق يمكن فتحه. ويكثر حوله الأبناء والأنصار، فيخال أن العدد سور لا يُخترق. ويجرب نفوذ المال في الناس، فينسى أن هناك مقامًا لا تُشترى فيه النجاة.

لكن الآية تهدم هذا الوهم بكلمة قاطعة: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾.

لا المال الذي راكموه، ولا الأولاد الذين امتد بهم اسمهم، ولا القوة الاجتماعية التي أحاطت بهم؛ لن يدفع شيء من ذلك عنهم حكم الله.

فالمال يعمل داخل الحدود التي وضعها الله له، لكنه لا يستطيع أن يتجاوزها إلى مقام الألوهية. قد يشتري دواءً، لكنه لا يشتري الخلود. وقد يوكل محاميًا، لكنه لا يجد لصاحبه محاميًا أمام العليم بما في الصدور. وقد يصنع حول الإنسان جمهورًا، لكنه لا يصنع له عند الله براءة.

وكذلك الأولاد: قد يحملون الاسم بعد أبيهم، لكنهم لا يحملون عنه ذنبه. وقد يدافعون عن صورته في الدنيا، لكنهم لا يستطيعون تعديل حقيقة عمله في الآخرة.

إن ما يملكه الإنسان في الدنيا متاع جعله الله بين يديه؛ فإن استعمله في طاعته صار شاهدًا له، وإن اتخذه حجابًا عن الله انقلب عليه. ليست المشكلة في المال والأولاد، بل في القلب حين يطلب منهما ما لا يملكه إلا الله.

ثم تأتي الصورة المرهبة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

لقد ظنوا أن الأموال تزيدهم امتلاءً وقوة، فإذا هم في النهاية وقود. وما أقسى انقلاب المصير حين تتحول القوة التي عاش بها الإنسان مستغنيًا عن الله إلى عجز كامل بين يديه!

## التاريخ لا يحمي من تكرار المصير

ثم تنقل السورة هؤلاء من وهم الحصانة بالمال والولد إلى مرآة التاريخ:

**﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١١)**

ليست هذه أول مرة يملك فيها قوم المال والقوة ثم يتوهمون أن ملكهم يحميهم من الله. لقد سار قبلهم آل فرعون في الطريق نفسه: سلطان واسع، وجند حاضر، ودولة تفرض روايتها على الناس، وحاكم يبلغ به الغرور أن ينازع في مقام الربوبية.

كان فرعون يملك من أسباب القوة ما يجعل المستضعفين أمامه كأنهم لا شيء. يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويقسم الناس شيعًا، ويصنع حول سلطانه جهازًا من الجنود والسحرة والكهنة.

لكن هذا البناء كله لم يكن قائمًا بنفسه.

كان قائمًا بإمهال الله، فلما جاء أمره لم تحتج نهايته إلى جيش يماثل جيشه. انفتح الماء لموسى ومن معه، ثم انطبق على فرعون وجنده. وفي لحظات قليلة سقطت المسافة كلها بين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وبين جسد عاجز يقذفه البحر.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

لم يأخذهم الله بقوة خصومهم المجردة، ولم يقع ما وقع مصادفةً عمياء؛ بل أخذهم بذنوبهم. فالهلاك الذي ظهر في الخارج كانت جذوره قد نمت طويلًا في الداخل: تكذيب، واستكبار، وظلم، وإصرار.

وهذه الآية تجعل التاريخ محكمةً مفتوحة. فالأمم لا تقرأ قصص السابقين لتملأ ذاكرتها بالأحداث، بل لتتعرف إلى الطرق التي تنتهي إلى المصائر نفسها.

قد تتغير أسماء الدول، وتتبدل أدوات القوة، ويحل الإعلام مكان سحرة القصور؛ لكن الدأب يبقى دأبًا إذا بقي التكذيب والظلم والاستكبار.

ومن كرر السبب، لا ينبغي أن يظن أن اختلاف اسمه سيمنع النتيجة.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن إمهاله ليس عجزًا، وصبره على عباده ليس غفلة، وتأخر الأخذ ليس نسيانًا. قد يطول للباطل حبل الحركة حتى يظن أنه أفلت، لكنه يتحرك طوال الوقت داخل ملك الله.

## القوة التي تنتظرها الهزيمة

بعد ضرب المثل بآل فرعون، يوجّه الخطاب إلى الذين كفروا: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (١٢)**

إنها كلمة تقال في وجه القوة وهي في ذروة شعورها بنفسها: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

لم تكن الموازين الظاهرة يومئذ تسمح للعين المادية أن تقولها بسهولة. كان المؤمنون جماعة حديثة البناء، تحيط بها قوى كثيرة، ولم تكن بين أيديهم خزائن الإمبراطوريات ولا أعدادها.

لكن القرآن لا يقرأ الحاضر منفصلًا عن سنن الله، ولا يزن القوة بما ظهر منها وحده. قد يكون الباطل ممتلئًا بأسباب سقوطه في اللحظة التي يراه الناس فيها شديد التماسك. وقد تكون جماعة الحق تبني ببطء شروط نهوضها بينما يظنها المراقبون في أضعف حالاتها.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ ليست تعويذة تُقال من غير عمل، ولا وعدًا يعفي المؤمنين من إعداد القوة؛ إنها كشف عن النهاية التي تنتظر الكفر مهما امتدت جولاته، وتحرير لقلب المؤمن من سطوة المشهد العابر.

لكن الهزيمة الدنيوية ليست نهاية الأمر: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

قد يخسر الباطل معركةً ثم يعيد بناء قوته، وقد تنهار دولة ثم تبقى أفكارها؛ أما الحشر فهو النهاية التي لا إعادة بعدها. هناك تنتهي القدرة على تزوير الهزيمة وتحويلها في الإعلام إلى انتصار، وتسقط كل الروايات المصنوعة.

ثم تقول الآية: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

المهاد موضع يستقر فيه الإنسان، وغالبًا ما تستدعي الكلمة معنى الراحة؛ لكنهم أعدوا لأنفسهم بسوء اختيارهم مهادًا من نار. ظنوا أن القوة تمهّد لهم الدنيا، فإذا ما مهّدوه بأعمالهم ينتظرهم في الآخرة.

فالإنسان لا يعبر أيامه فقط؛ إنه يفرش بعمله الموضع الذي سيستقر فيه.

**بدر: حين رأت العين ما وراء العدد**

لم تترك السورة وعد الهزيمة مجرد خبر عن المستقبل؛ بل وضعت أمام المخاطبين شاهدًا رأوه أو بلغهم خبره:

**﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣)**

كانت بدر حدثًا وقع في الأرض، لكن السورة تسميه: ﴿آيَةٌ﴾.

فالوقائع لا تكون تاريخًا فقط؛ قد تكون كلمات يكتبها الله في ميدان الحياة، ليقرأ الناس من خلالها سننه. التقت فئتان، وكان في ظاهر اللقاء جيشان متفاوتان في العدد والعدة، لكن الفرق الأعمق لم يكن في السلاح: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾.

لقد حددت الغاية هوية كل فئة. الأولى لا تقاتل لتصنع مجد أفرادها، ولا لتستبدل طغيانًا بطغيان، بل تقاتل في سبيل الله. والأخرى خرجت تحمل كفرها واستكبارها وصدها عن سبيله.

ومع ذلك لم تقل الآية إن المؤمنين انتصروا لأنهم مؤمنون دون فعل. لقد خرجوا، وثبتوا، وقاتلوا، وبذلوا ما يملكون؛ ثم جاء التأييد من الجهة التي لا تصنعها الأسباب: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

التأييد زيادة قوة تأتي من الله، فتجعل السبب الصغير يبلغ أثرًا أكبر من حجمه. ليس إلغاءً للسبب، بل نفخًا للبركة فيه. قد تملك فئة سلاحًا قليلًا، لكن الله يؤيد قلبها بالثبات، ورؤيتها بالوضوح، وصفها بالتماسك، وخطوتها بالتوفيق.

وقد تملك فئة أخرى كثرةً ظاهرة، لكن الرعب يأكلها من الداخل، والتنازع يقطع قوتها، والغاية الفاسدة تشتت إرادتها.

إن النصر ليس عملية حسابية مغلقة. العدد مهم، والإعداد واجب، والخطة ضرورة؛ لكن وراء ذلك كله مشيئة الله، فلا تستقل الأسباب بصناعة النتائج.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

تكشف الآية أن العين نفسها جزء من ميدان التدبير. فالإنسان لا يتعامل مع الأشياء كما هي فقط، بل كما يراها قلبه في لحظة الامتحان. قد يرى القليل كثيرًا فيمتلئ خوفًا، وقد يرى الصعوبة داخل معية الله فتصغر دون أن تختفي حقيقتها.

وفي بدر تعلّم المؤمنون أن الرؤية المادية ليست آخر طبقات الواقع. وراء ما تراه العين مدد لا تراه، ووراء تفاوت العدد ربّ يؤيد بنصره من يشاء.

لكن الآية لا تمنح هذا المشهد لكل عين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

لم تقل: لأصحاب الأبصار؛ فكل الناس يملكون عيونًا، ولكن ليس كل ناظر صاحب بصيرة. قد يشاهد الإنسان الواقعة ثم لا يرى إلا المصادفة، أو يختزل النصر في عبقرية بشرية منفصلة عن الله، أو يخرج من الحدث منبهرًا بالقوة دون أن يعبر منها إلى السنّة.

العبرة مأخوذة من العبور؛ أن تعبر من ظاهر الواقعة إلى معناها، ومن الحدث المفرد إلى القانون الذي يتكرر، ومن النصر إلى المنعم به.

وأولو الأبصار هم الذين لا تحبسهم الصورة عند سطحها. يرون الفئتين، لكنهم يرون وراءهما اختلاف السبيل. يرون القتال، لكنهم يرون وراءه الغاية. يرون النتيجة، لكنهم لا ينسون صاحب التأييد.

وهكذا ينتهي هذا المقطع كما بدأ: بردّ الأشياء إلى مركزها.

افتتح بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

ثم عرض الكتاب، والفرقان، وإحاطة العلم، وتصوير الخلق، والمحكم والمتشابه، ودعاء الراسخين، ويوم الجمع، وسقوط حصانة المال والولد، ومصير آل فرعون، ووعد الكافرين بالهزيمة، وآية بدر.

وفي كل ذلك تعيد السورة الوعي إلى الحقيقة نفسها: الله هو المركز.

هو الذي أنزل الكتاب.

وهو الذي يعلم السرائر.

وهو الذي يصور الخلق.

وهو الذي يحفظ القلوب من الزيغ.

وهو الذي يجمع الناس.

وهو الذي يأخذ المكذبين بذنوبهم.

وهو الذي يؤيد بنصره من يشاء.

هكذا تؤسس السورة أول قواعد الرحلة:

أن يكون الله مركز الوعي.

وأن يكون الوحي هو الفرقان.

وأن تُرد المتشابهات إلى المحكمات.

وأن نراقب قلوبنا ونحن نقرأ، لا أن نراقب الألفاظ وحدها.

وأن نستمد الثبات من الله، لا من غرورنا بالعلم.

وأن نتذكر أن كل قراءة ستقف يومًا مع صاحبها بين يدي رب العالمين.

وأن نعلم أن المال والولد لا يصنعان حصانةً من الله.

وأن نقرأ التاريخ بوصفه مستودعًا لسنن لا تحابي أحدًا.

وأن نأخذ بالأسباب، من غير أن ننسى أن التأييد والنصر من الله.

فليس السؤال الأول عند قراءة القرآن: كم معنى جديدًا استخرجنا؟

بل: هل ازددنا خضوعًا للحق، أم ازددنا قدرةً على تطويع ألفاظه لأهوائنا؟

هناك معرفة تفتح للإنسان باب العبودية، ومعرفة تجعله يتوهم أنه صار وصيًّا على الوحي. الأولى نور؛ لأنها ترد العقل إلى مقام الأمانة. والثانية فتنة؛ لأنها تجعل العقل يمد يده إلى الميزان ليغيّر أثقاله.

ومن هذا البناء العقدي والمعرفي تنتقل السورة إلى امتحان آخر. فإذا كان اتباع المتشابه فتنة العقل، فإن فتنة العين ما تراه من مال وقوة وشهوة وزينة.

وهناك، في السوق الصاخب للحياة، سيُختبر القلب مرةً أخرى:

هل يرى الدنيا كما تلمع، أم كما تنتهي؟

وهذا ما يفتح لنا باب الفصل الثاني: **حين تُفتن النفس بما يزول.**

## الفصل الثاني

## حين تُفتن النفس بما يزول

## الآيات من (١٤) إلى (٣٤)

بعد أن كشفت السورة فتنة العقل حين يتبع المتشابه، تنتقل إلى فتنة البصر حين يتبع اللمعان.

فليست الضلالة فكرةً خاطئةً دائمًا؛ قد تكون شيئًا جميلًا وُضع في غير مرتبته. وليس الخطر في أن يرى الإنسان جمال الدنيا، بل في أن يحتل هذا الجمال مساحةً في قلبه أكبر من حقيقته، فيظن العابر مقيمًا، والوسيلة غايةً، والزينة قيمةً نهائية.

قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (١٤)

## زينةٌ لا يكذب القرآن في وصفها

لم يقل القرآن إن هذه الأشياء قبيحة، ولم يطلب من الإنسان أن يتظاهر بالنفور مما أودع الله في فطرته الميل إليه. سمّاها شهوات، وذكر أنها زُيّنت للناس؛ لأن الوحي لا يبني التقوى على إنكار الطبيعة، بل على تهذيبها.

فالمرأة موضع سكن ومودة.

والبنون امتداد وبهجة.

والمال أداة عمران وكفاية.

والخيل قوة وجمال.

والأنعام والحرث قوام حياة الناس.

ولا يتحول شيء من ذلك إلى شر لمجرد أن القلب يحبه؛ إنما يبدأ الخلل حين يخرج الحب من ميزانه، وحين لا يعود الإنسان مالكًا لما في يده، بل يصير ما في يده مالكًا له.

إن القرآن لا يحارب الجمال، بل يحارب العبودية للجمال الزائل.

ولا يحارب المال، بل يحارب أن يتحول المال من شيء نسعى به إلى الخير إلى شيء نبيع الخير من أجله.

ولا يحارب الأسرة، بل يحارب أن تصبح رابطة الدم أقوى في النفس من رابطة الحق.

ولا يحارب القوة، بل يحارب أن يظن صاحبها أنها تعفيه من العبودية.

وهذا من واقعية القرآن: لا يطلب من الإنسان أن يخرج من بشريته كي يهتدي، بل يعلّمه كيف يكون بشرًا دون أن تستعبده بشريته.

## المتاع: حقيقة الشيء وحدوده

بعد ذلك العرض المليء بما يجذب النفس، تأتي جملة قصيرة تطفئ سطوة اللمعان من غير أن تلغي الجمال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

لم يقل: ذلك لا قيمة له.

قال: متاع.

والمتاع ما ينتفع به الإنسان مدةً ثم يتركه. الكلمة لا تسلب الدنيا نفعها، ولكنها تسلبها دعوى البقاء. تضع حولها حدًّا زمنيًّا حتى لا تتمدد في الوجدان وتزعم أنها كل شيء.

فالذهب نافع، لكنه لا يعبر القبر.

والبنون قرة عين، لكنهم لا يحملون عن آبائهم حسابهم.

والحرث يملأ المخازن، لكنه لا يملأ فراغ الروح.

والقوة تحرس الجسد زمنًا، لكنها لا ترد عنه الأجل.

كل شيء في الآية جميل، وكل شيء فيها منتهٍ.

وهذا هو الامتحان: أن تستعمل المنتهي دون أن تمنحه قلبًا خُلق للتعلق بالباقي.

لقد وصف القرآن الحياة بـ«الدنيا»؛ فهي القريبة التي تقع تحت الحواس، وهي كذلك الأدنى إذا قورنت بما عند الله. وخطورتها آتية من قربها؛ فالإنسان يتأثر

بما تراه عينه الآن أكثر مما يعرفه يقينه عن الغد. وربما غلب مشهد صغير حاضر حقيقةً عظيمةً غائبةً عن البصر.

يرى قطعة الذهب، ولا يرى الحساب.

يسمع ثناء الناس، ولا يسمع بعدُ سؤال الله.

يذوق لذة العاجل، ولا يستحضر مرارة العاقبة.

ولهذا لا يكفي أن يؤمن الإنسان بالآخرة إيمانًا ذهنيًّا؛ ينبغي أن تصبح الآخرة حاضرةً في ميزانه حتى تزاحم الحاضر المحسوس وتمنعه من الاستبداد بقراره.

## التزيين حين يصبح حجابًا

الزينة لا تغيّر حقيقة الشيء، بل تغيّر طريقة ظهوره للعين.

قد يكون الشيء صغيرًا، فتجعله الزينة كبيرًا.

وقد يكون سريع الزوال، فتمنحه في الشعور هيئة الخلود.

وقد يكون وسيلة، فتجعله يبدو غاية.

ولهذا كانت الدنيا فتنةً لا لأنها تخلو من الجمال، بل لأن جمالها يُرى، بينما فناؤها يحتاج إلى بصيرة. الزهرة تعرض لونها فورًا، لكنها تخفي ذبولها في أيامها القادمة. والمال يعرض قدرته على الشراء، لكنه لا يعرض عجزه أمام

المرض والموت. والمنصب يعرض ارتفاع صاحبه فوق الناس، لكنه يخفي اللحظة التي يغادر فيها كرسيه فلا يبقى منه إلا ما قدّم.

إن العين ترى نصف الحقيقة.

أما الوحي فيأتي بالنصف الذي غاب عنها.

تقول العين: هذا ذهب.

ويقول الوحي: ومتاع.

تقول العين: هذه قوة.

ويقول الوحي: وستزول.

تقول العين: هؤلاء أبناء يحملون اسمك.

ويقول الوحي: ولن يغنوا عنك من الله شيئًا.

وهكذا لا يلغي الوحي شهادة العين، لكنه يكملها حتى لا تتحول الرؤية الناقصة إلى حكم كامل.

## القناطير المقنطرة: حين يتضخم الشعور بالأمان

قال تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾.

في التعبير إحساس بالتكثير والتكديس؛ مال فوق مال، ومقدار لا تكتفي النفس بوظيفته، بل تطلب من تراكمه شعورًا بالحصانة. فالإنسان لا يجمع المال دائمًا لحاجة يعرفها، وإنما قد يجمعه ليصنع حول ضعفه جدارًا من الوهم.

يظن أن الكثرة ستؤمّنه من تقلب الأيام.

كلما خاف زاد ما يملك، وكلما زاد ما يملك اتسعت مساحة ما يخاف عليه. كان المال في أوله جوابًا للخوف، ثم صار مصدرًا جديدًا له. يمتلك الإنسان خزانة، ثم تمتلك الخزانة نومه وهدوءه وعلاقاته وقراراته.

وهنا تتحول النعمة إلى سجن له جدران لامعة.

ليس الفقير وحده من يشعر بالحاجة؛ قد يكون صاحب القناطير أشدَّ فقرًا، لأن حاجته لم تعد إلى مقدار يكفيه، بل إلى يقين لا يستطيع المال أن يمنحه. يريد من الذهب أن يؤدي وظيفة التوكل، ومن الرصيد أن يمنحه طمأنينةً لا يهبها إلا الله.

لكن الأشياء المخلوقة لا تحتمل أن نحمّلها وظائف إلهية. وحين نطلب منها ما لا تملك، تعاقبنا بالقلق.

المال يستطيع أن يشتري دواءً، لكنه لا يكتب الشفاء.

ويستطيع أن يبني بيتًا، لكنه لا يخلق سكينةً بين جدرانه.

ويستطيع أن يجمع الناس حول مائدة، لكنه لا يضمن صدق قلوبهم.

ويستطيع أن يؤخر بعض صور الألم، لكنه لا يشتري نجاةً من الموت.

فإذا عرف الإنسان حدود المال، أحسن استعماله. وإذا ظنه قادرًا على إقامة وجوده، نسي القيوم الذي افتتحت السورة باسمه.

وهنا تظهر صلة خفية بين مطلع السورة وهذه الآية: من آمن بأن الله هو القيوم، لم يطلب من المال أن يقيمه.

## والبنون: الامتداد الذي لا يخلّد صاحبه

حب الأبناء من أعمق ما في الفطرة. يرى الإنسان في ولده قطعةً خرجت منه، وامتدادًا لاسمه بعد فنائه، وفرصةً ليعيش المستقبل الذي لن يدركه.

لكن القرآن يضع هذا الحب داخل دائرة العبودية. فالولد عطية، لا ملكية مطلقة؛ وأمانة، لا وسيلة ليحقق الأب من خلالها طموحه الشخصي. وما أكثر ما يظلم الآباء أبناءهم حين لا يرون فيهم ذواتًا لله، بل نسخًا ينبغي أن تستكمل أحلامهم الناقصة.

وقد تتحول محبة البنين إلى عصبية تجعل الإنسان ينصر ولده في الباطل، ويغطي خطأه، ويزن الناس بقدر قربهم من دمه. عندئذ لا تعود الأسرة موطن الرحمة، بل تصبح صنمًا اجتماعيًّا تُذبح عنده العدالة.

الإيمان لا يطفئ حنان الأبوة، بل ينقّيه من التملك.

يحب المؤمن أبناءه، لكنه يعلم أنهم لله قبله.

يربيهم، لكنه لا يعبد نجاحهم.

يحزن لألمهم، لكنه لا يعترض على ربه فيهم.

ويحرص على مستقبلهم، لكنه لا يختزل المستقبل في وظيفة ومال ومكانة؛ بل يرى أن أعظم ما يورثه لهم قلب يعرف الله.

ولعل السورة ستقدم بعد قليل النموذج المقابل لهذا الحب المهذب في امرأة عمران. فقد أحبت ما في بطنها، لكنها لم تحتكره لنفسها، بل قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

هناك يبلغ حب الولد ذروة نقائه: أن تحبه حتى تحرره لله، لا أن تحب نفسك فيه.

## الخيل والأنعام والحرث: الحضارة في مرآة القلب

تذكر الآية الخيل المسومة، والأنعام، والحرث؛ وهي في زمان التنزيل معالم القوة والثروة والإنتاج. فالفتنة لا تقع في المتع الفردية فحسب، بل قد تقع في أدوات الحضارة ذاتها.

قد تفتن الأمة بجيشها كما يُفتن الفرد بماله.

وقد تعبد تفوقها التقني وهي تزعم أنها لا تعبد شيئًا.

وقد ترى كثرة إنتاجها دليلًا على صحة قيمها، كأن القدرة على صناعة الأشياء تعني القدرة على معرفة الغاية من الإنسان.

لكن الحضارة قد تمتلك خيولًا مسومةً ولا تعرف إلى أين تسير.

وقد تملأ الأرض حرثًا ثم تترك الروح مجدبة.

وقد تُحسن إدارة الأنعام والثروات وتعجز عن إدارة شهواتها.

فالوفرة ليست دليل هداية، والقوة ليست شهادةً أخلاقية. إن الأشياء تجيب عن سؤال: ماذا نملك؟ لكنها لا تجيب عن السؤال الأعمق: مَن نحن؟ ولماذا نملك؟ وفي أي طريق ننفق ما نملك؟

لا يحتقر القرآن العمران؛ فقد جعل الله الإنسان مستخلفًا في الأرض. لكنه يرفض عمرانًا يتضخم خارجه ويتهدم داخله. فما قيمة مدينة ترتفع مبانيها بينما تنخفض قيمة الإنسان فيها؟ وما قيمة اقتصاد تتسع أرقامه بينما تضيق صدور الناس بالخوف والوحدة؟ وما قيمة قوة تحمي الحدود إن كانت تفتك بالعدالة داخلها؟

إن الخيل والحرث والمال لا تحمل معنى أخلاقيًّا مستقلًا؛ الإنسان هو الذي يهبها اتجاهها. الخيل نفسها قد تحمل مجاهدًا يدفع الظلم، وقد تحمل طاغيةً يوسع به حدود طغيانه. والمال نفسه قد يطعم جائعًا، وقد يشتري ضميرًا.

والأرض نفسها قد يزرعها صاحبها قوتًا للناس، وقد يجعلها أداةً لاحتكار أرزاقهم.

النعم لا تخبرنا وحدها عن أصحابها؛ إنما يكشفهم الطريق الذي وجّهوها إليه.

## أؤنبئكم بخير من ذلكم؟

بعد أن عرضت الآية ما تحبه النفوس، لم تأمرهم السورة بقتل الرغبة، بل رفعتها إلى أفق أوسع: ﴿**قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ **(١٥)**

يا لجمال هذا الانتقال!

لم يقل: أأنبئكم بنقيض ما تحبون، بل قال: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

فالتربية القرآنية لا تترك القلب فارغًا بعد تحريره من التعلق بالدنيا؛ إنها تنقل رغبته من الأدنى إلى الأعلى، ومن العاجل إلى الباقي، ومن اللذة التي يخالطها خوف الفقد إلى النعيم الذي لا يتهدده زوال.

إن القلب لا يُشفى من حب صغير بمجرد التوبيخ، بل بأن يرى محبوبًا أعظم.

ولا يتجاوز لذةً عاجلةً لمجرد أن يسمع ذمها، بل حين يتذوق في يقينه معنى ما هو خير منها.

لهذا جاء التعبير في صورة سؤال يوقظ الفضول: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾؟

كأن القرآن يقترب من النفس التي بهرها الذهب والخيل والبنون، فلا يصرخ فيها، بل يقول لها في هدوء: أتظنين أن هذا نهاية الجمال؟ أأخبرك بما هو خير؟

إنك لم تُخلقي لتُحرمي من الحب، بل لتعرفي ما يستحق الحب الأكبر.

ولم تُخلقي بلا رغبة، بل خُلقت رغبتك واسعةً حتى لا يملأها المحدود.

## للذين اتقوا عند ربهم

ثم يأتي الجواب: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ**﴾.

كان متاع الدنيا قريبًا من الحواس، أما هذا الخير فهو: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وهذه الكلمة وحدها تكفي لتبديل ميزان القيمة. فما كان عند الناس قد يرتفع ثمنه بالشهرة، ثم يسقط حين تتغير أذواقهم. أما ما كان عند الله فقيمته ثابتة؛ لأنه مودع عند من لا تضيع ودائعه.

والتعبير بـ«ربهم» يسكب الأنس في الوعد. فالذي أعد الجنة ليس قوةً مجهولة، بل ربهم الذي خلقهم وربّاهم وهداهم وعلم ضعفهم وجهادهم. إنهم لا يسيرون نحو نعيم بارد منفصل عن العلاقة بالله؛ بل يعودون إلى ربهم، فيجدون عنده ما وعدهم.

ثم تقابل الآية بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة:

هنا حرث ييبس، وهناك جنات.

هنا ماء قد ينقطع، وهناك أنهار تجري.

هنا متاع مؤقت، وهناك خلود.

هنا جمال تخالطه الآفات، وهناك أزواج مطهرة.

لكن المفاجأة الكبرى تأتي في نهاية العرض:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

بعد الجنات والأنهار والخلود، يرتفع الوعد فوق كل صورة حسية إلى رضوان الله. كأن النعيم كله درجات تصعد بالقلب حتى تنتهي عند أعظمها: أن يعلم العبد أن الله قد رضي عنه.

فالإنسان لا يريد الأشياء وحدها؛ إنه يريد من خلالها معنى القبول. يجمع المال ليشعر بالقيمة، ويطلب المكانة ليسمع الاعتراف، ويتعلق بالناس ليطمئن أنه محبوب. لكن كل صور القبول البشري ناقصة ومؤقتة. قد يرضى الناس اليوم ويسخطون غدًا، وقد يمدحون ظاهرًا ويخفون غيره، وقد يمنحونك مكانةً لأنهم ينتفعون منك.

أما رضوان الله فلا يشوبه نفاق، ولا يعقبه سخط على أهل الجنة، ولا يحتاج معه العبد إلى أن يثبت قيمته لأحد.

في الجنة لا ينجو المؤمن من الألم فقط، بل ينجو من السؤال المرهق الذي لاحقه في الدنيا: هل أنا مقبول؟

يأتيه رضوان الله جوابًا نهائيًّا يسكّن كل خوف قديم.

ولهذا كان الرضوان أكبر من النعيم؛ لأن النعيم عطاء، والرضوان قرب وقبول. وقد يفرح الإنسان بالهدية، لكنه يفرح بمحبة مُهديها أعظم من فرحه بها.

**والله بصير بالعباد**

تختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

يبصر من ترك شهوةً لا يراه الناس وهو يتركها.

يبصر من كان قادرًا على الحرام، ثم منعه مقام الله في قلبه.

يبصر الفقير الذي نظر إلى زخارف الأغنياء، فتألم ولم يعترض.

ويبصر الغني الذي مر المال من يده ولم يدخل إلى موضع العبودية في قلبه.

ويبصر من أنفق مما يحب، ومن أعطى ما استغنى عنه ثم ظن أنه بلغ البر.

ويبصر الجهاد الصامت الذي لا تصنع له المنابر حكاية: جهاد العين وهي تغض، واللسان وهو يمسك، والقلب وهو يرد الحسد، والنفس وهي ترى نصيب غيرها فلا تتهم حكمة الله.

إن التقوى في كثير من صورها حدث لا يشهده إلا الله. ولهذا كان كافيًا للمتقي أن الله بصير به. فالعمل الذي لا يصفق له الناس لا يضيع، والدمعة التي تختبئ في الليل لا تسقط خارج العلم الإلهي، والرغبة التي ذبحها صاحبها على عتبة الطاعة مكتوبة في سجل لا يغادر خفقة قلب.

## الذين يقولون ربنا إننا آمنا

ثم تصف السورة أولئك الذين أُعد لهم الخير: ﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ **(١٦)**

لم يقولوا: ربنا إننا أحسنّا، أو إننا بلغنا، أو إننا استحققنا. قدّموا إيمانهم، ثم سألوا المغفرة؛ لأن المؤمن الصادق كلما اقترب من الله ازداد علمًا بنقصه.

الإيمان لم يجعلهم يشعرون بالأمان من مكر النفس، بل جعلهم أبصر بذنوبهم. أما القلب القاسي، فقد يعصي ولا يشعر بثقل معصيته؛ لأنه فقد الميزان الذي يزن به نفسه.

قالوا: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾.

لم يطلبوا أن تُمحى آثار الذنب في السمعة، بل أن يُستر عند الله ويُتجاوز عنه. فالعار الحقيقي ليس أن يعرف الناس نقصك، بل أن تلقى الله بذنب لم يغفره.

ثم قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

إنهم رأوا النار حقيقةً لا صورةً وعظيةً باهتة. ولذلك أثّر المستقبل في حاضرهم، وصارت الآخرة قوةً أخلاقيةً تعمل الآن. وما تبرد معاني النار في

قلب إنسان إلا اتسعت عنده مساحة التساهل؛ إذ يفقد الذنب ظله الأخروي، فيبدو لحظةً صغيرةً منفصلةً عن مصيرها.

لكن القرآن يربط اللذة العابرة بنهايتها، كما ربط الطاعة الشاقة بجنتها. يعيد إلى الفعل ذيله الذي تخفيه الدنيا، حتى يراه الإنسان كاملًا قبل أن يختاره.

## خمس صفات تبني الإنسان الحر

ثم تقول السورة: ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ **(١٧)**

خمس صفات ترسم ملامح الإنسان الذي تحرر من استبداد الزينة.

الصابرين؛ لأن الطريق إلى ما عند الله طويل، بينما الشهوة تقترح نفسها الآن. والصبر هو قدرة القلب على ألا يبيع غايته الكبرى تحت ضغط اللحظة.

ليس الصبر خمولًا، بل قوة تمنع الألم من تغيير الوجهة. قد يتوجع الصابر، وقد يبكي، وقد تضيق نفسه؛ لكنه لا يسلّم زمام قراره للوجع. يظل متجهًا إلى الله وإن سار إليه بقلب جريح.

والصادقين؛ لأن فتنة الدنيا تدفع الإنسان إلى صناعة صور زائفة عن نفسه. يريد المال فيسميه رسالة، ويطلب الجاه فيسميه خدمة، وينتقم لنفسه فيسميه غضبًا للحق.

والصدق أن يزيل الإنسان الأسماء الجميلة عن أهوائه، وأن يرى نيته قبل أن يراها خصمه. فمن صدق مع الله لم يحتج إلى تجميل نفسه في مرآة الناس.

والقانتين؛ فالتحرر من عبودية الدنيا لا يتم بمجرد معرفة فنائها، بل بإقامة عبودية بديلة لله. النفس لا تعيش بلا خضوع؛ فإن لم تخضع للحق خضعت للشهوة، وإن لم تسجد لله سجدت لرأي الناس أو سلطان المال أو خوف المستقبل.

والقنوت دوام طاعة تسكن فيها الجوارح تحت سلطان المحبة والخشية.

والمنفقين؛ لأن المال لا يخرج من القلب بمجرد الكلام عن الزهد، بل حين يخرج من اليد في موضع يحبه الله. الإنفاق اختبار عملي: أأنت تملك المال حقًّا، أم أنه يملكك؟

عندما يعطي الإنسان مما يحب، فهو لا ينقل شيئًا من خزانته إلى يد فقير فحسب؛ إنه ينتزع جزءًا من الدنيا من موضع السيادة في قلبه.

والمستغفرين بالأسحار؛ وهنا تختم الصفات بمشهد بالغ الرقة: ليل يوشك أن ينصرف، ودنيا نائمة، وعبد قائم في آخر الظلام يقول: اغفر لي.

بعد الصبر والصدق والقنوت والإنفاق، لا يقف مزهوًّا بأعماله، بل مستغفرًا. كأن السحر يغسل من قلبه غبار الطاعة كما يغسل منه غبار المعصية؛ لأن للطاعة آفةً خفيةً هي أن يرى الإنسان نفسه بها.

## السَّحَر: حين تسقط أقنعة النفس

### لماذا السَّحَر؟

لأنه وقت تخف فيه ضوضاء العالم، وتسقط وظائف الإنسان الاجتماعية. لا جمهور يراقبه، ولا خصم يجادله، ولا سوق يفاوضه، ولا منصب يحوطه. يبقى وحده أمام الله، ويظهر السؤال في أنقى صورة:

من تكون حين لا يراك أحد؟

في النهار يستطيع الإنسان أن يصنع لنفسه هيئة الصالح، أما في السحر فلا يقوم إلا قلب أيقظه الشوق أو الخوف أو الألم. هناك يصبح الاستغفار أكثر صدقًا، لأن اللسان لا يؤدي دورًا أمام الناس، بل يعود إلى حقيقته الأولى: عبد يطرق باب ربه.

والسحر منطقة بين ليل يرحل وفجر يولد. فكأن المستغفر يقف في هذا الحد الفاصل يحمل ظلمة ذنبه إلى نور المغفرة، ويشهد في الكون صورة ما يرجوه في روحه: أن ينشق الفجر من قلب العتمة.

كم من إنسان نام الناس عنه، وبقي الله معه.

وكم من مكسور لم يجد في النهار موضعًا يضع فيه ألمه، فلما جاء السحر بسطه بين يدي ربه، فعاد الجرح نفسه بابًا إلى القرب.

وكم من مذنب ظن أن الطريق قد أُغلق، ثم سمع في داخله نداء الاستغفار، فعرف أن الله الذي أيقظه لطلب المغفرة يريد به خيرًا.

إن المستغفر بالسحر لا يقول إنه بلا ذنب؛ لكنه يرفض أن يجعل الذنب وطنًا دائمًا. يعود كلما ابتعد، ويغسل قلبه كلما تراكم عليه الغبار. فالاستقامة ليست ألا تتعثر النفس أبدًا، بل ألا ترضى بالبقاء في موضع العثرة.

## حين يشهد الله لنفسه

بعد ذكر شهوات الدنيا وصفات المتقين، تعود السورة إلى الحقيقة المركزية: **﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)**

الدنيا تقول للإنسان: هناك آلهة كثيرة وإن لم تسمِّ نفسها آلهة.

المال يطلب الطاعة.

والشهوة تطلب الخضوع.

والسلطة تطلب الولاء.

والجمهور يطلب أن تصوغ نفسك على هواه.

ثم تأتي الشهادة الكبرى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

كل تحرر حقيقي يبدأ من هنا. ليست كلمة التوحيد قضيةً نظريةً عن عدد الآلهة، بل تحرير للإنسان من كل ما يريد أن يحتل في قلبه مقام الله.

حين يقول المؤمن: لا إله إلا الله، فهو يرفض أن يكون المال مصدر قيمته، أو الناس مصدر هويته، أو الشهوة صاحبة القرار الأخير فيه. يضع كل شيء في مرتبته، ثم يترك قمة القلب لله وحده.

وتأتي شهادة الملائكة وأولي العلم؛ لأن العلم الصحيح ينتهي إلى التوحيد، لا إلى الاستعلاء. كلما اتسعت معرفة الإنسان بالوجود، رأى آثار الافتقار فيه، وأدرك أن الكثرة كلها تقوم على الواحد، وأن النظام يشهد بالحكمة، والعجز يشهد بالقدرة، والتغير يشهد بمن لا يتغير.

لكن الآية لا تذكر التوحيد منفصلًا عن العدل: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

فالله واحد، وهو قائم بالقسط. ولا يكتمل توحيد الإنسان إذا وحّد الله بلسانه ثم جعل الظلم منهجًا في حياته. فالذي يعبد الإله القائم بالقسط ينبغي أن يظهر أثر ذلك في حكمه وبيعه وشهادته وعلاقاته.

لا يجوز أن تتحول العقيدة إلى غطاء للعدوان، ولا أن يصبح الدفاع عن الحق ذريعةً لبخس حقوق الناس. فالقسط ليس ملحقًا بالتوحيد؛ جاءت الشهادة به في قلب آية التوحيد.

والإنسان الذي يظلم من دونه ليحفظ مكانته إنما يكشف أن المكانة صارت إلهًا خفيًّا في قلبه. والذي يكذب ليحفظ ماله يكشف أن المال نازع الله مقام الطاعة. فكل ظلم يحمل في أعماقه خللًا في العبودية، وكل قسط صادق هو ثمرة من ثمار التوحيد.

## إن الدين عند الله الإسلام

ثم تأتي النتيجة: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩)**

الإسلام هنا هو الاستسلام لله بالتوحيد والطاعة، وهو دين الأنبياء جميعًا في أصله الجامع. لم يكن إبراهيم تابعًا لعصبيةٍ جاءت بعده، ولم يكن موسى داعيًا إلى عبادة قوم أو تاريخ، ولم يكن عيسى مؤسسًا لعبادته من دون الله؛ كانوا جميعًا عبادًا مسلمين، اختلفت بعض شرائعهم واجتمع أصل دينهم في إخلاص الوجه لله.

والتعبير بـ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ حاسم؛ فقد يصنع الناس أديانًا ترضي أهواءهم، ويمنحونها أسماء مقدسة، ويكثر أتباعها، وتتراكم حولها التقاليد؛ لكن العبرة ليست بما استحسنه التاريخ، بل بما ثبت عند الله.

إن الحقيقة لا تتحول بالتصويت.

ولا يصبح الباطل حقًّا لأن أجيالًا ورثته.

ولا يمنح القدمُ الفكرةَ عصمةً.

فكم من انحراف بدأ صغيرًا، ثم غطاه الزمن بطبقات من الهيبة، حتى صار الاقتراب منه يبدو اعتداءً على المقدس. ويأتي الوحي ليزيل مهابة التراكم، ويرد الإنسان إلى السؤال الأول: ماذا أنزل الله؟

## من فتنة المال إلى فتنة التاريخ

هكذا تكشف السورة أن التعلق لا يكون بالأشياء وحدها؛ قد يتعلق الإنسان بالموروث كما يتعلق بالذهب، وباسم الجماعة كما يتعلق بالنسب، وبالمكانة الدينية كما يتعلق بالسلطة.

قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.

لم ينشأ الاختلاف هنا من غياب العلم، بل من البغي بعد حضوره.

وهذه صدمة معرفية شديدة: ليس كل انحراف ثمرة جهل، فقد يرى الإنسان الحق ثم يرفضه لأن قبوله يسلبه امتيازًا، أو يهدم زعامته، أو يساويه بمن كان يستعلي عليه.

يصبح العلم شاهدًا عليه بدل أن يكون هاديًا له.

فالمشكلة لم تكن دائمًا أنهم لم يفهموا، بل أنهم فهموا ولم يريدوا أن يدفعوا ثمن الفهم. البغي دخل بين المعرفة والانقياد، فأصبح العقل محاميًا عن المصلحة، لا شاهدًا للحق.

وما أشد حاجة أصحاب العلم إلى تطهير قلوبهم؛ فالجهل له خطر ظاهر، أما العلم إذا دخله البغي فإنه يمنح الانحراف لسانًا فصيحًا وحججًا مرتبةً وقدرةً على تضليل الآخرين.

لقد بدأت السورة بالتحذير من الزيغ، ثم عرضت فتنة الشهوات، ثم ذكرت البغي بعد العلم. وكأنها تكشف مراحل سقوط الوعي:

يميل القلب أولًا.

ثم تتعلق النفس بمصلحة.

ثم يأتي العقل ليصنع للميل والمصلحة تأويلًا.

وعندئذ يبدو الباطل في عين صاحبه موقفًا علميًّا كاملًا.

ثم تختم الآية بالتحذير: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قد يبطئ الحساب في تقدير الإنسان؛ لأن السنوات تمر ولا يرى الجزاء. لكنه سريع في ميزان الله، وسريع لأن كل آت قريب، وسريع لأنه لا يحتاج إلى بحث يجمع به الوقائع، ولا إلى زمن يستخرج فيه الخفايا.

ما إن ينتهي الأجل حتى يجد الإنسان أن المسافة التي ظنها طويلة قد انطوت، وأن الآيات التي جادل فيها صارت حججًا قائمةً بين يديه.

## أسلمت وجهي لله

أمام الجدل الذي يريد الفرار من الحقيقة، يعلن النبي ﷺ: **﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠)**

لم يقل: غلبتكم في الجدل، بل قال: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

فالغاية من المعرفة ليست أن ينتصر الإنسان لنفسه، بل أن يسلم وجهه لله. والوجه هو موضع الهوية والاتجاه؛ فإذا أسلمه العبد لله، فقد وحّد وجهته، ولم يعد موزعًا بين رضا الله ورضا الناس، ولا بين الحق ومصالحه.

ما أجمل هذه العبارة في عالم تتنازع الإنسان فيه الوجوه!

وجه يلتفت إلى الجمهور.

ووجه يراقب السوق.

ووجه يخشى السلطان.

ووجه يبحث عن صورته في أعين الآخرين.

أما المسلم فله وجهة واحدة تجمع شتاته: الله.

لا يعني ذلك أنه لا يحب الناس أو لا يعمر الأرض، بل يعني أن علاقته بكل شيء تمر من خلال علاقته بالله. يحب بأمره، ويمنع بأمره، ويأخذ بميزانه، ويترك ابتغاء وجهه.

وبهذا وحده يتحرر الإنسان من الانقسام الداخلي؛ لأن من طلب رضا الجميع مزّقته الجهات، ومن أسلم وجهه لله استقام له الطريق.

ثم يتحول إعلان الإسلام إلى سؤال يُعرض على الآخرين: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾؟

إنه السؤال الذي يختصر المسافة بين وفرة الجدل وحقيقة الموقف. قد يتسع الكلام في النبوات والكتب والموروثات، لكن القضية في نهايتها: هل أسلم الوجه لله؟

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

فالهداية ليست جمعًا للمعلومات الدينية، بل وصول المعرفة إلى موضع الانقياد. قد يعرف الإنسان كثيرًا ولا يهتدي؛ لأن العلم وقف عند عقله ولم ينزل إلى إرادته.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾.

هنا يتحرر الداعية من وهم امتلاك القلوب. عليه أن يبلغ واضحًا أمينًا، لا أن يكره النفوس على الهداية، ولا أن يحول رفضها إلى جرح شخصي ينتقم له.

لكن الاقتصار على البلاغ لا يعني أن توليهم غاب عن الحساب: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

هو يبصر المبلّغ وصدقه، ويبصر السامع وما قام في قلبه من حجة، ويبصر من تولى لأنه لم يفهم، ومن تولى لأنه فهم وخاف على مصالحه.

## حين يتحول رفض الحق إلى حرب عليه

لم يكن تولي بعضهم مجرد ابتعاد صامت، بل بلغ في تاريخ الانحراف أن صار عدوانًا على حملة الحق: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ **(٢١)**

تبدأ الجريمة في القلب كفرًا بالآيات، ثم تتمدد حتى تصبح قتلًا لمن يحملها. فالحق حين يعجز الباطل عن إسكاته بالحجة، قد يحاول إسكاته بالقوة.

وقتل النبيين ذروة التمرد؛ لأن النبي لا يطلب لنفسه ملكًا، بل يدعو الناس إلى ربهم. ومع ذلك يقتلونه، لا لأن حجته ضعيفة، بل لأن حضوره يهز البنية التي يعيش الظالمون منها.

ثم لم تحصر الآية الجريمة في قتل الأنبياء، بل ألحقت بهم:

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾.

فطريق النبوة يستمر في أصوات الذين يأمرون بالعدل. وقد لا يحمل صاحب القسط سلاحًا، لكن كلمته تهدد سلطانًا قام على الظلم. لذلك يخشاه الطاغية أكثر مما يخشى جموعًا صامتة.

قالت الآية: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وليس في قتل الأنبياء حق أصلًا، ولكن العبارة تفضح التناقض: يقتلون دعاة الحق، ثم يصنعون لجريمتهم لغةً توهم الناس أنها عدالة أو حماية للدين أو الدولة.

أما التعبير: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾،

ففيه تهكم يهدم بشاراتهم الكاذبة. أولئك الذين وعدتهم قوتهم بالأمن والخلود، ليست لهم في الحقيقة إلا بشارة العذاب.

## الأعمال التي أكلها أصلها الفاسد

**﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٢٢)**

قد تكون لهم أعمال يظنونها عظيمة، ومؤسسات تحمل أسماء الخير، وشعائر يمنحون بها أنفسهم هيئة الصلاح؛ لكن العمل لا يعيش منفصلًا عن أصله الأخلاقي والعقدي.

من يكفر بآيات الله ويقتل الأنبياء ودعاة القسط، لا تنقذه صورة دينية صنعها لنفسه.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

الحبوط ذهاب الأثر وبطلانه. كأن الأعمال كانت بناءً مرتفعًا، ثم اكتُشف أن أساسه خاوٍ، فسقط كله. لم يحبط لأن الله يضيع الإحسان، تعالى الله عن الظلم، بل لأنهم هدموا بأصولهم الفاسدة المعنى الذي يمنح العمل قيمته.

وحبطت في الدنيا؛ لأن الظلم، وإن لمع حينًا، يحمل في داخله عوامل فساده. وحبطت في الآخرة، حيث تسقط الدعاوى ولا يبقى إلا العمل بحقيقته.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

كانوا يقتلون من لا ناصر له في ظاهر الدنيا، ثم يخبرهم القرآن أنهم هم الذين سيصلون إلى اليوم الذي لا يجدون فيه ناصرًا. إنها مداولة عميقة للمشهد: قد يبدو صاحب الحق وحيدًا، لكن الله معه؛ وقد يبدو الظالم محاطًا بالأنصار، ثم يتبين أنه كان يسير إلى وحدته الكبرى.

## نصيبٌ من الكتاب لا يمنع الإعراض

**﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣)**

المفارقة موجعة: أُوتوا نصيبًا من الكتاب، ثم دُعوا إلى كتاب الله، فتولى فريق منهم.

امتلاك النص لا يعني الخضوع له.

قد يحفظ الإنسان الكتاب، ويدرس تاريخه، ويتحدث باسمه، ثم إذا جاء حكمه مخالفًا لهواه أعرض. عندئذ يصبح الكتاب جزءًا من هويته الاجتماعية، لا مرجعيةً تحكمه.

قالت الآية: ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾؛ فلم تمنحهم دعوى الإحاطة، ولم تجعل ما عندهم كل الحقيقة. إنهم يحملون نصيبًا، لكنهم تعاملوا معه كملكية تمنحهم التفوق، لا أمانة تقودهم إلى الاستجابة.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾.

الكتاب هنا حاكم، لا زينة على رف، ولا شاهدًا يُستدعى حين يوافق المصلحة ثم يُصرف حين يخالفها. ووظيفة الوحي أن يفصل في النزاع؛ لأن الإنسان حين يكون خصمًا قد لا يصلح أن يكون الميزان أيضًا.

لكن فريقًا منهم تولى:

﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

التولي حركة الجسد بعيدًا، والإعراض موقف القلب. فقد يبتعد الإنسان مرةً بسبب ضعف عابر، أما المعرض فقد اتخذ من الابتعاد وجهة.

وما أشد خطر أن يكون الكتاب قريبًا من اليد بعيدًا عن القرار!

## العقيدة التي صنعت لهم حصانةً متوهمة

**﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤)**

تكشف الآية السبب الذي جعلهم يجرؤون على الإعراض: لقد صنعوا لأنفسهم تصورًا دينيًّا يخفف عاقبة الانحراف.

﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

لم ينكروا النار، لكنهم أفرغوا الإيمان بها من أثره. جعلوا العذاب محدودًا مضمون النهاية، ثم واصلوا الإعراض مطمئنين إلى هويةٍ ظنوا أنها ستمنحهم امتيازًا عند الله.

وهنا يظهر أن أخطر تحريف للدين ليس إنكار الآخرة دائمًا، بل تبريد معناها حتى لا تعود قادرةً على ردع النفس. قد يؤمن الإنسان بالحساب، لكنه يحيط نفسه باستثناءات متوهمة؛ فيظن أن انتماءه أو جماعته أو أعمالًا محددةً تمنحه حصانةً من عدل الله.

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إنهم لم يُغروا بشبهة جاءت من الخارج فحسب؛ بل غرّتهم الأكاذيب التي صنعوها بأنفسهم ثم كرروها حتى صدقوها. والافتراء إذا لبس ثوب الدين كان أشد خطرًا؛ لأنه لا يمنح الإنسان شهوةً فقط، بل يمنحه ضميرًا مستريحًا وهو يتبعها.

إن الباطل يبلغ ذروة سلطانه حين لا يكتفي بأن يدفع صاحبه إلى الخطيئة، بل يقنعه أنه ناجٍ بها.

## فكيف إذا جمعناهم؟

**﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥)**

كلمة ﴿فَكَيْفَ﴾ تفتح أمام الخيال مشهدًا تعجز العبارة عن احتوائه.

كيف يكون حالهم حين تسقط الافتراءات التي احتموا بها؟

كيف يواجهون اليوم الذي كانوا يتحدثون عنه كما لو أنهم يملكون شروطه؟

وكيف يقفون فرادى بعدما احتموا طويلًا باسم الجماعة والموروث؟

﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

يعود معنى الجمع الذي مر في دعاء الراسخين. لكن الراسخين ذكروه بخوف ودعاء، وهؤلاء يواجهونه بعد غرور وإعراض. اليوم واحد، لكن الاستعداد له يصنع الفرق بين قلب يرجوه مستغفرًا وقلب يفاجئه بعد أن بنى حياته على الافتراء.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾.

لا يحمل الاسم عمل صاحبه، ولا تدفع الجماعة حساب الفرد، ولا تختلط الصحائف. كل نفس تتسلم ما كسبت كاملًا، حتى الأعمال التي نسيها صاحبها ولم ينسها الكتاب.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

لا حسنة تضيع، ولا سيئة تُزاد، ولا يؤخذ أحد بذنب غيره. إن العدل هناك كامل؛ ولذلك لا يحتاج الإنسان إلى حصانة، بل إلى توبة وعمل صالح ورحمة من الله.

## مالك الملك

بعد أن أسقطت السورة حصانات الجماعة والموروث، أعادت كل ما يتنافس عليه الناس من قوة وسلطان إلى مالكه:

**﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦)**

يملك الناس أشياء داخل الملك، أما الله فهو: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾.

كل عرش قطعة صغيرة داخل ملكه، وكل دولة مرحلة عابرة في أرضه، وكل سلطان عبد جرت عليه لحظة لم يكن فيها شيئًا، وستجري عليه لحظة لا يملك فيها لنفسه نفسًا واحدًا.

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

الإيتاء قد يأتي هادئًا متدرجًا، أما النزع ففيه صورة شيء التصق بصاحبه حتى ظن أنه جزء منه، ثم امتدت إليه القدرة فانتزعته. كم من حاكم قال في داخله: هذا لي، ثم خرج من قصره عاجزًا عن الاحتفاظ بمفتاح غرفة!

الملك عارية طويلة أو قصيرة، وليس وثيقة خلود. ومن فهم أنه أُوتي، عرف أنه مؤتمن. ومن ظنه ذاتيًّا، استعمله كما يستعمل المالك المطلق ما يملك، فطغى.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾.

ليس كل صاحب مُلك عزيزًا، ولا كل فاقد للسلطان ذليلًا. قد يُملك الإنسان ويعيش عبدًا لخوفه، وقد يُسلب المؤمن أسباب الدنيا ويبقى عزيز الروح لا يبيع كلمته.

العزة الحقيقية ليست ارتفاع الكرسي، بل ألا يخضع القلب لغير الله. والذل الحقيقي ليس قلة المال، بل أن يملك الإنسان الدنيا ثم يركع لشهوته.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾.

كل ما يجري بتقديره سبحانه صادر عن علم وحكمة، ولا يُنسب إليه شر محض؛ فما يبدو للإنسان نزعًا قد يكون تطهيرًا، وما يراه تأخيرًا قد يكون إعدادًا، وما يظنه انكسارًا قد يفتح له باب النجاة.

وهو سبحانه ليس كمثله شيء، وذكر اليد هنا كما يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل؛ نثبت ما أثبته لنفسه، مع اليقين أن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

## من تعاقب الكون إلى رزق الفرد

**﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧)**

تنتقل الآية من الملك السياسي إلى ملكوت الكون؛ حتى لا يظن الإنسان أن تدبير الله مقصور على انتقال العروش.

الليل يدخل في النهار، والنهار يدخل في الليل، في حركة لا تتوقف. لا يبقى الظلام خالدًا، ولا يحتكر الضوء أفق الأرض. وفي هذا التعاقب عزاء للقلب: ليست مرحلة الليل هي الوجود كله، وليس تأخر الفجر دليلًا على أنه لن يأتي.

ثم تأتي صورة أعمق: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

يخرج النبات الحي من البذرة التي تبدو ميتة، ويخرج الله المؤمن من بيت الكافر، والكافر من بيت المؤمن. فلا تحكم على النهايات من البدايات، ولا تجعل البيئة قدرًا مطلقًا، ولا تيأس من موضع لا ترى فيه علامات الحياة.

قد يخرج الله من قلب أرهقته الذنوب توبةً حية.

وقد يخرج من مرحلة تبدو ميتة مشروعًا يملأ المستقبل.

وقد يحمل الشيء الذي حسبته نهايةً بذرة بداية لا تراها بعد.

ثم يختم: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الرزق ليس محكومًا بحسابات الإنسان وحدها. نأخذ بالأسباب، لكنها ليست خزائن الرزق؛ إنما هي أبواب، وقد يفتح الله من غير الباب الذي ظللنا نراقبه.

## الولاء حين يصبح إعلانًا عن مركز القلب

**﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨)**

بعد تقرير أن الله مالك الملك، تحدد السورة الجهة التي يمنحها القلب ولاءه. فالإيمان ليس فكرةً خاصة لا أثر لها في شبكة الانتماء والنصرة؛ إنه يعيد ترتيب الروابط كلها.

لا تنهى الآية عن العدل والإحسان والمعاملة الحسنة، فقد قرر القرآن ذلك في مواضعه، وإنما تنهى عن ولاية تجعل المؤمن يعزل نفسه عن جماعة الإيمان، ويمنح ولاءه ونصرته وخصوصيته لمن يعادي دينه على حساب المؤمنين.

﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

موضع الخلل هو الاستبدال؛ أن يطلب الإنسان العزة عند جهة يظن أن ملكها ذاتي، بعدما سمع أن الله مالك الملك والمعز والمذل.

ثم يأتي الوعيد: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

لأن الولاء ليس تفصيلًا هامشيًّا؛ إنه يكشف موضع القلب والجهة التي يستمد منها أمنه وقيمته. ومن جعل خصومة الإيمان طريقه إلى الحماية، فقد أحدث في صلته بالله صدعًا خطيرًا.

لكن القرآن يراعي حال الضعف والإكراه: ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

فليس المطلوب من المؤمن أن يلقي بنفسه إلى الهلاك، ويجوز له عند الخوف ما يحفظه من الأذى في حدوده المشروعة، من غير أن تتحول التقاة إلى ولاء باطن أو بيع دائم للمبدأ.

ثم يرد القلب إلى المهابة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

ليس أعظم ما ينبغي أن تخافه قوة البشر، بل موقفك بين يدي الله. وكل تحالف ينجيك زمنًا ثم يقطعك عن الله ليس نجاة.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

فالطريق، مهما دار بين قصور القوى وموازين السياسة، ينتهي عنده.

## ما في الصدور مكشوف

**﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩)**

قد يستطيع الإنسان أن يضبط عبارته، ويمنح ولاءه الخفي اسم المصلحة أو الحكمة أو الواقعية؛ لكن الأسماء لا تغيّر ما في الصدر أمام علم الله.

﴿إِن تُخْفُوا﴾؛ فيبقى الأمر حبيس النية.

﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾؛ فيتحول إلى كلمة أو موقف.

في الحالتين يعلمه الله.

إن المراقبة القرآنية لا تقف عند ظاهر السلوك، بل تدخل إلى المنطقة التي يولد فيها السلوك. قد يتشابه فعلان في صورتهما، وبينهما عند الله مسافة تصنعها النية.

ثم توسع الآية أفق العلم:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

فالذي أحاط علمه بهذا الملك كله، لا تختبئ عنه نية صغيرة في صدر فرد. وما نعده سرًّا ليس سرًّا إلا بالنسبة إلى الخلق.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يعلم ولا يعجز عن الجزاء. فلو كان العلم بلا قدرة ربما طمع الظالم في الإفلات، ولو كانت القدرة بلا علم ربما خاف البريء الظلم؛ لكن له سبحانه العلم المحيط والقدرة الكاملة والعدل الذي لا يجور.

## يوم يحضر كل شيء

**﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠)**

الأعمال التي غابت عن الذاكرة لن تغيب عن الموعد: ﴿تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

تجده حاضرًا، لا خبرًا يحكى لها عن ماض بعيد. الخير الذي نسيته، والكلمة التي جبرت قلبًا، والصدقة التي أخفيتها؛ كلها حاضرة. وكذلك السوء الذي مرّ صاحبه عليه مستخفًّا، والأذى الذي نسيه وبقي في قلب ضحيته؛ كله حاضر.

أما الخير، فتراه النفس نعمةً سبقتها إلى اليوم الذي تحتاجها فيه.

وأما السوء: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾.

في الدنيا كان الإنسان يقترب من المعصية؛ لأنها قريبة اللذة بعيدة العاقبة. وفي الآخرة يتمنى لو كانت بعيدةً عنه؛ لأن اللذة اختفت وبقيت العاقبة.

ثم يتكرر التحذير: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

لكنه يختم باسم الرأفة: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فالتحذير نفسه رأفة. إن الذي يريك العاقبة قبل وقوعها يريد لك النجاة منها. لم يتركك تمضي إلى النار جاهلًا، بل أرسل إليك النذير، وكشف لك اليوم قبل أن تصل إليه، وفتح باب التوبة.

قسوته المتوهمة في عين الغافل هي عين الرحمة؛ لأن الطبيب الذي يخفي المرض حتى لا يزعج صاحبه لا يرحمه، أما الذي يكشف الخطر ويصف العلاج فقد أحسن إليه.

## محبة الله التي يمتحنها الاتباع

**﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣١)**

كل قلب يستطيع أن يدّعي المحبة، ولهذا جعل الله لها برهانًا:

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾.

لم يجعل البرهان حرارة الشعور، ولا كثرة الكلام، ولا الدموع وحدها؛ بل اتباع الرسول ﷺ. فالمحبة التي لا تقبل أن تضبطها السنة قد تكون محبة الإنسان للصورة التي صنعها عن الله، لا محبته لله كما عرّف نفسه.

الاتباع يخرج المحبة من فضاء الدعوى إلى تفاصيل الحياة: كيف يعبد، وكيف يعامل، وكيف يحب ويبغض، وكيف يربح ويخاصم ويعفو.

ثم تأتي ثمرة أعظم من دعوى المحب: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

ليس الشأن كله أن تحب، بل أن تُحَب. قد يحب الإنسان على قدر نقصه، لكن محبة الله لعبده تفتح له أبواب الهداية والرحمة والقرب.

ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

لأن المتبع لا يصير معصومًا؛ يظل بشرًا يخطئ، لكن الطريق الذي يسلكه يقوده إلى المغفرة. والاتباع الحق لا يصنع في صاحبه غرور الكمال، بل يعلّمه كيف يعود كلما زل.

## الطاعة: الصورة العملية للمحبة

**﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢)**

بعد آية المحبة تأتي آية الطاعة؛ حتى لا تنفصل العاطفة عن التكليف.

المحبة بلا طاعة تتحول إلى كلمة يمنح بها الإنسان نفسه شعورًا جميلًا، بينما يبقى قراره الحقيقي في يد هواه.

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

طاعة الرسول من طاعة الله؛ لأنه المبلغ عنه والمبين لوحيه. ولا يمكن أن يدعي الإنسان تعظيم القرآن ثم يستغني عن الرسول الذي نزل عليه القرآن وبيّن للناس صلاتهم وعبادتهم وحدودهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾.

لم يقل: فإن عجزوا أو أخطؤوا ثم تابوا؛ فباب الرحمة مفتوح. إنما التولي إعراض عن أصل الطاعة، ورفض لأن يكون لله ورسوله سلطان على الاختيار.

ولهذا جاء الحكم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

كانوا يدّعون محبة الله، فجاء الميزان كاشفًا: لا تُطلب محبته بطريق الكفر برسوله والتولي عن أمره.

## الاصطفاء ليس امتيازًا بلا أمانة

بعد بيان المحبة والاتباع والطاعة، تبدأ السورة تمهيدها لقصة بيت عمران:

**﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣)**

الاصطفاء اختيار وتنقية وإعداد لمهمة. لم يصطفهم الله لأنهم يملكون عليه حقًّا، ولا ليمنح أسماءهم امتيازًا منفصلًا عن العبادة؛ بل اختارهم لحمل أمانة ثقيلة.

اصطفى آدم لبداية الرحلة الإنسانية.

واصطفى نوحًا ليحمل دعوة التوحيد عبر طوفان التكذيب.

واصطفى آل إبراهيم لتتتابع فيهم النبوات.

واصطفى آل عمران ليخرج من بيتهم مشهد من أعظم مشاهد الطهر والمعجزة والابتلاء.

إن الاصطفاء في القرآن تكليف قبل أن يكون تشريفًا. كلما علا المقام ثقلت الأمانة، وصار صاحبها مطالبًا بصدق يناسب ما أُعطي.

ولذلك لا يجوز للأحفاد أن يحولوا اصطفاء آبائهم إلى حصانة وراثية. قد يصطفي الله أبًا، ثم ينحرف ولد لا يحمل من ميراثه إلا الاسم. النسب يفتح باب المسؤولية، لكنه لا يغلق باب الحساب.

## ذرية بعضها من بعض

## ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤)

ليست عبارة ﴿بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ سجلًا للدم وحده؛ إنها توحي بامتداد الإيمان والعبودية والرسالة عبر الأجيال. تتلقى روح عن روح معنى التسليم، ويحمل بيت عن بيت أمانة التوحيد.

لكن القرآن لا يقرر حتمية وراثية تلغي اختيار الإنسان. لقد خرج من بيوت الأنبياء من لم يؤمن، وخرج من بيوت الطغاة مؤمنون. إنما تشير الآية هنا إلى السلسلة التي تعاقبت حلقاتها على الوفاء، فكان بعضها من بعض في النسب والإيمان وحمل الأمانة.

وتختم: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

سميع للكلمات التي تبدأ بها التحولات الكبرى، ولو قيلت في محراب لا يسمعها الناس.

عليم بالنيات التي تختبئ في قلب أم قبل أن يولد طفلها.

سيأتي في الآية التالية دعاء امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

لم يكن دعاؤها ضائعًا في بيت صغير؛ كان الله سميعًا له. ولم تكن تعرف ما يحمله المستقبل للجنين، لكن الله كان عليمًا به.

وهكذا تصبح خاتمة الآية جسرًا دقيقًا إلى قصة البيت المختار: سيسمع الله نذر الأم، ويعلم صدقها، ويتقبل ابنتها، وينبتها نباتًا حسنًا، ويجعل من ذريتها آية للعالمين.

لقد وضعت السورة أمامنا عالمين:

عالمًا قريبًا تلمع فيه الشهوات، لكنه موسوم بالزوال.

وعالمًا عند الله، قد غاب عن العين، لكنه يحمل حسن المآب.

ولم تطلب منا أن نهجر الدنيا، بل أن نمنعها من احتلال الآخرة في قلوبنا. نملك المال دون أن يملكنا، ونحب الأبناء دون أن نظلم لأجلهم، ونبني الحضارة دون أن نعبد أدواتها، ونرى الجمال دون أن ننسى نهايته.

فالزهد ليس أن تكون اليد فارغة، بل ألا يكون القلب مستعبدًا لما في اليد.

والغنى ليس كثرة الموجود، بل قلة الحاجة إلى الخلق.

والتقوى ليست إطفاء الرغبة، بل تعليمها أن تطلب الخير الأعلى.

ومن بين هذا العالم المزدحم بالذهب والبنين والجاه، ستأخذنا السورة إلى بيت صغير لا يملك ضجيج القصور. هناك امرأة لا تجمع لذاتها، بل تنذر أعز ما تملك لله. وهناك طفلة ستنشأ في محراب، حتى يأتيها رزق يوقظ الرجاء في قلب نبي شيخ.

سننتقل من القناطير المقنطرة إلى دعاء امرأة.

ومن فتنة الامتلاك إلى جمال التحرير.

ومن الإنسان الذي يريد أن يحتفظ بكل شيء لنفسه إلى أم تقول:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾.

وهناك يبدأ الفصل الثالث:

**بيت عمران: حين تبدأ الرسالات من دعاء أمّ.**

## الفصل الرابع

## زكريّا: الدعاء الذي أيقظته كرامةٌ في المحراب

## الآيات من (٣٨) إلى (٤١)

قالت مريم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

فلم تمر الكلمة على قلب زكريا عليه السلام كما تمر العبارات المألوفة على الآذان. لقد وقعت في موضع أمنية قديمة، لعل الشيخوخة غطتها بغبار الاستبعاد، لكنها لم تمت.

كان يرى رزقًا يأتي إلى مريم من غير أبوابه المعتادة، فتصدّع في نفسه جدار المألوف. وإذا كان الله يرزق هذه العابدة من حيث لا تحتسب، فلماذا يحبس رجاءه داخل حساب العمر وعقم الزوجة؟

قال تعالى: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ (٣٨)

### هنالك: حين يصير المشهد نافذةً إلى القدرة

لفظة ﴿هُنَالِكَ﴾ ليست تحديدًا للمكان وحده، بل تحديد للحظة التي نضج فيها الرجاء.

هناك، عند المحراب.

هناك، حين رأى أثر العطاء.

هناك، حين سمع من مريم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

هناك انفتح باب الدعاء.

لقد كان زكريا يعرف قدرة الله قبل هذا المشهد؛ فهو نبي. لكن الحقائق الإيمانية قد تكون مستقرةً في العقل، ثم تأتي لحظة توقظ امتدادها في القلب. ليس كل ما نعرفه حاضرًا بالقوة نفسها في شعورنا. نؤمن أن الله قادر، ثم نرى أثرًا من قدرته في حياة إنسان، فيعود المعنى إلينا كأننا نسمعه أول مرة.

وهذا من ثمرات مشاهدة النعم على الآخرين: أن تتحول في القلب السليم إلى رجاء، لا إلى حسد.

رأى زكريا رزق مريم، فلم يقل: لِمَ أُعطيت؟ بل فهم من عطائها شيئًا عن سعة المعطي. النعمة التي نزلت في محرابها فتحت بابًا في قلبه.

أما الحسد فإنه يعكس اتجاه الدلالة؛ يرى الإنسان نعمة الله على غيره، فتضيق في عينه خزائن الله، كأن ما وصل إلى أخيه قد انتُزع من نصيبه. ينسى أن الذي أعطى قادر على أن يعطيه، وأن تفاوت العطايا ليس علامة نسيان، بل جريان للحكمة.

القلب الحاسد ينظر إلى يد المخلوق.

والقلب الموحد ينظر من خلالها إلى خزائن الخالق.

## حين يعلّمنا الآخرون الرجاء من غير أن يعلموا

لم تلق مريم على زكريا موعظةً مطولة، ولم تقل له: ادع الله بالذرية. أجابت عن سؤال الرزق بكلمات قليلة، لكن الكلمة الصادقة تجاوزت موضعها.

قد يقول الإنسان عبارةً لا يعرف أنها أنقذت في قلب سامع أملًا كان يوشك أن يموت.

وقد يثبت في محنة، فيراه مكسور فيتعلم منه أن الألم لا يعني نهاية الطريق.

وقد يحدث بنعمة الله عليه، فيفهم سامعه أن باب الرحمة أوسع مما ظن.

ليس الأثر دائمًا في كثرة الكلام؛ قد تكون حياة صادقة أبلغ من خطبة، ومشهد عبودية أنفذ من كتاب. مريم نفسها كانت حجةً صامتةً على أن الله يتولى أولياءه.

ولعل أجمل ما يصنعه الإنسان في حياة الآخرين ألا يمنحهم نفسه، بل يعيدهم إلى الله. مريم لم تجعل زكريا متعلقًا بكرامتها، بل ردته إلى مصدر الرزق، فتحرك من جوارها إلى مناجاة ربه.

كل صحبة لا تقودك إلى الله قد تستنفد قلبك، أما النفوس المباركة فتغيب ذواتها وراء الدلالة عليه. تخرج من عندها وأنت أقل افتتانًا بها، وأكثر معرفةً بربها.

## دعاء الشيخ الذي لم يستسلم للزمن

قال زكريا: **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**.

لم يقل: أعطني، بل قال: ﴿هَبْ لِي﴾.

كان يعرف أن الأسباب لا تمنحه ما يريد. بلغ من الكبر عتيًّا، وكانت امرأته عاقرًا، فلم يبق للمسألة في الحساب البشري إلا اسم الاستحالة. لذلك طلبها هبةً خالصةً من الله.

حين تعجز الأسباب يظهر معنى الهبة.

لا لأن الله لا يعمل إلا خارج الأسباب، بل لأن الإنسان يرى عند انقطاعها حقيقةً كانت قائمةً حتى في وجودها: أن السبب لم يكن خالقًا للنتيجة يومًا.

في أيام الشباب قد يظن المرء أن الولد جاءه بقوته، والرزق بحيلته، والنجاح بذكائه. فإذا انقطعت الأدوات، انكشف افتقار الأشياء كلها إلى الله. ما كان السبب إلا ستارًا رقيقًا تمر من خلاله المشيئة.

ولم يكن تأخر الإجابة دليلًا على أن الدعاء القديم ضاع. ربما دعا زكريا سنوات، ثم طال الزمن، وضعف الجسد، وبقيت الأمنية في ناحية بعيدة من القلب. لكن الدعوات لا تشيخ كما تشيخ الأجساد، لأنها مودعة عند الحي الذي لا يموت.

قد يكبر الداعي، ويبقى الدعاء فتيًّا في علم الله.

## من لدنك: حين لا تكفي الجهات القريبة

قال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾.

في التعبير طلب لعطاء خاص يأتي من القرب الإلهي، لا من شبكة الأسباب التي أحاط بها العجز. كأنه يقول: لا أجد في الأرض جهةً تحمل لي هذا الرجاء، فليأتني من عندك.

هناك لحظات يبلغ فيها الإنسان نهاية كل باب يعرفه. يراجع الأطباء، ويستنفد الوسائل، ويطرق أبواب الناس، ثم يقف أمام حقيقة فقره عاريًا من وهم السيطرة.

هذه اللحظة مؤلمة، لكنها قد تكون من أنقى لحظات العبودية. يسقط فيها ما كان القلب يتكئ عليه، فلا يبقى له إلا الركن الذي لم يكن ينبغي أن يغيب عنه أصلًا.

غير أن الدعاء من لدنك لا يعني احتقار الأسباب أو تركها؛ فقد تزوج زكريا وعاش في شبكة السنن البشرية، ولكنه عرف أن السنن نفسها لا تملك أن تستجيب من دون إذن من أنشأها.

المؤمن لا يعبد الخارق ولا يعبد المألوف. يرى قدرة الله في كليهما: في الطفل الذي يولد وفق الأسباب، وفي الطفل الذي يأتي بعد أن تعلن الأسباب عجزها.

## لم يطلب ولدًا فحسب

قال: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

لم يطلب مجرد امتداد بيولوجي لاسمه، ولا طفلًا يملأ صمت البيت، مع ما في هذا الرجاء من مشروعية وحنان. لقد قيد طلبه بالطيب.

كان يريد ولدًا يحمل الرسالة، لا يحمل النسب وحده.

فالولد قد يكون قرة عين، وقد يكون امتحانًا يثقل قلب والديه. وليس كل امتداد في العدد امتدادًا في المعنى. قد يرث الابن اسم أبيه ولا يرث قيمه، ويحمل ملامحه ولا يحمل أمانته.

والأنبياء لا ينظرون إلى الأبناء بوصفهم ممتلكات عاطفية. يحبونهم بحنان البشر، لكنهم يرون فيهم عبادًا لله وأمناء على الحق. لذلك يتجاوز دعاؤهم سلامة الجسد إلى سلامة الروح.

ما أقل ما ندعو للطيبة، وما أكثر ما ندعو للنجاح!

نسأل لأبنائنا التفوق، والرزق، والمكانة، والزواج، وننسى أن كل ذلك قد يصير وبالًا إن لم يسكنه قلب طيب.

الطيبة هي أن يكون باطن الإنسان صالحًا لاستقبال الحق، وأن تمر النعمة من يده دون أن تفسده، وأن تمر المحنة بقلبه دون أن تقطعه عن الله.

قد ينجح الإنسان ويخسر نفسه.

وقد يتأخر في مقاييس السوق، لكنه ينجو بقلبه.

وكان زكريا يريد ذريةً طيبة؛ لأن الطيب هو النجاح الذي يبقى حين تسقط الألقاب كلها.

## إنك سميع الدعاء

قال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

لم يقل: إنك سميع الصوت. فالدعاء أكبر من ألفاظه؛ إنه افتقار القلب وهو يتجه إلى الله. وقد يعجز اللسان عن ترتيب ما يريده صاحبه، لكن الله يسمع الانكسار الكامن خلف الكلمات.

يسمع الدعاء الذي ردده صاحبه أعوامًا.

والدعاء الذي لم يخرج من صدره إلا دمعة.

والدعاء الذي قطعه البكاء.

والدعاء الذي خجل العبد من طلبه لكثرة ما يرى من تقصيره.

والدعاء الذي لم يعرف صاحبه كيف يصوغه، فاكتفى أن قال: يا رب.

لا يحتاج الله إلى فصاحة حتى يفهم حاجتك، ولا إلى صوت مرتفع حتى يسمعك. المسافة بين القلب والإجابة ليست في علو النبرة، بل في صدق الافتقار وحكمة الله في الوقت والصورة.

وزكريا لم يقل: إنك مجيب الدعاء، مع أن الله مجيب، بل قال: سميع الدعاء. فكأن السماع نفسه كان سكينةً لقلبه. حسب العبد ألا تضيع شكواه في فراغ، وأن يعرف أن كلماته وقعت في علم الرحيم.

قد تتأخر الصورة التي طلبتها، لكن الدعاء لم يُهمَل.

وقد يأتي الجواب على وجه لم تتبينه بعد، لكنك لم تكن تحدث جدارًا صامتًا.

إنك كنت تناجي السميع.

## فجاءه النداء وهو قائم يصلي

قال تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ **(٣٩)**

دعا في المحراب، وجاءته البشرى في المحراب.

كأن المكان احتفظ بحرارة الدعاء حتى عاد إليه الجواب.

كان قائمًا يصلي؛ لم يكن مترقبًا العلامات خارج باب العبادة، ولا جالسًا في قلق يعد الأيام. عاد بعد دعائه إلى وظيفته: العبودية.

وهذا من أعمق آداب الرجاء: أن تدعو، ثم تواصل السير. لا تحول الدعاء إلى توقف، ولا تجعل انتظار الإجابة يعطلك عن الواجب. ازرع وامض، وصلِّ واعمل، ودع توقيت الثمرة لله.

بعض الناس يدعو، ثم يجعل حياته كلها عينًا تحدق في الباب؛ فإذا تأخر الفتح تعطلت روحه. أما زكريا فكان قائمًا يصلي حين وصل النداء.

لم تأته البشرى وهو هارب من واقعه، بل وهو يؤدي ما عليه داخله.

إن انتظار الله عبادة، لكنه ليس فراغًا. المؤمن لا يقضي مدة الانتظار في الاعتراض الصامت، بل يعمرها بما يحبه الله. وقد تكون الإجابة تتكون في الأيام نفسها التي يظنها تأخيرًا.

**أن الله يبشرك بيحيى**

قالت الملائكة: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

لم تقل: سيكون لك ولد فحسب، بل جاءت باسمه قبل ولادته:

يحيى.

بعد طول انتظار، لم تأت الإجابة مجهولة الملامح؛ جاء الاسم من السماء، وكأن الطفل كان حاضرًا في العلم الإلهي قبل أن يوجد في عالم الشهادة.

وقد حمل اسمه معنى الحياة، فكان جوابًا بديعًا لبيت غلب عليه شعور الأفول. شيخ وامرأة عاقر، ثم يأتي يحيى؛ لتخرج الحياة من موضع أعلنت الحسابات موته.

الله لا يخرج الحي من الميت في الأجساد وحدها؛ قد يخرج الأمل من قلب استبد به اليأس، والمشروع من بين أنقاض الفشل، والهداية من تاريخ مثقل بالخطايا، والأمة من مرحلة ظن أبناؤها أنها النهاية.

حين يقول الله للشيء أن يحيا، لا تكون كثرة علامات الموت حجةً عليه.

وكم يبدو الإنسان متعجلًا حين يعلن موت الأشياء قبل أن يقول الله كلمته الأخيرة!

## مصدقًا بكلمة من الله

وصفت الملائكة يحيى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

سيأتي يحيى مصدقًا بعيسى عليهما السلام، مؤمنًا به، مؤيدًا لرسالته. وهكذا لم تكن هبة الولد استجابةً لحاجة زكريا الشخصية وحدها، بل كانت حلقةً في إعداد المشهد للمسيح.

دعا الأب بولد، وكان الله يهيئ شاهدًا لنبي آخر.

يرى الإنسان في الإجابة مواساةً لحزنه الخاص، بينما يضعها الله داخل مقصد أوسع. وهذا من سعة التدبير: أن يضمّد الله قلب فرد، ويخدم بالبلسم نفسه مسار أمة.

لم يكن يحيى ملكًا لأبيه، وإن جاء جوابًا لدعائه. كان لله أولًا، وللرسالة التي سيقوم بها. والهبات الكبرى تحمل معها أماناتها؛ فما يعطيه الله للإنسان لا ينتهي معناه عند راحته الخاصة.

قد يهبك علمًا ليصل إلى غيرك.

أو قلمًا ليحمل معنى يحتاج إليه الناس.

أو مالًا ليكون في يدك جسرًا لا جدارًا.

أو ولدًا لتربيه لله، لا ليتضخم به اسمك.

وكل نعمة تُحبس عند الذات تضيق، وكل نعمة تُوصل إلى مقصدها تتسع.

## وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين

قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم تكن البشرى بالوجود فقط، بل بنوعية الوجود.

سيدًا؛ والسيادة الحقيقية ليست أن يطأ الإنسان رقاب الناس، بل أن يسود نفسه قبل أن يُرى أثره في غيره. من عجز عن قيادة شهوته، لا تصنع منه الألقاب قائدًا. ومن ملك زمام نفسه بالحق، كان سيدًا ولو لم يكن له كرسي.

السيادة القرآنية مقام أخلاقي قبل أن تكون رتبة اجتماعية.

وحصورًا؛ عفيفًا ممنوعًا عن الشهوات المحرمة، مالكًا لنفسه. لا لأن الجسد شر، ولا لأن الفطرة موضع عار، بل لأن الإنسان لا يبلغ الحرية إذا قادته شهوته حيث شاءت.

إنه ابن الدعاء الذي طلب ذريةً طيبة؛ فجاءت الطيبة قدرةً على ضبط الداخل قبل دعوة الخارج.

ونبيًّا؛ وهذه ذروة الاصطفاء. لم يعط الله زكريا ولدًا يؤنس شيخوخته فحسب، بل أعطاه نبيًّا يحمل الوحي.

ثم قال: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

مع النبوة والسيادة والعفة، يبقى الصلاح هو الوصف الجامع. فالمراتب لا تغني عن حقيقة القلب، والمواهب لا تكون بديلًا من الاستقامة، وأعظم ما يقال في الإنسان أنه صالح: قد صلح باطنه لله، وصلح أثره في الأرض.

## كيف يكون لي غلام؟

قال زكريا: **﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠)**

إنه الذي دعا قبل قليل، فلما جاءته البشرى سأل: كيف؟

ليس ذلك شكًّا في القدرة، وإنما هو دهشة من صورة تحقق الوعد. القلب المؤمن قد يطلب المستبعد، ثم يرتجف حين يراه يقترب؛ لأن المسافة بين الإيمان المجمل ومشاهدة الخارق تظل مليئةً بالرهبة.

قال: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾.

كأن الكبر كائن سار إليه حتى أدركه وأحاط به. لم يقل: كبرت فقط؛ فالتعبير يرسم الشيخوخة وقد بلغت من جسده مبلغها.

ثم ذكر عقر الزوجة، فاجتمع مانعان: ضعف البذر وعدم صلاحية الموضع في الحساب البشري. وليس في السؤال اعتراض، بل اعتراف كامل بأن الأمر خرج من دائرة الأسباب التي يعرفها.

وهنا يأتي الجواب الذي لا يشرح كيفيةً طبيةً، بل يعيد المسألة إلى أصلها: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

**يفعل ما يشاء**

لم تقل الملائكة: هكذا تفعل الطبيعة؛ لأن الطبيعة في صورتها المألوفة كانت تقول بعكس ذلك.

قالت: ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

المشيئة هنا لا تعني فعلًا عبثيًّا؛ فقد قررت السورة من قبل أنه العزيز الحكيم. إنها مشيئة قدرة لا يعجزها المألوف، وحكمة لا تفعل شيئًا سدى.

إن السنن التي تحكم العالم ليست سجنًا لخالقها. هو الذي جعل النار تحرق، ثم قال لها أن تكون بردًا وسلامًا. وهو الذي جعل الولد من أب وأم، ثم خلق آدم بلا أب ولا أم، وعيسى بلا أب، ويحيى بعد شيخوخة وعقر.

الاستثناء لا يهدم انتظام الكون؛ بل يذكّر بأن انتظامه نفسه صادر عن إرادة.

لو كانت الأسباب مستقلةً لما تخلفت نتائجها، ولما جاءت نتيجة عند غيابها. لكن الله يجري العادة ليقوم العمران، ويخرقها حين يشاء لتستيقظ العقيدة من نوم الألفة.

الإنسان يطمئن إلى تكرار الظواهر حتى يكاد ينسى الفاعل. تشرق الشمس كل يوم، فيسمّي ذلك قانونًا، ثم تتراجع في شعوره دلالة القدرة. ويأتي الخارق لا ليلغي القانون، بل ليزيل عنه وهم الاستقلال.

## طلب الآية بعد تحقق الوعد

قال زكريا: ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾ **(٤١)**

لم يطلب آيةً ليؤمن بصدق الله، بل ليطمئن إلى ابتداء تحقق البشرى، وليعرف العلامة التي يستقبل بها هذا الفضل.

فقال الله: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾.

كانت الآية في جسده نفسه: لسانه قادر على الذكر، ممنوع عن خطاب الناس إلا بالإشارة.

إنها علامة عجيبة؛ إذ يُغلق باب الكلام مع الخلق، ويفتح باب الذكر مع الخالق: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

كأن النعمة الكبيرة تحتاج إلى صمت يقيها تبديد الكلام، وإلى ذكر يردها إلى واهبها.

ليس كل ما يفيض في القلب تحسن العبارة حمله. هناك أفراح إذا كثرت حولها الكلمات نقصت هيبتها، وأسرار بين العبد وربه يكون الصمت أليق بها.

وقد مُنع زكريا من كلام الناس، ولم يُمنع من ذكر الله. وهذه إشارة رقيقة إلى أن تعطل أداة عن وظيفة لا يعني تعطلها عن كل وظيفة؛ فاللسان الذي لا يؤدي حديث البشر ظل قادرًا على التسبيح.

وحين تضيق بعض منافذ الحياة، قد يبقى منفذ الله مفتوحًا على نحو أوسع.

## الصمت الذي يعيد ترتيب الروح

نحن نهرب أحيانًا من أنفسنا بكثرة الكلام. نملأ الفراغ بالأصوات، لأن الصمت قد يضعنا أمام أسئلة لا نريد سماعها. لكن زكريا دخل ثلاثة أيام في عزلة لسانية، يرمز للناس ويذكر الله كثيرًا.

إن الصمت إذا امتلأ بالذكر ليس فراغًا، بل إعادة ترتيب للداخل.

فيه تهدأ ضوضاء الانطباعات.

وتعود النعمة إلى مصدرها.

ويستقر اليقين قبل أن يتحول الخبر إلى حديث يتناقله الناس.

وقد يكون من آفات النعم أن نسارع إلى عرضها قبل أن نشكرها، فننقلها من مقام الصلة بالله إلى سوق المقارنات. نريد أن يعرف الناس ما حدث قبل أن يعرف قلبنا ماذا يعني.

أما زكريا فقد تلقى البشرى، ثم دخل في الذكر. لم يجعل الفضل مادةً للاستعراض، بل جعل الفضل بابًا لعبادة أعمق.

**واذكر ربك كثيرًا**

لم يقل: اذكر نعمتك، بل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾.

فالنعمة الصحيحة هي التي تنقلك منها إلى المنعم. إذا توقفت عند العطية حجبتك، وإن عبرت بها إلى الله هدتْك.

كم من إنسان دعا طويلًا، فلما أُجيب انشغل بالإجابة عن المجيب!

طلب المال ليطمئن، فلما جاءه استغنى في شعوره.

وطلب الولد، فلما جاءه استغرقت محبته قلبه عن الله.

وطلب المكانة لخدمة الحق، فلما حصل عليها صارت خدمتها هي شغله.

إن الشيطان لا ييأس إذا عجز عن منع النعمة؛ قد يحاول أن يجعل النعمة نفسها حجابًا. ولهذا كان الذكر حراسةً للعطاء من أن يتحول إلى فتنة.

﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

في أول النهار وآخره، حتى تُحاط الحركة كلها بالتسبيح. يبدأ يومه بتنزيه الله ويختمه بتنزيهه؛ فلا ينسب إلى ربه نقصًا إذا تأخر العطاء، ولا يظن أن النعمة جاءت لاستحقاق ذاتي إذا حضرت.

التسبيح يظهر تصور الإنسان عن الله في الحالين: حال المنع وحال المنح.

## الإجابة التي جاءت في الوقت الإلهي

قد نسأل: لماذا لم يُعط زكريا الولد في شبابه، حين كانت الأسباب أقرب والقدرة على التربية أوفر؟

لأن القصة لم تكن عن ولد فقط، بل عن آية.

لو جاء يحيى في الوقت المعتاد لكان نعمةً ظاهرة، لكنه حين جاء بعد بلوغ الكبر وعقر الزوجة صار نعمةً وآيةً معًا. لم يعد ميلاده يملأ بيت زكريا فحسب، بل يهيئ الوعي لميلاد أعجب منه: ميلاد عيسى عليه السلام من غير أب.

كانت ولادة يحيى مقدمة تربوية لما سيأتي. انتقلت النفوس بها خطوةً خارج أسر المألوف، قبل أن تقف أمام الخلق من أم بلا أب.

هكذا تتساند الأقدار: إجابة دعاء نبي تصبح تمهيدًا لتصديق نبي آخر.

ولو قاس زكريا العطاء بساعة رغبته لظن التأخير حرمانًا، لكن حكمة الله كانت تختار موعدًا تتضاعف فيه دلالة الهبة. العبد يرى ألمه الحاضر، والله يرى موقع الإجابة في المعمار كله.

ليس التأخير فراغًا بالضرورة؛ قد يكون إعدادًا للحظة التي يصبح فيها العطاء أوسع أثرًا.

نحن نستعجل الشيء لأننا نرى حاجتنا إليه، ولا نرى كل ما يريد الله أن يصنعه به. وربما لو جاء في وقتنا خدم راحتنا وحدها، فلما جاء في وقته سبحانه خدم راحتنا ورسالتنا معًا.

**لا يموت الدعاء إذا صدق القلب**

في قصة زكريا عزاء للذين حملوا دعوات طال عليها الزمن.

ليست السنون حجةً على خزائن الله.

ولا ضعفك مانعًا لقدرة ربك.

ولا تكرار الانكسار دليلًا على أنك منسي.

ولكن الدعاء ليس أمرًا نصدره إلى السماء، ولا عقدًا نحدد فيه موعد التسليم. إنه عبادة وافتقار وثقة بأن الله يسمع، ثم يجيب بحكمته لا بعجلتنا.

قد يعطيك عين ما طلبت.

وقد يعطيك معناه في صورة أخرى.

وقد يدفع عنك بدعائك ما لم تره.

وقد يدخر لك الإجابة حتى تلقاه.

وفي كل ذلك أنت لست مهملًا، ما دمت عند رب يسمع الدعاء ويعلم موضع الخير.

الرجاء الحق لا يعني أن تتأكد من الصورة التي رسمتها، بل أن تتأكد من الله. الصورة قد تتغير، والموعد قد يتأخر، والطريق قد يلتف؛ لكن رحمته لا تتبدل، وعلمه لا يضل، ووعده لا يخلف.

## من يحيى إلى مريم

ما إن تنتهي البشرى بولادة يحيى حتى تنتقل السورة إلى نداء آخر في بيت عمران: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

كانت الملائكة قد نادت زكريا بولد يأتي من أبوين حال بينهما وبين الإنجاب الكبر والعقر. ثم نادت مريم بولد يأتي من غير أب.

درجة بعد درجة، يحرر القرآن العقل من عبادة العادة.

**لكن بين البشارتين فرقًا عميقًا:**

**زكريا** دعا، فجاءته البشرى جوابًا.

**أما مريم** فلم تطلب ولدًا، فجاءها الاصطفاء تكليفًا ثقيلًا.

هناك أمنية تُمنح لصاحبها.

وهنا قدر يهبط على إنسانة طاهرة، فيحمل إليها المجد والابتلاء معًا.

فليس كل اصطفاء راحة، ولا كل قرب إعفاءً من الألم. قد يختار الله عبدًا لمقام، فيكون ثمن المقام أن يحمل ما لا يفهمه الناس، وأن يمشي وحيدًا تحت ثقل التهمة، وأن يثق بعلم الله حين تجرحه ظنون البشر.

وهنا نصل إلى عتبة الفصل الخامس:

**المسيح ابن مريم: كلمة الحق بين الغلو والجفاء.**

## الفصل الخامس

## المسيح ابن مريم: كلمة الحق بين الغلو والجفاء

## القسم الأول: الآيات من (٤٢) إلى (٥٤)

لم تدخل مريم عليها السلام باب الاصطفاء من طريق الشهرة، بل من طريق المحراب.

لم تطلب أن تكون حديث العالم، ولم تسعَ إلى مقام تتناقل الأجيال اسمها بسببه. كانت عابدةً في خلوة، مستورةً عن أعين الناس، حتى جاءها النداء من السماء:

**﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢)**

### اصطفاءٌ يسبق الامتحان

جاء الاصطفاء مكررًا في الآية: ﴿اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ﴾.

اصطفاء أول اختارها الله به للعبادة والنشأة الطاهرة، ثم تطهير يهيئها، ثم اصطفاء خاص للمقام الذي ستدخل به التاريخ: أن تكون أمًّا للمسيح عليه السلام من غير أب.

لم يكن التطهير زينةً روحيةً منفصلةً عن الرسالة؛ كان إعدادًا لها. فالأعباء الكبيرة تحتاج إلى أرواح نُقّيت من الداخل، حتى لا تتحطم حين تضيق بها تفسيرات الناس.

إن الله إذا اختار عبدًا لمهمة، ربّاه قبل أن يكلفه. قد تمر أعوام من الصمت لا يرى فيها الإنسان معنى ما يحدث له، بينما تكون العناية تبني فيه العضلة التي سيحمل بها ثقله القادم.

نشأت مريم في المحراب، ورأت رزق الله يتجاوز المألوف، وتعلمت أن تقول بثقة:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

وستحتاج إلى هذا اليقين كله حين تأتيها البشارة بما لا يستطيع المألوف تفسيره.

لو جاءها الابتلاء قبل أن تتكون جذور الإيمان، لكان ثقله فوق طاقة النفس. لكن الله الذي يختار الحمل هو الذي يُنبت الكتف القادر على حمله.

## يا مريم اقنتي لربك

بعد إعلان الاصطفاء، لم تقل لها الملائكة: اظهري للناس، أو حدّثيهم عن مقامك، بل قالت: **﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣)**

كلما ارتفع مقام العبد، ازدادت حاجته إلى السجود.

فالاصطفاء إذا لم يقترن بالعبودية قد يتحول في النفس إلى شعور بالامتياز. أما السجود فيعيد الجبهة إلى التراب، ويذكّر الإنسان بأن قربه فضل لا ملكية، وأن ما أُعطيه ليس شهادةً باستغنائه، بل دعوة إلى مزيد من الافتقار.

﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ فالعبادة ليست للمقام، ولا لنظرة الناس إلى الصالحة المصطفاة، وإنما للرب وحده.

﴿وَاسْجُدِي﴾؛ ضعي أشرف مواضعك على الأرض، حتى يظل قلبك أعلى من فتنة الاصطفاء.

﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ فالاختيار لا يعزل صاحبه عن جماعة العابدين. لم يقل لها اصطفاؤها: أنت فوق الصف، بل أدخلها في الصف.

إن القرب الحقيقي من الله لا يجعل الإنسان مستعليًا على عباده. وكل منزلة روحية تبني لصاحبها عرشًا فوق الناس هي منزلة صنعها الوهم، لا العبودية.

## الغيب الذي يصحح التاريخ

ثم يقول الله لنبيه ﷺ: **﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤)**

يأتي القرآن بعد قرون ليرد قصة مريم والمسيح إلى صفائها الأول. فقد أحاطت بالقصة يدان متقابلتان: يد بهتت مريم واتهمت طهرها، ويد غلت في ابنها حتى رفعته فوق مقام العبودية.

بين الجفاء والغلو وقف القرآن يعيد الحق إلى موضعه.

برّأ الأم من الإفك، ونزّه الابن عن دعوى الألوهية.

أثبت المعجزة، ومنع أن تتحول المعجزة إلى وثن.

عظّم المسيح، ولم يعبده.

وهذا هو الفرقان: ألا يدفعك إنكار باطل إلى باطل مقابل. فبعض الناس إذا رأى قومًا ينتقصون رجلًا صالحًا غلا فيه دفاعًا عنه، وإذا رأى قومًا يغلون فيه جفاه حتى يكاد يبخسه حقه.

أما الحق فلا يحتاج إلى مبالغة كي يُدافع عنه. مريم عظيمة بما جعل الله لها من الطهر والاصطفاء، ولا تحتاج عظمتها إلى أن تُنسب إليها خصائص الربوبية. والمسيح من أولي العزم من الرسل، وكلمة ألقاها الله إلى مريم، وروح منه على الوجه اللائق بالإضافة التشريفية، ولا يحتاج مقامه النبوي الرفيع إلى إخراجه من دائرة العبودية.

إن أعظم تكريم للأنبياء أن نضعهم حيث وضعهم الله.

ولم يكن النبي محمد ﷺ حاضرًا حين كان القوم يلقون أقلامهم ليتبينوا من يكفل مريم، ولم يشهد خصومتهم، ولم يقرأ تاريخهم من صحائف حفظته من التحريف. ثم جاء القرآن بهذه الأنباء، لا بوصفها روايةً بشريةً تتكئ على التخمين، بل وحيًا من العليم بما غاب.

إن تصحيح القصة هنا جزء من الدلالة على صدق الرسالة الخاتمة. فالذي أوحى إلى محمد ﷺ بخبر مريم هو الذي اصطفاها، والذي أخبره بحقيقة المسيح هو الذي خلق المسيح وأرسله.

## اسمه المسيح عيسى ابن مريم

قالت الملائكة: **﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥)**

نُسب عيسى إلى أمه تصريحًا: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

فلا أب له من البشر، وهو في الوقت نفسه ابن امرأة، حملته وولدته. بهذه النسبة يحفظ القرآن المعجزة والبشرية معًا.

ليس ميلاده العجيب دليلًا على ألوهيته، بل دليل على قدرة من خلقه. ولو كان الخروج عن الصورة المعتادة للولادة موجبًا للألوهية، لكان آدم عليه السلام أولى بذلك؛ إذ خُلق من غير أب ولا أم.

وسُمّي كلمةً من الله؛ لأنه وُجد بكلمة الله: كن. وليس معنى ذلك أنه جزء من ذات الله تعالى؛ فالله سبحانه أحد صمد، منزّه عن التجزؤ والحلول والاتحاد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. إنما خُص عيسى بهذا الوصف لأن خلقه أبرز دلالة الأمر الإلهي الذي لا يحتاج إلى أب حتى ينفذ.

الخلق كله بكلمة الله، لكن ولادة المسيح جعلت هذه الحقيقة ظاهرةً على نحو خارق للعادة.

فالآية لا تنقل عيسى من عالم الخلق إلى مقام الخالق، بل ترد وجوده كله إلى مشيئة الخالق.

## اسمه... لا ماهيته

تأمل دقة التعبير: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى﴾.

الكلمة بشارة الله وأمره الذي وُجد به عيسى، ثم تقول الآية: اسمه المسيح عيسى. فهو شخص مخلوق له اسم، وتاريخ، وأم، ورسالة، لا صفة أزلية قائمة بذات الله حلت في جسد.

القرآن لا يدخل في متاهات فلسفية تجعل البسيط غامضًا، بل يعيد الوعي إلى المحكمات: الله إله واحد.

وعيسى عبد ورسول.

وميلاده آية.

والمعجزة لا تلغي العبودية، بل تشهد بالقدرة الإلهية.

وكم أنقذت هذه الكلمات القليلة العقل من قرون من الجدل المتشعب! غير أن الإنسان إذا ترك المحكم الواضح، استطاع أن يبني فوق المتشابه صروحًا من المصطلحات، ثم يعجز بعد ذلك عن العودة إلى بساطة التوحيد.

## وجيهًا في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

للمسيح مكانة عظيمة عند الله. هو نبي كريم، مؤيد بالآيات، مبارك، ومن المقربين. والقرآن لا ينتقصه في أثناء رد الغلو فيه؛ بل يمنحه مقامه الصحيح كاملًا.

وهذا أدب العدل: أن ترد الباطل من غير أن تبخس صاحبه ما ثبت له من فضل.

قد يظن بعضهم أن مقاومة الغلو تستلزم تقليل شأن من غلا الناس فيه، لكن ذلك ظلم آخر. فالميزان لا يستقيم إذا عالجنا زيادةً بنقصان، وإنما يستقيم حين نضع الحق في منتصفه الدقيق.

كان عيسى وجيهًا في الدنيا، وإن طارده المتآمرون وكذبه قوم. فالوجاهة الحقيقية ليست أن يصفق الناس لصاحبها، بل أن يكون ذا قدر عند الله. وكم من وجيه في الأرض لا وزن له في السماء، وكم من مستضعف لا يلتفت إليه الناس واسمه مكتوب في الملأ الأعلى.

وهو وجيه في الآخرة، حين تسقط الوجاهات المصنوعة، ولا يبقى إلا ما أثبته الله.

## ويكلم الناس في المهد وكهلًا

قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٤٦)

كانت أولى المعجزات دفاعًا عن أمه. سيتكلم في المهد حين تعجز مريم عن دفع التهمة بالكلام، فيجعل الله الحجة على لسان الطفل الذي كان موضع الاتهام.

يا للعناية!

حين أمرها الله بالصمت، لم يترك الحقيقة بلا لسان؛ أنطق لها من لا يتوقع الناس منه كلامًا.

وهكذا قد يعجز المظلوم عن الدفاع عن نفسه، لا لضعف حجته، بل لأن الافتراء سبق إلى العقول، أو لأن الألم أثقل لسانه، أو لأن كل كلمة منه ستُستعمل ضده. عندئذ لا يكون الصمت اعترافًا، ولا ضياعًا للحقيقة. لله طرائق في إظهار البراءة لا تدخل في حساب المتهمين.

ليس على الحق أن يصرخ دائمًا حتى يبقى حقًّا.

وقد يجعل الله للحقيقة صوتًا من الموضع الذي ظنه الباطل مستحيلًا.

أما كلامه كهلًا، ففيه امتداد رسالته ونضج خطابه، وقد أخبر الوحي برفعه إلى الله وعودته في آخر الزمان كما دلت النصوص الصحيحة. والذي تكلم في المهد آيةً، يتكلم في كهولته داعيًا إلى عبادة الله، ثابت الهوية في جميع أحواله: عبدٌ صالح ورسول كريم.

وتختم الآية مرةً أخرى: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فبعد المعجزة والوجاهة والقرب، يبقى الصلاح هو الجذر الذي يحمل كل ذلك.

## أنّى يكون لي ولد؟

قالت مريم: **﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤٧)**

سؤالها يختلف عن سؤال زكريا. كان هو متزوجًا، لكن أسباب الإنجاب ضعفت. أما هي فلم يوجد السبب أصلًا.

لم تقل: لا يمكن، بل قالت: أنّى؛ كيف يقع هذا؟ إنها تطلب فهم الكيفية مع تسليمها للقدرة.

فالدهشة لا تناقض الإيمان. وقد يرتجف القلب أمام القدر وهو مؤمن بمن قدّره. الإيمان ليس بلادةً شعورية تجعل الإنسان لا يتأثر بالمفاجأة، بل هو أن يجد بعد الارتجاف موضعًا يسند إليه قلبه.

كانت البشارة لها مجدًا في ميزان السماء، لكنها تحمل في ميزان المجتمع تهمةً قاسية. فالناس لن يروا الملك الذي بشّرها، ولا يسمعوا الخطاب الذي طمأنها؛ سيرون امرأة تحمل طفلًا من غير زوج.

كان عليها أن تحمل الحقيقة وحدها قبل أن تنطق المعجزة.

وهذه من أشد صور الابتلاء: أن تعلم براءتك، ويعلمها الله، ولا يملك الناس في ظاهر الأمر إلا أسباب الاتهام.

ليس كل مصطفى محاطًا بفهم الناس. قد يكون الاصطفاء نفسه سبب غربته؛ لأنه يحمله إلى تجربة لا تملك الجموع مقاييس لفهمها.

## كذلك الله يخلق ما يشاء

جاء الجواب: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

في قصة زكريا قال: ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

وهنا قال: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

لأن المسألة تتعلق بإيجاد حياة من غير الطريق المعتاد. والخلق فعل الله وحده؛ لا تشاركه فيه كلمة، ولا رحم، ولا سبب. إنما الأشياء كلها محالّ يجري فيها أمره.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾؛ فلا مراجعة في سلطانه، ولا عائق يقف بين الإرادة والتنفيذ.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ وليس القول الإلهي كقول البشر، ولا يلزم منه صوت أو حرف على ما نعهده؛ بل نثبت ما أثبته الله لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف. والمقصود هنا نفاذ الأمر، وسقوط المسافة بين المشيئة ووقوع ما شاءه سبحانه.

البشر يريدون ثم تعوقهم الوسائل.

ويرسمون الخطط ثم تفاجئهم المتغيرات.

ويأمرون فلا يُطاعون.

أما الله، فإذا قضى أمرًا فلا تكون الاستحالة وصفًا له، بل وصفًا لقصور التصور البشري أمام قدرته.

**القدرة لا تُقاس بالمألوف**

خطأ الإنسان أنه يقيس ما يستطيع الله فعله بما اعتاد هو رؤيته.

يقول: لم أر طفلًا من غير أب، إذن لا يكون.

كأنه جعل حدود تجربته حدودًا للوجود.

لكن ما نسميه عادةً ليس إلا صورة متكررة من صور المشيئة. وحين يشاء الله صورةً أخرى، لا يكون قد خالف قدرةً أعلى منه، بل أظهر أن النمط المتكرر لم يكن سيدًا عليه.

المعجزة لا تعني أن الكون كان خارج سلطان الله ثم تدخل فيه؛ بل تعني أن السلطان الإلهي أظهر وجهًا لم تألفه العيون.

ومن هنا فإن ميلاد المسيح ليس لغزًا في الألوهية، بل آية في الخلق. كلما كان الحدث أعجب، كان افتقار المخلوق إلى الخالق أوضح.

## ويعلّمه الكتاب والحكمة

قال تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**﴾ (٤٨)

الذي يولد بمعجزة لا يستغني عن تعليم الله.

وهذه وحدها حجة ظاهرة على عبوديته؛ فالإله لا يُعلَّم، أما عيسى فيعلّمه الله. يتلقى العلم، ولا يستمده من ذات مستقلة عن ربه.

يعلمه الكتاب: جنس الكتابة أو الوحي والكتاب المنزل بحسب ما يحتمله السياق.

ويعلمه الحكمة: وضع العلم في موضعه، وفقه المقاصد، وإصابة الحق في القول والعمل.

ويعلمه التوراة: ليعيد بني إسرائيل إلى أصل الوحي الذي حملوه ثم اختلفوا فيه.

ويعلمه الإنجيل: النور الذي أنزله الله عليه هدايةً وموعظة.

ليس عيسى مؤسسًا لدين يناقض دين موسى في أصل التوحيد، بل حلقة في سلسلة واحدة. جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة، ومصححًا لانحرافات القوم، ومبشرًا برسول يأتي من بعده.

فالأنبياء لا يتنازعون أتباعًا، ولا يبني كل واحد منهم مجدًا شخصيًّا. إنهم يحملون مشعلًا واحدًا عبر أزمنة متعددة، ويشير كل منهم إلى المصدر نفسه.

أما الذين جاءوا بعدهم، فقد يحولون النبوة من جسر يوصل إلى الله إلى راية عصبية يفاصلون بها أنبياء الله الآخرين.

## رسولًا إلى بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿**وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (٤٩)

هو رسول، والرسول مُرسَل.

وهذه الكلمة وحدها تضع المسافة الفاصلة بين العابد والمعبود. فالمرسل هو الله، والمسيح حامل رسالته. يستمد سلطته من الإذن، ومعجزاته من العطاء، وعلمه من التعليم.

لم يقل: جئتكم بقوة ذاتية، بل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

من ربكم؛ فالمعجزة رسالة تحمل توقيع الربوبية، لا إعلانًا بأن الرسول صار ربًّا.

كلما ذكر عيسى آيةً ردها إلى الله، حتى لا تتعلق القلوب باليد التي ظهرت عليها وتنسى من أذن لها.

## أخلق لكم من الطين

قال عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قد تتعلق العين بفعل عجيب: هيئة طير تُصنع من الطين، ثم تصير طيرًا. لكن العبارة تغلق باب الغلو: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فلفظ الخلق هنا بمعنى التصوير والتقدير، أما تحويل الصورة إلى كائن حي فبإذن الله وحده. لم تكن المعجزة قدرةً مستقلةً في عيسى، بل آية يجريها الله على يديه.

ولو كانت ذاتيةً لما احتاجت إلى إذن.

إن التكرار القرآني لعبارة «بإذن الله» ليس تفصيلًا زائدًا؛ إنه السياج العقدي حول المعجزة، حتى لا تنقلب دلالتها. فقد جاءت لتشهد للرسول، لا لتحوله إلى إله، ولتدل على قدرة الله، لا لتوزع خصائص الربوبية بين الله وعبده.

## وأبرئ الأكمه والأبرص

قال: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

اختصت معجزاته بملاقاة الألم الإنساني. عين لم تر النور، وجسد أثقله المرض، وميت انقطعت عنه الحياة؛ فتجيء الآية بالشفاء والإحياء.

لم تكن المعجزة استعراضًا للقوة، بل رحمةً تمشي إلى مواضع العجز.

وهذه سمة النبوة: أن القوة فيها لا تستعرض نفسها، وإنما تخدم الهداية وتداوي الإنسان. أما القوى البشرية المنفصلة عن الرحمة، فتجعل الضعفاء مسرحًا لإظهار سلطانها.

لكن القرآن، وهو يثبت هذه الآيات العظيمة، يعيد العبارة:

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

حتى إحياء الموتى، وهو أعظم ما يراه الإنسان خارج حدود قدرته، لم يكن تصرفًا ذاتيًّا لعيسى. إنما دعا، فأجرى الله الحياة على يديه آيةً له.

الميت لم يرجع لأن في بشر من البشر ألوهية، بل لأن رب الحياة أذن للحياة أن تعود.

## وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون

قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

يطلعه الله على بعض ما خفي عن الناس ليكون ذلك علامةً على صدق رسالته. لكنه علم جزئي موهوب، لا علم ذاتي مطلق. فالرسل لا يعلمون من الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

وهنا يظهر الفرق بين المعجزة والصفة الإلهية:

المعجزة عطاء محدود يقع بإذن.

أما صفة الله فعلم ذاتي محيط لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

خلط المقامين هو الذي يصنع الغلو؛ يرى الإنسان ومضةً من الفضل الموهوب، فينسب إلى العبد الشمس كلها.

وما أكثر ما يقع هذا على درجات أدنى مع الصالحين والعلماء! يظهر على يد أحدهم خير، أو تصدق له فراسة، أو يكون لدعائه أثر، فينسج المحبون حوله دعاوى لم يدّعها لنفسه. وربما كان أقرب الناس إلى الرجل أقلهم وفاءً بحقيقته؛ لأنهم يدفنون عبوديته تحت أكوام المبالغة.

## إن في ذلك لآية لكم

قال عيسى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

المعجزة آية، أي علامة تشير إلى ما وراءها. وخيانة العلامة أن نتوقف عندها ولا نعبر منها إلى مدلولها.

إن رأيت سهمًا يدل على طريق، فلست مأمورًا أن تبني بيتك عند السهم، بل أن تسير في الجهة التي أشار إليها. ومعجزات المسيح كانت أسهمًا تشير إلى صدق رسالته وقدرة ربه، لكن الغلو توقف عند شخصه وحوّل العلامة إلى غاية.

كل نعمة في الوجود آية بهذا المعنى.

العقل آية، وليس إلهًا.

والطبيعة آية، وليست خالقةً لنفسها.

والنبي آية هادية، وليس معبودًا.

وحين يفقد الإنسان فقه العبور، يعبد الوسائط التي كان ينبغي أن تقوده إلى الله.

## مصدقًا لما بين يدي

قال عيسى: ﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ (٥٠)

جاء مصدقًا، لا هادمًا لأصل رسالة موسى. لكنه جاء كذلك بتخفيف بعض ما حُرّم عليهم، وبتصحيح ما أدخله التشدد والتحريف في حياتهم.

فالوحي واحد في أصله، وقد تختلف بعض الشرائع بحكمة الله. ولا يعني اختلاف الأحكام الجزئية تناقض الرسالات، كما لا يعني اختلاف الدواء باختلاف حال المريض تناقض الطبيب مع نفسه.

لكن بني إسرائيل الذين اعتاد بعضهم أن يجعل الدين مجالًا للامتياز والسلطة لم يكن يسهل عليهم قبول رسول يعيد الشريعة إلى مقصدها. فالتدين المنحرف لا يخاف من الإلحاد وحده؛ قد يخاف من النبوة نفسها إذا كشفت مصالحه.

## فاتقوا الله وأطيعون

بعد كل المعجزات قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

لم يقل: فاتقوني.

التقوى لله، والطاعة للرسول بوصفه مبلغًا عن الله. هنا تتحدد المقامات بدقة: يُطاع الرسول لأن الله أمر بطاعته، ولا يُعبد؛ ويُحب، لكن لا تُمنح له خصائص الرب؛ ويُتبع، لأن اتباعه طريق إلى الله لا بديل عن الله.

ثم يعلن أصل رسالته: **﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)**

هذه هي كلمة المسيح التي ينبغي أن يُرد إليها كل متشابه:

الله ربي وربكم.

إذا كان الله رب عيسى، فعيسى عبد مربوب.

وإذا أمرهم أن يعبدوا الله، فلم يأمرهم بعبادته.

وإذا سمى ذلك صراطًا مستقيمًا، فكل طريق يرفعه إلى الألوهية خروج عن الصراط الذي دعا إليه.

لا يحتاج الأمر إلى متاهة: المسيح نفسه يشهد بعبوديته لله.

وتلك إحدى قواعد سورة آل عمران التي قررتها في أولها: ردُّ المتشابه إلى المحكم. فإذا احتمل لفظ «كلمة» في ذهن أحد معنى فاسدًا، ردّه إلى قول المسيح الواضح: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

المحكم أمُّ الكتاب، وكل فهم يصادم الأمَّ فهم يتيم لا نسب له في الوحي.

## من أنصاري إلى الله؟

قال تعالى: **﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢)**

لم يقل: من أنصاري إلى نفسي، أو إلى مجدي، أو إلى جماعتي. كانت وجهة النصرة:

إلى الله.

فالدعوات الصادقة لا تجمع الأنصار حول شخص القائد، بل تجمعهم على الطريق إلى الله. والقائد الذي تصبح ذاته غايةً للدعوة قد نقل الناس من عبادة ظاهرة إلى عبودية خفية لشخصه.

أحس عيسى الكفر؛ أدرك أن المشكلة لم تعد نقص معلومة، بل موقفًا داخليًّا من الحق. وحين يصل الرفض إلى هذا المستوى، تحتاج الدعوة إلى صف واضح يحمل أمانتها.

قال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

لم يقولوا: نحن أنصار عيسى فقط، مع أنهم نصروه؛ بل رأوا نصرة الرسول نصرةً لله، لأنها نصرة لرسالته.

وسموا أنفسهم: مسلمين.

فالإسلام ليس اسمًا ظهر منفصلًا عن موكب النبوة، بل حقيقة الاستسلام التي اجتمعت عليها رسالات الله. كان حواريو عيسى مسلمين لله، كما كان إبراهيم مسلمًا، وكما دعا موسى قومه إلى التوكل إن كانوا مسلمين.

## الإيمان الذي يطلب الشهادة

قال الحواريون: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ **(٥٣)**

جمعوا بين الإيمان بما أنزل الله واتباع الرسول.

فلا يكفي ادعاء الإيمان بالله مع رد رسوله، ولا يصح تعظيم الرسول مع مخالفة ما أنزل الله. الوحي والرسول طريق واحد: هذا رسالة، وذاك حاملها.

ثم طلبوا: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لم يكتفوا بأن تكون الحقيقة في قلوبهم؛ أرادوا أن يُثبتوا في سجل الشهادة عليها. فالإيمان ليس تجربةً باطنيةً منعزلة دائمًا، بل موقف له تبعات. قد يقتضي أن يقف الإنسان مع الحق حين يتراجع الناس، وأن يحمل كلفة ما آمن به.

والشهادة ليست كلامًا فقط. أحيانًا يشهد الإنسان بثباته، وبإنفاقه، وبما يتحمله من عزلة، وبرفضه أن يبيع يقينه حين ترتفع كلفة الاحتفاظ به.

## ومكروا ومكر الله

قال تعالى: **﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤)**

دبر أعداء عيسى في الخفاء لإبطال دعوته والتخلص منه. ظنوا أنهم يحيطون بالمشهد، وأن ما خفي عن الناس خفي عن الله.

لكن تدبيرهم وقع داخل علم الله وسلطانه، فرد كيدهم عليهم وأنجى رسوله. ويُثبت المكر لله على الوجه اللائق بجلاله في مقام المقابلة والجزاء، من غير تشبيه بصفات المخلوقين ولا نسبة نقص إليه سبحانه؛ فهو تدبير حق وعدل في مقابلة مكر الباطل.

الإنسان الماكر يرى جزءًا من اللوحة، ويخطط على أساسه.

أما الله فيعلم البداية والنهاية، والظاهر والخفي، ويملك الأشخاص والأزمنة والنتائج. لذلك يكون مكر البشر ـ مهما أحكموا ـ مادةً تدخل في التقدير الإلهي بدل أن تخرج عليه.

كم من خصم حفر حفرةً للحق، فجعلها الله موضع سقوطه!

وكم من طاغية أراد إطفاء دعوة، فكان اضطهاده سبب انتشارها!

وكم من مؤامرة ظن أصحابها أنهم دفنوا بها إنسانًا، فإذا بها تكشف قيمته وتفضحهم!

ليس معنى ذلك أن المؤمن يترك الحذر والأخذ بالأسباب؛ بل معناه ألا يمنح كيد الخصوم مقامًا أكبر من حقيقته. هم يدبرون، لكنهم لا يملكون النهاية.

فالماكر البشري يحتاج إلى الخفاء؛ لأنه يخشى انكشاف خطته، ويحتاج إلى موافقة الأسباب؛ لأنه عاجز عن تجاوزها. أما الله فلا يخفى عليه شيء، ولا يعجزه شيء، ويحيط تدبيره بكل تدبير.

وحين يعلم المؤمن أن مكر خصوم الحق محاط بعلم الله، لا يسقط في السذاجة، ولا يسقط كذلك في الرعب. يحتاط بقدر ما يستطيع، ثم لا يعبد الخطة المضادة ولا يظن أن مصير الدعوة معلق بذكائه وحده.

لقد بلغ مكرهم ذروته، لكن اللحظة التي ظنوها نهاية المسيح كانت بداية انكشاف عجزهم. ستمتد يد العناية إلى الرسول الكريم، ويأتيه الخطاب الذي يقرر أن مصيره ليس في أيديهم:

﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

وهنا يبدأ القسم الثاني من هذا الفصل: من نجاة المسيح ورفعه، إلى إقامة الحجة الفاصلة في شأنه، ثم المباهلة وإعلان القصص الحق.

## المسيح ابن مريم: كلمة الحق بين الغلو والجفاء

## القسم الثاني من الفصل الخامس: الآيات من (٥٥) إلى (٦٣)

## إني متوفيك ورافعك إليَّ

قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥)**

أخبر الله عيسى أنه سينجيه من كيدهم ويرفعه إليه. وقد دلت نصوص الوحي على أن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل رفعه الله، وأنه ينزل في آخر الزمان، ثم يستوفي أجله الذي كتبه الله له.

والتوفي في اللغة يأتي بمعنى الاستيفاء والقبض، وليس لازمًا أن يراد به الموت في كل موضع. والسياق، مع بيان القرآن في سورة النساء، يثبت نجاته من القتل ورفعه.

لكن الأهم في المعنى هنا أن أعداءه لم يملكوا مصيره. تصوروا أن نهايته في أيديهم، فجاءه الخطاب من الجهة التي تملك البداية والنهاية: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

كم يمنح هذا الخطاب قلب المؤمن من السكينة! لا يعني أن كل مؤمن سينجو بجسده من أذى خصومه، فقد قُتل أنبياء وشهداء، ولكن يعني أن الخصم لا

يملك الحقيقة النهائية لأمره. قد يؤذي الجسد، لكنه لا يكتب المصير؛ وقد يطرد الإنسان من الأرض، لكنه لا يطرده من قرب الله.

كانوا يرتبون في الأرض مشهد النهاية، وكان الله يكتب في السماء مشهد النجاة.

كانوا يظنون أن عيسى محصور داخل خطتهم، فإذا خطتهم كلها محصورة داخل قدر الله.

وهذه هي المسافة بين مكر الإنسان وتدبير الله: الإنسان يدبر بما يرى، والله يعلم ما يرى وما لا يرى؛ الإنسان يملك لحظةً، والله يملك الزمن كله؛ الإنسان يريد نتيجةً، لكنه لا يملك الأسباب كلها ولا قلوب أصحابها ولا اللحظة التي تنقلب فيها خطته عليه.

## ومطهرك من الذين كفروا

قال تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

الطهارة هنا نجاة من أذاهم وافترائهم ومجالستهم الخبيثة، وتبرئة لمقام المسيح من دعاواهم.

ومن عجيب التاريخ أن المسيح ابتُلي بنقيضين: قوم أرادوا تلويثه بالتكذيب والتآمر، وقوم ظنوا أنهم يكرمونه فنسبوا إليه ما يتبرأ منه.

والله يطهره من الفريقين: من الذين جفوه حتى سعوا إلى قتله.

ومن الذين غلوا فيه حتى جعلوه معبودًا.

فالأنبياء يتأذون بالانتقاص، ويتأذون كذلك بالغلو. وليس من حبهم أن ننسب إليهم ما يخالف دعوتهم، ولو ظننا أن تلك النسبة تعظيم.

إن المحب الصادق للمسيح هو من يسمع وصيته: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وطهارة مقامه لا تحتاج إلى أساطير يصنعها المحبون، بل إلى رد كلماته إلى صفائها الأول: عبد لله، ورسول منه، وداعية إلى عبادته وحده.

## وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا

قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

الاتباع الحق لعيسى هو اتباع توحيده ونبوته ودعوته إلى الله. وكل من آمن بالمسيح على الوجه الذي جاء به، ومن ذلك أمة محمد ﷺ التي آمنت به رسولًا كريمًا، فهو من أتباعه الصادقين.

المسلم لا يكتمل إيمانه إذا كفر بعيسى أو انتقصه. يحبه، ويصلي ويسلم عليه، ويؤمن بمعجزاته وعودته، ويبرئ أمه، لكنه لا يعبده؛ لأن عيسى نفسه لم يدعُ إلى عبادته.

وهذا هو التكريم الذي حفظه القرآن له حين ضاعت الحقيقة بين الخصومات: لا إنكار ولا تأليه، بل نبوة في أعلى مقاماتها البشرية.

والفوقية التي يمنحها الله لأتباع الحق لا تختزل في صورة واحدة من صور الغلبة. فقد تكون فوقية الحجة والبيان، وقد تظهر في التمكين والنصر، ويبلغ تمام الفصل يوم القيامة حين تسقط الدعاوى، ويظهر من اتبع المسيح حقًّا ومن اتخذ اسمه ستارًا لمخالفة دعوته.

فليس كل من انتسب إليه متبعًا له؛ لأن الاتباع حركة في الطريق، لا مجرد حمل للاسم. من قال إن الله رب عيسى وربه، وعبده وحده، وآمن برسله، فقد وافق أصل دعوته. ومن رفعه إلى مقام الألوهية فقد خالفه وهو يظن أنه يعظمه.

## ثم إليَّ مرجعكم

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

لن تبقى قضية المسيح أسيرةً للجدل الأرضي إلى الأبد. سيعود الجميع إلى الله: من كذبوه، ومن ألهوه، ومن آمنوا به عبدًا ورسولًا.

هناك تنتهي سلطة الموروثات والجماعات، ولا ينفع الإنسان أن يقول: وجدت قومي على هذا. فالرجوع فردي، والحكم لله، والحقيقة لا تتغير بحسب كثرة أتباعها.

إن استحضار المرجع يطهر الحوار من طلب الانتصار الشخصي. لسنا نحن من يملك مصائر الناس، ولا نحن الحكام على سرائرهم؛ نحن نبين ما أنزل الله، وندعو بالحكمة، ثم المرجع إليه.

والخلاف الذي قد يظل في الدنيا موزعًا بين كتب وطوائف ومجامع ومذاهب سيقف هناك أمام حكم واحد، لا يتأثر بقوة جماعة ولا بطول تاريخ.

في الدنيا يستطيع كل فريق أن يكتب روايته، وأن ينتقي من الوقائع ما يخدمها، وأن يصنع لنفسه جمهورًا. أما عند الله فلا روايات متنافسة، بل حقيقة واحدة أحاط بها علمه منذ البداية.

## فأعذبهم عذابًا شديدًا

قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ **(٥٦)**

الاختلاف في العقيدة ليس لعبةً لغويةً بلا عاقبة. إن الله الذي أرسل الرسل سيحاسب على الموقف منهم.

قد يبدو للإنسان أن الأفكار لا تتجاوز حدود الذهن، لكن التصور الذي يحمله عن الله يحدد الجهة التي يعبدها، والطريق الذي يسلكه، ومقياسه للحق والباطل. فإذا وقع الخلل في أصل الألوهية، امتد أثره في الحياة كلها.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

للكفر آثاره في الدنيا قبل عذاب الآخرة؛ فهو يقطع القلب عن مصدر هدايته، ويفسد الميزان الذي يزن به الوجود، وقد يقود المجتمعات إلى صور من الضياع لا تدرك علاقتها بالخلل الأول.

أما عذاب الآخرة فهو الفصل الذي لا ينتهي، حيث يلقى الإنسان الحقيقة التي ظل يفر منها.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

لقد طلب عيسى أنصارًا إلى الله، فقام الحواريون ونصروه. أما الذين كفروا، فقد يحيط بهم أنصار في الدنيا، لكنهم يصلون إلى يوم تنقطع فيه النصرة كلها.

لن ينصرهم الذين زينوا لهم الباطل، ولا المؤسسات التي ثبّتت موروثهم، ولا الكثرة التي منحتهم شعورًا بالأمان. كل نصير دون الله محدود بعجزه، ثم يفقد في ذلك اليوم حتى القدرة على نصرة نفسه.

**وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات**

قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ **(٥٧)**

لكن الآية تجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ فلا يكفي أن يصحح الإنسان عبارته عن المسيح ثم لا يظهر أثر التوحيد في حياته. فالعقيدة ليست بطاقة هوية ذهنية، بل أصل يثمر عملًا.

من عرف أن الله وحده الرب، لم يعبد هواه.

ومن آمن بأن المرجع إليه، راقب خطواته.

ومن صدق بالرسل، حمل شيئًا من أخلاق رسالاتهم.

أما معرفة الحق التي لا تغير السلوك، فقد تكون حجةً على صاحبها أشد من الجهل.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

التوفية عطاء كامل لا يبخس منه شيء. قد يعمل المؤمن في الدنيا عملًا لا يرى ثمرته، وقد يبذل ثم ينساه الناس، وقد يقف موقفًا صادقًا يكلفه مكانته وراحته؛ لكن الأجر ليس مودعًا في ذاكرة البشر.

الله يعلم العمل، ويعلم ما احتمله القلب في سبيله، ويعلم الفرص التي تركها العبد ابتغاء رضاه. فإذا جاء يوم الجزاء وفّى كل عامل أجره.

ثم تختم الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

والظلم أوسع من أن يكون اعتداءً ماديًّا على الناس؛ فمن أعظم الظلم أن يوضع المخلوق في مقام الخالق، أو يُصرف حق الله إلى غيره. إنه وضع للشيء في غير موضعه، واضطراب يصيب مركز الوجود في القلب.

والله لا يحب الظالمين، وإن أحاطوا ظلمهم بألفاظ المحبة والتعظيم. فالعاطفة لا تجعل الباطل حقًّا، وحسن القصد المدّعى لا يصحح قولًا يناقض ما جاء به الرسول نفسه.

## ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨)

القرآن لا يروي قصة المسيح للتسلية التاريخية، بل يعيد بها بناء الذاكرة الدينية. إنه ذكر يحرر الناس من النسيان والتحريف، وحكيم يضع كل شخصية في موضعها.

الحكمة هنا ليست مجرد صحة المعلومات، بل انتظامها في ميزان لا يظلم أحدًا: الله في مقام الألوهية المطلقة.

وعيسى في مقام النبوة الكريمة.

ومريم في مقام الطهر والاصطفاء.

والمعجزة في مقام الدلالة.

والإنسان في مقام العبودية.

إذا اختل موضع واحد، اختل البناء كله. فحين يُرفع النبي إلى مقام الله، لا يتغير وصف النبي وحده، بل يضطرب مفهوم الله والإنسان والعبادة والخلاص.

لذلك كانت العقيدة هندسةً للوجود في القلب، لا مجموعة مصطلحات منفصلة.

ووصف القرآن بأنه ﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ يجمع وظيفتين: يعيد إلى الذاكرة ما نسيته أو حرفته، ثم يعيد ترتيب ما تذكرته بالحكمة. فقد يحتفظ الإنسان بأسماء

الأنبياء، لكنه يفقد المعنى الذي جاءوا به؛ ويظل يردد قصة المسيح، بينما تختفي من قصته دعوته المركزية إلى عبادة الله.

فيأتي الذكر الحكيم، لا ليمحو المسيح من الذاكرة، بل ليعيده إليها كما كان: نبيًّا كريمًا وعبدًا لله.

## إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

ثم تأتي الحجة التي تختصر المسألة: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٥٩)**

إذا كان عيسى قد وُلد من غير أب، فإن آدم خُلق من غير أب ولا أم. فإذا لم تجعل كيفية خلق آدم إلهًا، فلم تجعل كيفية خلق عيسى دليلًا على الألوهية؟

إن الآية لا تقلل من معجزة الميلاد، بل تضعها داخل سجل القدرة الإلهية. الخالق الذي بدأ الإنسان من تراب لا يعجزه أن يخلق إنسانًا من أم بلا أب.

والمقارنة بـ﴿عِندَ اللَّهِ﴾، لا بالمظاهر البشرية وحدها. فالناس قد تحجبهم رهبة الحدث، أما في ميزان القدرة الإلهية فلا تفاوت بين أن يخلق من أبوين، أو من أحدهما، أو من غيرهما. الصعوبة وصف يتعلق بعجز المخلوق، ولا يتعلق بالخالق.

قال: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

آدم مخلوق بالأمر، وعيسى مخلوق بالأمر، والخلق كله قائم بالأمر. وكون الشيء صادرًا عن كلمة «كن» لا يجعله جزءًا من ذات القائل، بل يجعله أثرًا من آثار قدرته.

إن الغلو أخذ آية الميلاد وقطعها عن سجل الخلق كله. أما القرآن فيرد الحالة العجيبة إلى نظير أشد عجبًا، حتى يحرر العقل من الانتقائية.

فالذي جعل غياب الأب دليلًا على الألوهية ينبغي أن يسأل عن آدم؛ وإذا عرف أن آدم عبد مخلوق على الرغم من خروجه من التراب بلا أب ولا أم، عرف أن المعجزة لا تغير حقيقة المخلوق.

وكلما عظمت المعجزة، لم تعظم ذات المخلوق حتى تبلغ الألوهية، بل تعظم دلالتها على قدرة الخالق.

## الحق من ربك

قال تعالى: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ (٦٠)

الحق لا يستمد صدقه من تصفيق الجمهور، ولا من تراكم القرون، ولا من رضا المؤسسات الدينية؛ مصدره ربك.

وفي الإضافة طمأنينة: الرب الذي أنزل الحق هو الذي تولى تربية نبيه وتثبيته. فلا ينبغي أن تهز اليقين كثرة المجادلين.

لكن قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ليس دلالة شك وقع للنبي ﷺ، حاشاه، وإنما تثبيت له وتعليم لأمته. فالخطاب له، والمراد أن يستقر الحق في الوجدان بقوة لا تتخللها مرية.

إن الجدل الطويل قد يصنع وهمًا بأن كل القضايا معلقة؛ لأن كثرة الأصوات توحي للسامع أن الحقيقة بعيدة. لكن الحقيقة قد تكون واضحة، ويكون التعقيد كله في رفض النفوس لها.

ليس كل سؤال عميقًا، ولا كل جدل دليلًا على غموض المسألة. قد تكون المشكلة أن الجواب لا يخدم المكانة التي يريد صاحبها الاحتفاظ بها.

ولفظة ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تعيد المعرفة إلى مصدرها؛ فلا يثبت المؤمن على الحق لأنه اخترعه أو ورثه بلا برهان، بل لأنه جاءه من ربه. ومن هنا يكون يقينه عبوديةً لا غرورًا: لا يقول إن الحق منه، بل يقول إن الحق من الله، وإنه عبد اهتدى إليه بفضله.

## المباهلة: حين ينتهي البيان

ثم يقول الله: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١)**

جاء وفد نجران يجادل في شأن المسيح، فبيّن القرآن الحقيقة، وأقام الحجة، ثم دعاهم إلى المباهلة حين أصروا بعد العلم.

المباهلة ليست أول الحوار، بل آخره. لا يُقفز إليها قبل البيان، ولا تُتخذ وسيلة غضب في كل خلاف. إنها مقام خطير يفوض فيه الطرفان الأمر إلى الله، ويسألانه أن ينزل لعنته على الكاذب.

ولهذا أحجموا عنها؛ لأن الجدل الذي يحتمل صاحبه تبعاته الاجتماعية شيء، والوقوف عاريًا أمام حكم الله شيء آخر. قد يتكلم المرء بثقة أمام الناس، فإذا دُعي إلى مقام يعلم فيه أن الله سيكشف الكاذب تراجع.

إن كثيرًا من الضجيج الفكري يعيش على المسافة بين اللسان واليقين. ما أيسر الادعاء حين لا يكلّف صاحبه شيئًا، وما أصعبه حين يواجه به الله!

وتأمل أن المباهلة جاءت: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

فهي لا تُبنى على ظن متعجل، ولا على غضب شخصي، ولا على مسألة تحتمل اجتهادًا مشروعًا. لقد سبقها علم وبيان وحجة، ثم لم يبق بعد ذلك إلا أن يُرد أمر المعاند إلى الله.

كما أنها لم تكن فعلًا فرديًّا منفعلًا؛ فقد دُعي الأبناء والنساء والأنفس، بما يكشف صدق صاحب الحق واستعداده أن يقف بأحب الناس إليه عند مقام الدعاء. أما صاحب الدعوى التي لا يطمئن إليها في أعماقه، فإنه لا يغامر بمن يحب حين يقترب الحكم من الله.

## إن هذا لهو القصص الحق

قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (٦٢)

تنتهي قصة المسيح إلى التوحيد؛ لأنه مقصدها الأول.

لم يكن الخلاف حول سيرة رجل مضى، بل حول مقام الله نفسه. فإذا صُححت قصة عيسى عاد التوحيد نقيًّا، وإذا حُرفت اضطربت العبادة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

ليس أسطورة صنعتها الجماعات، ولا رواية زاد فيها المحبون ونقص الخصوم، بل القصص الذي جاء من رب عيسى ومريم، العالم بما وقع وبما أخفته النفوس.

والحق في القصة ليس دقة الحوادث وحدها، بل استقامة الدلالة أيضًا. قد يروي الإنسان حدثًا صحيحًا ثم يضعه داخل معنى فاسد. أما القرآن فيحفظ الواقعة ويحفظ وجهتها: الميلاد معجزة، لكنه معجزة خلق؛ وعيسى وجيه، لكنه عبد؛ والمعجزات عظيمة، لكنها بإذن الله؛ والرسالة مباركة، لكنها تدعو إلى عبادة الله وحده.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ نفي يستأصل كل شريك، ظاهرًا أو متخيَّلًا.

﴿الْعَزِيزُ﴾؛ فلا يحتاج إلى ولد يعينه أو يكمله، تعالى الله عن ذلك.

﴿الْحَكِيمُ﴾؛ خلق عيسى على تلك الصورة لحكمة، وأرسله بآياته لحكمة، وأنزل البيان الفاصل لحكمة.

العزة تنفي الحاجة التي توهمها دعوى الولد، والحكمة تنفي العبث عن صورة الخلق العجيبة. فهو غني لا يحتاج إلى أحد، وحكيم لا يخلق شيئًا سدى.

## فإن تولوا

قال تعالى: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٣)**

بعد هذا البيان كله، لم يبقَ التولي مجرد غموض فكري. لقد جاءت الآيات، وأقيمت الحجة، ورُد المتشابه إلى المحكم، ووُضعت ولادة المسيح إلى جوار خلق آدم، وأُعلن أن الله رب المسيح ورب الناس جميعًا.

فإن تولوا بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

يسمي القرآن الإعراض بعد البيان فسادًا؛ لأن تحريف تصور الله ليس فكرةً معزولة. كل خلل في مركز العقيدة يمتد إلى الأخلاق والعبادة والعلاقات. فإذا اختل المركز، دارت الأشياء حول محاور كاذبة.

والله عليم بهم؛ يعلم من اشتبه عليه الأمر فطلب الهدى، ومن عرف الحق ثم أعرض عنه حمايةً لمكانة أو موروث، ومن يتحدث بلسان الباحث بينما يخفي في قلبه قرارًا سابقًا بألا ينقاد.

إن الحكم بالفساد هنا ليس انفعالًا بشريًّا تجاه المخالف، بل خبر من الله العليم بالسرائر والآثار. وما دام هو العليم، فليس للمؤمن أن يتجاوز البيان إلى ادعاء

العلم بقلوب الأفراد؛ يبلغ الحق، ويعدل، ويحاور بالحكمة، ثم يرد السرائر إلى الله.

**المسيح الذي يعيده القرآن إلى جماله**

القرآن لا يسلب المسيح جماله حين ينفي ألوهيته؛ بل يحرره من الصورة التي حجبت رسالته.

كان عبدًا لله، وفي العبودية شرفه.

وكان رسولًا، وفي الرسالة وجاهته.

وكان آيةً، وفي دلالته عظمته.

وكان رحمةً لبني إسرائيل، وفي رحمته أثره.

وكان مصدقًا بالتوراة وداعيًا إلى الصراط المستقيم، لا مؤسسًا لعبادة نفسه.

الغلو لا يكرم الإنسان؛ إنه يمحو حقيقته ليصنع منه صورةً تحتاجها أوهام الغالين. أما الحب الصادق فيسمح للمحبوب أن يكون كما عرّفه الله، لا كما تريد العاطفة أن تعيد خلقه.

ولذلك كان المسلم أقرب إلى وصية المسيح من كل من يرفعه فوقها. يصلي عليه، ويحب أمه، وينتظر نزوله، ويؤمن بمعجزاته، ثم يقول معه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

ذلك هو المسيح الذي لا تحجبه الأساطير عن التوحيد، ولا تبتلعه الخصومات التاريخية؛ نبيٌّ كريم يشير بكل آية في يده إلى الله.

بعد أن أقامت السورة الحجة في شأن المسيح، لم تغلق الباب في وجه أهل الكتاب، ولم تجعل بطلان الاعتقاد مبررًا لظلم صاحبه. انتقلت من تفنيد الغلو إلى فتح مساحة اللقاء: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

لم تقل: تعالوا إلى نصف حقيقة نتقاسمها، ولا إلى صياغة تذيب الفروق كي يبدو الجميع متفقين. بل إلى كلمة عادلة مستوية، لا يستعلي فيها بشر على بشر، ولا يُتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله.

وهنا تكشف السورة فقهًا رفيعًا للحوار: وضوح لا يعتدي، وإنصاف لا يذوب، وقاسم مشترك لا يُشترى بثمن العقيدة.

وهذا باب الفصل السادس:

**تعالوا إلى كلمةٍ سواء.**

## الفصل السادس

## تعالوا إلى كلمةٍ سواء

### القسم الأول: الآيات من (٦٤) إلى (٧٢)

بعد أن أقامت السورة الحجة في شأن المسيح عليه السلام، لم تُغلق باب الحوار، ولم تجعل خطأ المخالف مبررًا لإهدار إنسانيته. جاءت الدعوة في لفظ كريم: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤)**

لم يقل: يا ضالين، مع وقوع الضلال، بل ناداهم بالوصف الذي يذكّرهم بأصل الوحي الذي بين أيديهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾.

إنها دعوة تستخرج من المخالف أقرب مواضعه إلى الحق، ثم تخاطبه منه. فالمقصود من الحوار ليس إذلال الإنسان، بل تحريره من الفكرة التي حجبت عنه الهدى.

قد تنتصر على خصمك في العبارة وتخسره في الهداية. وقد تسحق كبرياءه أمام الناس، فتدفعه إلى التشبث بباطله دفاعًا عن كرامته. أما خطاب القرآن، فيجمع قوة الحجة وحسن المدخل؛ لا يجامل في الحقيقة، ولا يهين من يُدعى إليها.

## تعالوا: كلمةٌ تمد اليد ولا تنزل عن الحق

قال: ﴿تَعَالَوْا﴾.

في اللفظة حركة من موضع إلى موضع، ومن انخفاض إلى علو، ومن تشتت إلى مركز جامع. إنها ليست أمرًا باردًا، بل يد ممدودة: اقتربوا لننظر معًا في الأصل الذي ينبغي أن يجمعنا.

لكن القرآن لم يقل: تعالوا إلى ما نرضاه جميعًا، فقد ترضى النفوس بحلّ يريحها ولا يرضي الله. وإنما قال:

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾.

والسواء ما استوى عدله، وكان مشتركًا لا يحتكره طرف لنفسه. ليست الكلمة تسويةً بين الحق والباطل، بل تحريرًا للجميع من الخضوع لغير الله.

فالحوار القرآني لا يبدأ بتخفيف الحقيقة حتى يقبلها المخالف، وإنما يبدأ بالكشف عن عدالتها. التوحيد ليس امتيازًا تمنحه جماعة لنفسها؛ إنه مساواة جذرية بين البشر كلهم أمام رب واحد.

لا كاهن يملك مفاتيح المغفرة.

ولا حاكم تُمنح طاعته مقام العبادة.

ولا نبي يخرج من دائرة العبودية.

ولا طبقة تحتكر الصلة بالله.

الجميع عبيد، والله وحده رب.

**ألّا نعبد إلا الله**

ثم فسر القرآن الكلمة السواء: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

هذه هي نقطة البدء، لا لأنها أبسط القضايا فحسب، بل لأنها الأصل الذي تتفرع منه بقية القضايا. فإذا اختل تصور المعبود، اختل تصور الإنسان والحياة والأخلاق والنجاة.

والعبادة أوسع من السجود والشعائر. إنها غاية الحب والخضوع والطاعة، وأن تكون الجهة العليا التي يستمد منها الإنسان قيمه وميزانه وولاءه.

قد ينكر الإنسان أنه يعبد غير الله، لكنه يطيع هواه طاعةً لا يراجعها، أو يمنح بشرًا حق التشريع المطلق، أو يخشى خسارة مكانته أكثر من خشيته خسارة رضوان الله.

وقد يبقى الصنم بلا تمثال.

يتخذ شكل مال لا يُعصى.

أو زعيم لا يُناقش.

أو جماعة لا يُرد خطؤها.

أو ذات متضخمة تجعل رغبتها ميزان الحق.

ولهذا لم تقل الآية: ألا نسجد إلا لله فقط، بل: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

لتشمل تحرير القلب والعقل والإرادة.

**ولا نشرك به شيئًا**

قال تعالى: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

جاءت «شيئًا» نكرةً في سياق النفي، لتستوعب كل شريك، مهما تغير اسمه أو صغر حجمه في عين صاحبه.

لا نشرك به نبيًّا ولا ملَكًا.

ولا حجرًا ولا قبرًا.

ولا سلطانًا ولا مجتمعًا.

ولا عقلًا ولا شهوة.

ولا ذاتًا بشريةً نصنع حولها هالةً تمنعنا من رؤية خطئها.

فالشرك ليس دائمًا أن يعلن الإنسان وجود إله آخر؛ قد يكون أن يمنح شيئًا من خصائص الله لغيره: دعاء العبادة، أو علم الغيب المطلق، أو التشريع المستقل، أو الطاعة التي لا حد لها، أو المحبة التعبدية.

والتوحيد لا يترك في القلب منطقةً خارجةً عن سلطان الله. إنه يعيد كل شيء إلى مرتبته: يُحب النبي ولا يُعبد، ويُطاع العالم في الحق ولا يُتخذ

معصومًا، ويُحترم الحاكم في المعروف ولا تُحل طاعته الحرام، وتُستعمل الأسباب ولا يُتوكل عليها.

## ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا

ثم تأتي النتيجة الاجتماعية للتوحيد: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

إنها واحدة من أعظم وثائق تحرير الإنسان.

فالربوبية البشرية لا تبدأ دائمًا بادعاء شخص أنه إله؛ قد تبدأ حين يمنح الناس أحدًا حقًّا لا يملكه بشر: أن يحل ويحرم من عند نفسه، أو يطلب طاعةً مطلقة، أو يجعل إرادته فوق الحق.

التوحيد ثورة أخلاقية على كل استعباد.

حين يعلم الحاكم أنه عبد، لا يرى الرعية ملكًا له.

وحين يعلم العالم أنه عبد، لا يجعل اجتهاده وحيًا.

وحين يعلم الأب أنه عبد، لا يحوّل أسرته إلى مملكة استبداد.

وحين يعلم القائد أنه عبد، لا يطالب أتباعه بإخلاص يختص الله بعلمه، بينما يعفي نفسه من العدل والأمانة.

ليس من حق إنسان أن يضع غيره في موضع الإهانة، ثم يطالبه بالرضا باسم الدين. ولا أن يهضم حقه، ثم يتهم اعتراضه بضعف الإيمان. فالإيمان

بالله لا يجعل المؤمن مادةً سهلةً للظالم؛ بل يحرره من الخضوع الأخلاقي له.

الله وحده رب، ولذلك لا يملك أحد كرامة الإنسان امتلاكًا مطلقًا.

## حين تتحول المرجعية إلى ربوبية خفية

ذكرت السورة بعد ذلك انحراف أهل الكتاب في علاقتهم بعلمائهم، لأن الإنسان قد يهرب من صنم الحجر ليقيم صنم المرجعية.

لا تكون المشكلة في وجود العلماء؛ فالعلماء أمناء على البيان، والأمة تحتاج إلى علمهم. إنما تبدأ المشكلة حين يتوقف الاتباع عن طلب الدليل، ويصبح اسم الرجل بديلًا من الحجة، أو يصبح الانتماء إلى المذهب مانعًا من مراجعة الخطأ.

العالم يدل على الوحي، ولا يقف مكانه.

والمفسر يفتح نافذةً على النص، ولا يتحول إلى جدار يحجبه.

والمذهب طريق للفهم، لا سجن يمنع صاحبه من رؤية ما وراءه.

ومن أخطر صور اتخاذ البشر أربابًا أن يرضى الناس من قائدهم أو عالمهم ما لا يرضونه من غيره، لا لأن الحق تغير، بل لأن الشخص صار في نفوسهم فوق الميزان.

عندئذ لا يعودون يزنون الرجل بالحق، بل يزنون الحق بقربه من الرجل.

وهذه ربوبية خفية، ولو بقيت الألسن تردد التوحيد.

**فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**

قال تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

بذل القرآن الدعوة، وبيّن الكلمة الجامعة، ثم لم يأمر المؤمنين بأن يطاردوا القلوب بعد إعراضها. إذا تولوا، يبقى على المسلم أن يعلن موقفه بوضوح:

﴿أَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

لا غضب يحمله على تحريف عقيدته حتى يرضوا.

ولا حرص على التقارب يدفعه إلى إخفاء الفروق الجوهرية.

ولا رفضهم يجعله يعتدي عليهم.

إنه يجمع الثبات والسكينة: دعوتكم، فإن رفضتم فلن أكرهكم على الإيمان، ولن أذيب إيماني كي نصنع اتفاقًا شكليًّا.

الحوار ليس صفقةً تُتنازل فيها الأطراف عن بعض الحقيقة. قد يتنازل الإنسان عن مصلحة، أو أسلوب، أو ترتيب، لكنه لا يملك أن يتنازل عن شيء ثبت أنه من حق الله.

وما لم يتعلم المحاور الفرق بين المرونة في الوسائل والثبات في الأصول، تحولت سماحته إلى ذوبان، أو تحول ثباته إلى خشونة.

## لماذا تحاجّون في إبراهيم؟

ثم تواجه السورة دعوى تاريخية: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥)**

كان كل فريق يريد أن يضم إبراهيم إلى هويته المتأخرة، مع أن التوراة والإنجيل نزلا بعده. إنها مفارقة زمنية تكشف كيف تعيد العصبيات كتابة التاريخ.

بدل أن يقيسوا أنفسهم بإبراهيم، أرادوا أن يجعلوا إبراهيم نسخةً منهم.

وهذه عادة الجماعات حين تضخم هويتها: لا تكتفي بأن تنتسب إلى العظماء، بل تعيد تشكيلهم بما يناسب صورتها. تنزعهم من سياقهم، وتضع على ألسنتهم مصطلحات جاءت بعدهم، ثم تستعملهم في خصومات لم يعرفوها.

لكن إبراهيم أكبر من اللافتات المتأخرة.

لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا؛ لأن هذه التسميات والشرائع التفصيلية جاءت بعده. كان صاحب الحقيقة الأولى: العبودية الخالصة لله.

وتختم الآية بسؤال يهز بنية الدعوى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فالعقل هنا لا يحتاج إلى فلسفة معقدة، بل إلى احترام ترتيب الزمن. كيف يُنسب إنسان إلى اسم ديني وتفصيل تشريعي لم يأت إلا بعده بقرون؟

لكن العصبية حين تستولي على العقل تجعله عاجزًا عن رؤية التناقض القريب؛ لأنه لا يعود يبحث عن الحقيقة، بل عن كل ما يحفظ له دعواه.

## الجدال فيما لا علم لكم به

قال تعالى: ﴿**هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (٦٦)

تضع الآية حدًّا أخلاقيًّا للجدل: لا يكفي أن يملك الإنسان لسانًا حتى يملك حق الكلام في كل شيء.

قد يحاجّ المرء فيما عنده منه نصيب من العلم، ومع ذلك يكون مطالبًا بالعدل والأمانة. أما أن ينتقل إلى ما لا علم له به، ثم يتكلم بثقة الواثق، فذلك عدوان على الحقيقة.

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾.

كم من خصومة كان يمكن أن تنتهي لو عرف الإنسان شجاعة هذه الكلمات: لا أعلم!

لكن النفس تخاف أحيانًا أن يكون الاعتراف بالجهل نقصًا في مكانتها، فتملأ الفراغ بالظنون. وكلما اتسعت شهرتها صعب عليها أن تتوقف؛ لأنها تتخيل أن الناس ينتظرون منها جوابًا في كل مسألة.

أما القرآن فيجعل حد العلم جزءًا من أخلاق العالم. فمن تكلم فيما لا يعلم لم يزد الحقيقة بيانًا، بل أضاف إلى الجهل ضجيجًا.

ثم يعيد التوازن إلى أصله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

علم الله كامل، وعلم البشر محدود. وليست الجملة دعوةً إلى إلغاء النظر، بل إلى وضعه في مقامه. نبحث ونتعلم ونجتهد، لكننا لا نجعل ما نجهله تابعًا لما نشتهيه.

ولعل من أعظم صور الجهل أن يجهل الإنسان جهله؛ فيظن حدود معلوماته حدود الحقيقة، ويتعامل مع صوته المرتفع كأنه برهان.

## ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا

قال تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧)**

ينزع القرآن إبراهيم من احتكار الطوائف، لا ليجعله بلا هوية، بل ليعيد هويته إلى أصلها: ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

ليس الإسلام هنا دعوىً قوميةً مضادة، بل اسم الاستسلام لله الذي حمله الأنبياء جميعًا. ومحمد ﷺ لم يأت ليفصل البشرية عن إبراهيم، بل ليردها إلى ملته خالصةً من التحريف.

الانتماء الصادق إلى إبراهيم لا يثبت بشجرة نسب ولا بشعار، بل بمقدار ما في القلب من توحيده، وفي السلوك من استسلامه، وفي الموقف من شجاعته في مغادرة الباطل.

قد يكون الإنسان أقرب الناس إلى نبي نسبًا، وأبعدهم عنه منهجًا.

وقد يفصل بين رجل وآخر قرون وأعراق، ثم يكون أحدهما وليًّا للآخر بوحدة الإيمان.

فالقرابة الكبرى في ميزان الوحي قرابة الطريق.

**حنيفًا: الميل عن كل انحراف إلى الله**

الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، المستقيم على ملة إبراهيم. وكأن في الكلمة حركة قلب يترك الجهات الكثيرة ويتجه إلى جهة واحدة.

لم يكن إبراهيم محايدًا بين التوحيد والشرك، ولا جامعًا بينهما في صياغة دبلوماسية. حطم الأصنام، وفارق قومه، وأُلقي في النار، وهاجر إلى ربه.

كانت حنيفيته مكلفة.

وهذا يرد على من يتصور الكلمة السواء منطقةً رماديةً بلا مفاصلة. فالجامع الذي يدعو إليه القرآن ليس إخفاء الاختلاف، بل الرجوع إلى توحيد إبراهيم الذي رفض الشرك بكل صوره.

الوحدة على حساب الحقيقة ليست وحدة، بل هدنة بين أوهام.

والتسامح الذي يطلب من المؤمن أن ينكر يقينه ليس تسامحًا، بل إكراهًا ناعمًا.

يمكننا أن نعدل مع المخالف، ونحسن إليه، ونتعاون معه في الخير، ونحفظ حقه؛ لكن لا يلزم من ذلك أن نقول إن التناقضات كلها صحيحة. احترام الإنسان شيء، وتصحيح كل ما يعتقده شيء آخر.

ثم تنفي الآية عنه الشرك: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا يجوز أن يُستعمل اسم إبراهيم لتبرير عقيدة قضى حياته في مقاومتها. لقد كانت هويته أوضح من كل محاولة لاحقة لاحتكاره: حنيفًا لله، مسلمًا وجهه إليه، بريئًا من الشرك.

## إن أولى الناس بإبراهيم

قال تعالى: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨)**

الحاسم هو: ﴿اتَّبَعُوهُ﴾.

ليست الأولوية لمن أكثر الحديث عنه، بل لمن مشى في طريقه. فالتراث لا يُورث بالادعاء، وإنما يُورث بتحمل أمانته.

من أراد أن ينتسب إلى إبراهيم فليحمل معوله على أصنام عصره؛ وأولها الصنم المختبئ في نفسه.

وليكن قادرًا على أن يقول للباطل: لا، ولو قال له الناس جميعًا: نعم.

وليقدم أمر الله على دفء المألوف.

وليعرف أن الهجرة إلى الحق قد تبدأ بخروج داخلي من عادات الجماعة وأوهامها قبل أن تكون انتقالًا في المكان.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾،

يعيد الصلة بين محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام إلى أصلها. لم يكن النبي الخاتم قاطعًا لسلسلة التوحيد، بل وارثًا أمينًا لملتها، داعيًا إلى الرب نفسه، ومحطمًا للأصنام التي حطم أبو الأنبياء أصلها.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هذه هي العوض عن وحشة المفاصلة. من ترك ولاية الباطل لله، لم يبق بلا ولي. قد يخسر دفء الجموع، لكنه يدخل في ولاية الله.

وولاية الله ليست وعدًا بأن الطريق بلا ألم، فقد أُلقي إبراهيم في النار، وأُخرج النبي ﷺ من مكة، وأوذي المؤمنون. لكنها تعني أن الألم نفسه لا يخرج عن الرعاية، وأن العبد لا يُسلَّم إلى عدوه ولو وصل الأذى إلى جسده.

## ودّت طائفة لو يضلونكم

بعد فتح باب الكلمة السواء، تكشف السورة أن ليس كل من يدخل الحوار يريد الحق: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ **(٦٩)**

القرآن منصف؛ قال «طائفة»، ولم يعمم الحكم على الجميع. وهذه دقة أخلاقية في مقام الخصومة. فالعدل لا يسمح أن نحمل جماعةً كاملةً فعل بعض أفرادها.

لكن الإنصاف لا يعني السذاجة. هناك من يحاور ليهتدي أو ليفهم، وهناك من يستعمل الحوار مدخلًا لزعزعة اليقين. وقد يرفع شعار البحث وهو يحمل النتيجة مسبقًا.

لذلك يحتاج المؤمن إلى قلب مفتوح وبصيرة يقظة معًا. فلا يحول الحذر إلى ظلم، ولا يحول حسن الظن إلى تعطيل للتمييز.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾.

من يعمل لإطفاء نور الحق يبدأ بإطفاء شيء في داخله. كل شبهة يصنعها للآخرين تمر أولًا بقلبه، وكل كذبة يكررها تترك ظلمةً في روحه.

قد يؤثر في بعض الناس، لكن الخسارة الأعمق تقع فيه هو؛ لأنه يحول عقله من أداة طلب للحقيقة إلى آلة دفاع عن الباطل.

ثم قالت: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنهم يراقبون أثر خطتهم في الآخرين، ولا يشعرون بما تصنعه الخطة فيهم. يحسبون الضلال سهمًا خرج من أيديهم نحو خصومهم، ولا يرون أن أول جرح أحدثه كان في صدورهم.

فالشر لا يمر عبر صاحبه من غير أن يترك فيه أثرًا. ومن اعتاد تضليل الناس فقد شيئًا من قدرته على الاهتداء، حتى يصبح الباطل الذي صنعه لغيره سجنًا له.

## لِمَ تكفرون بآيات الله؟

قال تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)**

يأتي السؤال لا لطلب معلومة، بل لكشف التناقض: كيف يجتمع الكفر بالآيات مع الشهادة؟

لقد عرفوا من دلائل الوحي، ورأوا من موافقة الرسالة لأصل ما عندهم، ما كان ينبغي أن يقودهم إلى التصديق. لكن المعرفة وحدها لم تكفِ؛ لأن بين الشهادة والانقياد حاجزًا من الهوى.

قد يشهد العقل بالحق، ثم يرفض القلب لوازمه.

وقد يعرف الإنسان صدق فكرة، لكنه يخشى أن تهدم موقعه الاجتماعي.

وقد يدرك أن خصمه أصاب، ثم يمنعه الكبر من الاعتراف.

وهنا يتحول العلم من طريق نجاة إلى حجة على صاحبه. فالجاهل قد يضل لأنه لم يرَ، أما الذي يشهد ثم يكفر فقد رأى النور وأغلق نافذته بيده.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

إنها من أشد العبارات كشفًا للمسافة التي قد تقع داخل الإنسان نفسه: لسان أو علم يشهد، وإرادة تجحد. ليست الأزمة نقصًا في البراهين دائمًا؛ قد تكون عجزًا أخلاقيًّا عن دفع ثمن الحقيقة.

## لِمَ تلبسون الحق بالباطل؟

قال تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١)**

هناك طريقتان لمحاربة الحقيقة: أن تُكذبها صراحةً.

أو أن تخلطها بباطل حتى لا يعود الناس قادرين على تمييزها.

والطريقة الثانية أخطر؛ لأن الباطل الخالص يسهل انكشافه، أما الباطل الذي يرتدي قطعةً من الحق فيدخل إلى النفوس مطمئنًّا.

لا تنجح العملة المزيفة لأنها ورق لا يشبه المال، بل لأنها تشبهه بقدر يكفي لخداع الناس.

وكذلك الفكرة الباطلة؛ تحتاج إلى شيء من لغة الحق، أو نص مبتور، أو قيمة صحيحة توضع في غير موضعها، حتى تمر.

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾.

الكتمان ليس جهلًا، بل قرار أخلاقي بمنع المعرفة لأنها تهدد مصلحةً أو مكانة.

والأشد إيلامًا قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فليست المشكلة نقص دليل، بل مرض أمانة. قد يكون المرء خزانة معلومات وفقيرًا في الصدق، فيستعمل ما يعرف ليحجب ما ينبغي أن يُعرف.

والعالم حين يكتم لا يحرم غيره من معلومة فقط؛ بل يخون الموضع الذي وضعه الله فيه. لقد أُعطي العلم ليكون نافذة، فإذا به يحوله إلى ستار.

وهذا الخطر لا يخص أمةً مضت. كل من لبس الحق بالباطل، أو اقتطع النص ليخدم هوىً، أو أخفى ما يعلم خوفًا على موقعه، دخل في إشعاع التحذير.

## آمنوا أول النهار واكفروا آخره

تكشف السورة خطةً نفسيةً للإرباك: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)**

كان المقصود أن يظهروا الدخول في الإسلام أول النهار ثم يعلنوا الخروج منه آخره، فيتوهم عامة الناس أنهم اكتشفوا فيه عيبًا بعد فحص قريب.

إنها حرب على الثقة، لا على الدليل.

فالبشر يتأثرون بالحركة الاجتماعية: إذا رأوا إنسانًا يدخل ثم يخرج، ظنوا أن خروجه مبني على معرفة خفية. وقد لا يسألون عن حجته، بل تكفيهم صورة التراجع.

وهذا الأسلوب يتكرر بأشكال مختلفة في كل عصر: صناعة انطباع بأن أهل المعرفة يغادرون الحق، أو تضخيم حالات فردية حتى تبدو موجةً، أو استعمال الأسماء المؤثرة بدل البراهين.

لكن الحقيقة لا تُقاس بعدد الداخلين والخارجين. قد يدخل منافق لغرض، وقد يخرج ضعيف لشهوة، ويبقى الحق حقًّا.

الإيمان الذي يقوم على حركة الجماهير يسقط بحركتها. أما الإيمان الذي قام على بصيرة، فلا تغيره ضجة يوم.

وتأمل قولهم: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

لم يكن همهم أن يعرف المؤمنون الحقيقة، بل أن يرجعوا عن يقينهم. لقد حُددت النتيجة قبل أن تبدأ الخطة، ثم استُعمل الدخول والخروج المصطنعان لإنتاجها.

وهكذا ينتهي هذا القسم عند مشهد التلاعب بصورة الإيمان. وسيكشف القسم التالي الجدار النفسي الذي يقف خلف تلك الخطة: العصبية التي لا تثق إلا بمن تبع جماعتها، والحسد الذي يضيق بفضل الله إذا نزل خارج حدودها.

ويبدأ ذلك بقولهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

## تعالوا إلى كلمةٍ سواء

## القسم الثاني من الفصل السادس: الآيات من (٧٣) إلى (٩١)

## ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم

قال تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (٧٣)

هنا تنكشف العصبية المعرفية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

لم يعد السؤال: أقال حقًّا؟ بل: أهو منا؟

وعندما يصير الانتماء شرطًا لقبول الحقيقة، يتحول العقل إلى حارس حدود، لا باحث عن هدى.

يصدق الكاذب إذا كان من جماعته، ويكذب الصادق إذا جاء من خارجها. يلين لخطأ القريب، ويشتد على هفوة البعيد. وعندئذ لا تكون الجماعة وسيلةً لخدمة الحق، بل يصبح الحق أداةً لخدمة الجماعة.

فيرد القرآن: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾.

ليس الهدى ملكًا عرقيًّا ولا ميراثًا مغلقًا. لا تستطيع جماعة أن تحتجز نور الله داخل نسبها، ولا أن تمنع فضله أن ينتقل إلى أمة أخرى حين تضيع هي أمانته.

الهداية فضل، وليست امتيازًا سلاليًّا.

ومن ظن أنه يملكها لأنه وُلد في بيئة مؤمنة، فقد يضيعها وهو مطمئن إلى اسمها.

لقد خافوا أن يؤتى غيرهم مثل ما أوتوا، أو أن تقوم عليهم الحجة عند ربهم؛ فكأن الوحي في نظرهم ثروة قومية يخسرون إذا شاركهم الآخرون فيها.

لكن الحقيقة لا تضيق بكثرة المهتدين إليها. لا ينقص إيمانك إذا آمن غيرك، ولا يسلبك فضل الله إذا أكرم به أمةً أخرى. الذي يضيق هو القلب حين يتعامل مع الهداية بوصفها ملكيةً تمنحه التفوق، لا أمانةً تحمله مسؤولية البلاغ.

**قل إن الفضل بيد الله**

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

كانت نفوس تحسد انتقال النبوة الخاتمة إلى ذرية إسماعيل، كأنها تملك توزيع الاصطفاء. فجاءت الآية ترد الأمر إلى صاحبه: ﴿الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾.

وليس المراد باليد جارحةً كجوارح المخلوقين؛ بل نثبت لله ما أثبته لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف، مع القطع بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. والمعنى هنا أن الفضل ملكه وتحت سلطانه، يضعه حيث يشاء بحكمة وعلم.

الحسد اعتراض خفي على توزيع الله.

يرى الحاسد النعمة في يد غيره، فيتصرف في شعوره كأنه أدرى بموضعها من الله. ولو امتلأ يقينه بأن الله واسع عليم، لرأى أن عطاء غيره لا يضيّق خزائن ربه، وأن وراء التفاوت حكمةً قد تخفى عليه.

واسع؛ فلا تنفد عطاياه.

عليم؛ فلا يضع الفضل عبثًا.

وما يحتاجه القلب ليس أن يعرف أسرار كل توزيع، بل أن يعرف صفات الموزع.

## يختص برحمته من يشاء

قال تعالى: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (٧٤)

الاختصاص لا يعني أن الرحمة تقع مصادفةً بلا حكمة؛ فالآية السابقة قررت أنه واسع عليم. إنه يعلم مواضع رسالته، ويعلم من يحمل الأمانة، ويضع فضله حيث تقتضي حكمته.

لكن الإنسان يريد أحيانًا أن يجعل الاختيار الإلهي تابعًا لمقاييسه: لهذه السلالة وحدها، أو لهذه الأرض، أو لهذه الطبقة، أو لهذه الصورة التي ألفها.

فإذا جاء الفضل من خارج توقعه، لم يفرح بالهداية، بل حزن لأن اسمه لم يكن في مركزها.

إن من علامات سلامة القلب أن يفرح بفضل الله أينما ظهر. فإذا رأى علمًا عند غيره انتفع به، وإذا رأى صلاحًا شكره، وإذا رأى نعمةً دعا لصاحبها بالبركة. لا يتعامل مع عطايا الله كأنها انتقاص من ذاته.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

فضله أعظم من أن تحيط به حدود الجماعات، وأوسع من أن تستنفده أمة، وأغنى من أن يصبح عطاء واحد فيه مانعًا لعطاء آخر.

## الأمانة لا تُقاس بالهوية

ثم يضرب القرآن مثالًا للإنصاف: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)**

يا لعدل القرآن!

بعد أن كشف التحريف والكتمان والمكر عند طائفة، لم يمنعه الخلاف العقدي من الاعتراف بأن من أهل الكتاب أمناء، قد تأتمن أحدهم على قنطار فيؤده إليك.

وفيهم من يخون في دينار.

فالناس لا يختصرون في تصنيف واحد. قد يخالفك إنسان في العقيدة ويصدقك في المال، وقد يشاركك الاسم الديني ويخونك. والخلاف لا يبيح تزوير الواقع.

إن من أفسد الأخلاق أن تجعل هوية جماعتك شهادة براءة مسبقة، وهوية غيرك حكم إدانة مسبقًا. القرآن نفسه، وهو كتاب الهداية الفاصلة، لم يفعل ذلك.

القسط يقتضي أن تقول عن الأمين: أمين، ولو خالفك.

وعن الخائن: خائن، ولو رفع شعارك.

فالحق لا يعرف المحاباة.

## ليس علينا في الأميين سبيل

ثم يكشف القرآن منطق التبرير: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

صنعوا أخلاقًا مزدوجة: الأمانة واجبة داخل الجماعة، أما من هم خارجها فلا حرمة لأموالهم.

وهنا يتحول الدين من ميزان للعدل إلى أداة امتياز. لا يعود الإنسان يسأل: ماذا أمر الله؟ بل: من هو الطرف الذي أمامي؟ فإن كان من جماعتي طبقت الأخلاق، وإن كان من غيرها عطلتها.

لكن الخيانة لا تصير أمانةً بتغير هوية الضحية، والظلم لا يصير عدلًا لأنه وقع على مخالف.

إن الله رب الجميع، ولذلك لا يملك المؤمن أن يظلم أحدًا باسمه.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أخطر مراحل الانحراف أن ينسب الإنسان مصلحته إلى الله. لا يكتفي بأن يظلم، بل يصنع للظلم فتوى؛ ولا يكتفي بأن يخون، بل يقنع نفسه أن السماء أعفته من الأمانة.

عندئذ لا يكون الوحي هو الذي يحاكم السلوك، بل يصبح السلوك هو الذي يعيد تشكيل الوحي.

## بلى من أوفى بعهده واتقى

يأتي الرد: **﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)**

المعيار ليس العرق، ولا الشعار، ولا قرب الطرف منك؛ بل الوفاء والتقوى.

والعهد لا تتغير حرمته بتغير هوية صاحبه. إذا أعطيت كلمتك فقد أدخلت الله شاهدًا على ضميرك، فلا تجعل اختلافك مع الآخر ترخيصًا لنقضها.

والتقوى هنا تظهر في السوق والعقد والوديعة، لا في المحراب وحده. قد يطيل الإنسان صلاته، ثم يخون أمانةً، فكأن عبادته لم تصل بعد إلى موضع الامتحان.

ليست التقوى انفعالًا روحيًّا خاصًّا، بل أن يعلم خصمك أنه آمن على حقه عندك؛ لأنك تخاف الله فيه، وإن لم تحبه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

لقد طلب بعضهم مكانةً عند الله بالانتساب، فردت الآية المكانة إلى العمل القلبي والسلوكي: وفاء وتقوى. فمحبة الله لا تُنال ببطاقة الهوية، بل بصدق العبودية.

## الذين يشترون بعهد الله ثمنًا قليلًا

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (٧٧)

كل ما يؤخذ مقابل بيع العهد قليل، ولو كان قناطير.

لماذا هو قليل؟

لأنك دفعت في مقابله شيئًا من صلتك بالله. وما من مكسب زائل يساوي خسارة الأمانة.

قد يبيع الإنسان الحقيقة ليحفظ منصبًا.

أو يشهد زورًا لينصر قريبًا.

أو يكتم علمًا حتى لا يغضب جماعته.

أو يوقع عهدًا وهو ينوي الالتفاف عليه.

قد يبدو أنه ربح في اللحظة، لكن الميزان القرآني يضع أمام المكسب نهايته: ثمن قليل، وخسارة في الآخرة.

ثم يقول: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عقوبة تقابل جريمتهم من جنس معناها: استخفوا بكلام الله وعهده، فحُرموا كلام التكريم. لوّثوا أماناتهم، فلا يزكيهم. طلبوا من الناس نظرًا ومكانةً بثمن الكذب، فحُرموا نظر الرحمة والرضا.

وما أفدح أن يربح الإنسان أعين الناس، ثم يخسر نظر الله إليه نظر رحمة يوم القيامة.

ونثبت ما جاء من كلام الله ونظره على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه بصفات المخلوقين ولا تكييف؛ فليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

## يلوون ألسنتهم بالكتاب

قال تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨)**

التحريف قد يقع في النص، وقد يقع في الأداء الذي يوهم السامع أن كلام البشر من الوحي. إنهم يلوون ألسنتهم، يغيرون وجه العبارة، أو يقرؤون الباطل بهيئة المقدس حتى يختلط على الناس.

وفي كل عصر توجد ألسنة تتقن نبرة الحقيقة أكثر مما تلتزم حقيقتها.

تستعمل لغة الوحي لتسويق الهوى.

وتقتبس النص من موضعه لتمنح مشروعًا بشريًّا حصانةً دينية.

وتتكلم بخشوع مصطنع كي يمر الكذب في ثوب الورع.

لهذا لا يكفي أن تسمع آيةً في خطاب؛ ينبغي أن تسأل: هل وُضعت في سياقها؟ وهل تحمل النتيجة التي نُسبت إليها؟ أم صارت مجرد زخرفة مقدسة فوق فكرة نشأت من مكان آخر؟

القرآن لا يحمينا من الذين ينكرونه فقط، بل من الذين يستعملونه استعمالًا فاسدًا.

لقد كررت الآية النفي: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾.

﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

لأن هيئة التلاوة لا تحول كلام البشر إلى وحي، وادعاء النسبة إلى الله لا يصنع لها حقيقة. فالقداسة لا تنشأ من نبرة الصوت، بل من صحة المصدر.

## ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب

قال تعالى: **﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩)**

النبوة الحقيقية لا تقود إلى عبادة النبي. كلما ازداد الرسول قربًا من الله، ازداد إعلانًا لعبوديته.

فليس من المعقول أن يختاره الله ليحرر الناس من الشرك، ثم يدعوهم إلى الشرك به.

ولا أن يعطيه الكتاب ليقف هو حاجزًا بين الكتاب وربه.

وهذا رد على كل غلو في الأنبياء، كما أنه معيار لكل قيادة دينية: هل تقود الناس إلى الله، أم تجمعهم حول ذاتها؟ هل تفرح باستقلال ضمائرهم على الحق، أم تخشى أن يفكروا خارج سلطانها؟

القائد الرباني لا يريد أتباعًا يذوبون فيه؛ يريد عبادًا لله، يستطيعون أن يقولوا له إذا أخطأ: أخطأت.

## ولكن كونوا ربانيين

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

الرباني هو المنسوب إلى الرب: علمًا وعبادةً وتربيةً وحكمة. لا يحبس الناس عند شخصه، بل يربطهم بالله، ويربيهم بصغار العلم قبل كباره، ويجعل المعرفة طريقًا للتحول لا مادةً للزينة.

قال: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ و ﴿تَدْرُسُونَ﴾.

فلا ربانية بلا اتصال بالكتاب تعليمًا ودراسة. لكنها ليست كثرة معلومات فقط؛ فقد ذكرت السورة أناسًا أوتوا الكتاب ثم حرّفوا وكتموا. الفارق أن العلم الرباني يعيد تشكيل صاحبه.

كل آية يتعلمها تزيد أمانته.

وكل حكم يدرسه يزيد خوفه من الظلم.

وكل باب يفتحه في المعرفة يفتح في نفسه بابًا للتواضع.

أما إذا ازداد علمه وازداد معه الكبر، فقد حمل الكتاب في ذاكرته ولم يسمح له أن يدخل قلبه.

العلم الذي لا يُربّي صاحبه قد يصنع منه حجابًا سميكًا؛ لأنه يمنحه القدرة على تبرير نفسه بلغة لا يملكها الجاهل.

## ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا

قال تعالى: **﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٨٠)**

إذا كان اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا باطلًا، وهم أطهر الخلق، فكيف بمن دونهم؟

لا عالم، ولا ولي، ولا قائد، ولا نسب مقدس يملك أن يرتفع فوق العبودية.

إن شرف الصالحين أنهم أحسنوا العبودية، لا أنهم خرجوا منها. ومن أراد تكريمهم فليقتدِ بعبوديتهم، لا أن يجعلهم حجابًا بينه وبين الله.

ثم يأتي السؤال القاطع:

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

فالعبادة لغير الله ليست درجةً أعلى من المحبة، بل خروج عن أصل الإسلام. ولا تتحول حقيقتها لأن المعبود رجل صالح.

إن النبي الذي يدعو الناس إلى عبادة نفسه يكون هادمًا للرسالة التي حملها، ولذلك نفى القرآن ذلك نفيًا قاطعًا. فالنبوة والربانية لا تصنعان عروشًا بشرية، بل تهدمانها.

## ميثاق الأنبياء ووحدة الرسالة

قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)**

تكشف الآية أن الأنبياء ليسوا مشاريع متنافسةً، يتشبث كل واحد منهم بأتباعه ويرفض من يأتي بعده. لقد جمعهم الله على ميثاق واحد: إذا جاء رسول مصدق لما معهم، وجب الإيمان به ونصرته.

فالوحي لا يناقض الوحي، والرسول الصادق لا يخشى رسولًا صادقًا يأتي بعده. إنهم جميعًا يشيرون إلى الله، ولذلك لا تتحول رسالاتهم في حياتهم إلى عصبيات مغلقة.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾.

ليس المطلوب الاعتراف البارد فحسب، بل الإيمان والنصرة. فحين يظهر الحق، لا يكفي أن يقول الإنسان في باطنه: أعرفه؛ ثم يتركه وحيدًا لأن نصرته مكلفة.

وسؤال الله: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾،

يكشف ثقل الميثاق. إنه إقرار واع، لا كلمة عابرة؛ وأمانة تمتد من الأنبياء إلى أممهم، فلا يجوز لأتباع رسول أن يجعلوا محبتهم له سببًا للكفر برسول آخر.

ثم قال: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

وأي ميثاق أعظم من أن يكون الله شاهدًا عليه! لا تستطيع أمة أن تمحو هذا العهد من الحقيقة، ولو غطته قرون من العصبية والتأويل.

**فمن تولى بعد ذلك**

قال تعالى: **﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢)**

التولي بعد الميثاق ليس اختلافًا بريئًا؛ إنه خروج عن الطاعة التي جمعت موكب النبوة كله.

ولهذا سماهم: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾.

والفسق خروج؛ كالثمرة حين تخرج من قشرها. لقد خرجوا عن عهد الأنبياء وهم يزعمون الانتساب إليهم، وأصبح الاسم الذي يحملونه منفصلًا عن الطريق الذي سار فيه النبي.

قد يكثر الإنسان من تعظيم رسول، ثم يخالف ميثاقه. وعندئذ لا يكون التعظيم وفاءً، بل ستارًا للعصبية.

فالوفاء لموسى يقتضي الإيمان بمن بشّر به وصدق رسالته، والوفاء بعيسى يقتضي اتباع دعوته إلى الله والإيمان بالرسول الذي جاء مصدقًا لأصل الوحي.

## أفغير دين الله يبغون؟

قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ **(٨٣)**

بعد أن بيّنت وحدة ميثاق الأنبياء، تسأل السورة: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟

ليس الدين أهواءً تصنعها الجماعات، بل استسلام لله. وقد أسلم له الوجود كله: خضع لأمره وتقديره، فلا يخرج شيء عن ملكه.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

المؤمن يسلم طوعًا، فيوافق اختياره حقيقة وجوده. أما الكافر فيتمرد في دائرة التكليف، لكنه لا يخرج عن سلطان الله؛ يولد في الوقت الذي لم يختره، ويمرض بغير إذنه، ويشيخ ولو كره، ويموت حين يأتي أجله.

إنه يستطيع أن يرفض السجود بإرادته، لكنه لا يستطيع أن يمنع قلبه من الخضوع لقانون النبض الذي وضعه الله.

وهنا تظهر مأساة الكفر: أن يعيش الإنسان في كون مسلم لله، وجسده نفسه خاضع لله، ثم يحاول قلبه أن يسير عكس الحقيقة الكبرى.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

البداية منه، والملك له، والنهاية إليه. فأين يمضي من طلب دينًا يخرجه عن سلطانه؟

## لا نفرق بين أحد منهم

قال تعالى: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (٨٤)

هذا هو الجواب العملي عن ميثاق الأنبياء: إيمان يجمع، لا عصبية تفرّق.

يؤمن المسلم بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ويؤمن بموسى وعيسى وسائر النبيين. لا يحتاج إلى انتقاص نبي حتى يعظم نبيه؛ لأن النور الذي جاء به الجميع من رب واحد.

﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

هذا سر وحدتهم. اختلفت الأزمنة وبعض الشرائع، لكن الرب واحد، ومصدر الوحي واحد، وأصل الدعوة واحد.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض. أما التفاضل الذي أثبته الله بينهم فحق، لكنه لا يتحول إلى مدخل للكفر بأحد منهم.

ثم يقول المؤمنون: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

لم يقل: نحن للأنبياء عابدون؛ بل لله مسلمون، وبذلك أحبوا الأنبياء جميعًا. فالاستسلام لله هو الذي يمنح كل رسول مقامه الصحيح، ويحمي القلب من الجفاء والغلو معًا.

## ومن يبتغ غير الإسلام دينًا

قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ **(٨٥)**

الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد لما أرسل به رسله، وقد ختم الله الرسالات برسالة محمد ﷺ؛ فلا يكون الاستسلام لله بعد بعثته مع رفض رسوله الأخير.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

ليست القضية أن يصنع الإنسان طريقًا روحيًّا يرضيه، ثم يطالب الله بقبوله. الدين لله، وهو الذي يبين لعباده الطريق الذي يرضاه.

قد يكون الإنسان مخلصًا لفكرة باطلة، لكن الإخلاص وحده لا يحول الباطل حقًّا. فالسائر بإخلاص في طريق خاطئ يبتعد بإخلاصه كلما أسرع.

ولا يعني اليقين بالحق ظلم المخالف أو إكراهه؛ بل يعني أن نعدل معه ونحسن إليه، من غير أن نزعم أن الطرق المتناقضة تنتهي كلها إلى النتيجة نفسها.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

الخسارة هناك ليست فقد شيء خارج النفس فقط، بل فقد المصير الذي خُلق الإنسان له، بعد أن كانت دلائل الطريق بين يديه.

**كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم؟**

قال تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ **(٨٦)**

ليس الحديث عن إنسان لم يسمع، بل عن قوم آمنوا، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءتهم البينات، ثم اختاروا الكفر.

تتراكم في الآية طبقات الحجة:

إيمان سابق.

وشهادة بالحق.

وبينات جاءت من عند الله.

ثم كفر بعد ذلك كله.

ولهذا وصفهم بالظلم؛ فقد وضعوا الجحود موضع المعرفة، وردوا النور بعد أن أبصروه.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾؟

ليس المعنى أن باب التوبة مغلق، فالآيات ستفتحه بعد قليل، وإنما يكشف السؤال فداحة الحالة ما داموا مصرين عليها. كيف يطلب الهداية من يطرد أسبابها، ويكذب بما شهد أنه حق، ويحطم المصباح ثم يشكو الظلام؟

والله لا يظلمهم بمنع الهدى؛ لكنهم ظلموا أنفسهم حين جعلوا المعرفة طريقًا إلى الجحود بدل الانقياد.

**لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**

قال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ **(٨٧)**

اللعنة إبعاد عن الرحمة. وأي خسارة أشد من أن يبتعد الإنسان عن المصدر الذي لا حياة لقلبه ولا نجاة لآخرته إلا به؟

لقد خرجوا عن ميثاق الأنبياء، فجاء الجزاء بإبعادهم عن الرحمة ما داموا مقيمين على كفرهم.

وتجتمع عليهم لعنة الملائكة والناس؛ لأن جريمتهم لم تبق شأنًا فرديًّا. من عرف الحق ثم كفر به قد يصير باب فتنة لغيره، ويمنح الشبهة قوةً اجتماعية؛ إذ يقول الناس: لو لم يكتشف فيه باطلًا لما تركه.

لكن كثرة اللاعنين لا تضيف إلى حكم الله شيئًا؛ إنما تكشف مقدار الانفصال الذي صنعوه بينهم وبين موكب الطاعة كله.

## لا يخفف عنهم العذاب

قال تعالى: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٨)**

في الدنيا قد يشتد الألم ثم يخف، ويعبر الليل ثم يطلع الصباح. أما هذا المصير فلا تخفيف فيه لمن مات على كفره، ولا إمهال بعد أن انتهى زمن الاختيار.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

كانوا في الدنيا داخل زمن الإنظار؛ تمتد بهم الأعمار، وتأتيهم البينات، ويفتح لهم باب الرجوع. لكن الإمهال لم يكن إهمالًا، ولم يكن طول العمر دليلًا على أن الحساب لن يأتي.

كل يوم يمر بالإنسان قبل الموت هو جزء من الإنظار، ومساحة يستطيع فيها أن يعيد وجهته. فإذا انتهى الأجل، انتهى زمن الزرع، ولم يبق إلا الحصاد.

## إلا الذين تابوا وأصلحوا

ثم، بعد هذا الوعيد الشديد، ينفتح باب الرحمة: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٨٩)**

يا لسعة الباب!

كفروا بعد إيمان، وشهدوا أن الرسول حق، وجاءتهم البينات، ومع ذلك لم يقل القرآن إن الرجوع مستحيل.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

التوبة تستطيع، بإذن الله، أن تقطع الطريق الذي بدا كأنه يمضي حتمًا إلى اللعنة والعذاب.

لكن الآية لم تقل: تابوا فقط، بل: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾.

لأن من أفسد بالشبهة يحتاج إلى إصلاح ما أفسد، ومن أضل غيره لا يكفيه أن يغير موقفه في الخفاء إذا استطاع أن يبين الحق، ومن هدم في الناس ثقةً ينبغي أن يبذل في ترميمها.

التوبة رجوع داخلي، والإصلاح أثر الرجوع في الخارج.

ثم جاء الاسمان: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يغفر الماضي مهما اسود إذا صدقت التوبة، ويرحم العائد فيعينه على بناء ما تهدم. ليست الرحمة مجرد محو للسجل، بل عناية تبدأ بالعبد من جديد.

## كفرٌ يزداد ولا يريد الرجوع

قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (٩٠)**

الآية السابقة فتحت باب التوبة، فلا يمكن أن يكون المراد هنا رد التوبة الصادقة التي جاءت في وقتها؛ وإنما الوعيد لمن استمر في الكفر وزاد فيه، أو أظهر توبةً لا يترك معها طريقه، أو أخّر الرجوع حتى لم يعد رجوعًا معتبرًا.

﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾.

الانحراف لا يبقى دائمًا عند درجته الأولى. كلما كرر الإنسان الجحود احتاج إلى كذبة جديدة تحمي الكذبة السابقة، وإلى قسوة أكبر حتى يسكت صوت الفطرة.

في البداية قد يتردد، ثم يصبح التردد يقينًا مضادًّا، ثم يتحول الدفاع عن خطئه إلى مشروع يصد به غيره.

وهكذا يزداد الكفر؛ لا لأن الدليل ضعف، بل لأن القلب بنى حول نفسه طبقات من الإصرار.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

لم يضلوا الطريق مرةً ثم وقفوا، بل جعلوا الضلال وجهةً، وواصلوا الابتعاد حتى صار الرجوع كلمةً على اللسان لا حركةً حقيقيةً نحو الله.

## حين لا يفتدي الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبًا

قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (٩١)**

تعود السورة إلى الذهب الذي ذكرته في فتنة الشهوات: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾.

هناك كان الذهب متاعًا يفتن العين، وهنا تفترض الآية أن يملك الإنسان ملء الأرض منه، ثم تعلن أن هذا كله لا يفتديه.

ما أشد انقلاب الميزان!

في الدنيا قد يفتح الذهب الأبواب، ويشتري النفوذ، ويخفف العقوبات، ويجعل صاحبه يتوهم أن لكل مأزق ثمنًا. أما في الآخرة فلا سوق للمساومة، ولا ثروة تعيد زمن التوبة بعد انقضائه.

﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾.

حتى لو جاء راغبًا في بذله كله بعدما كان يبخل ببعضه، فلن يقبل منه. ليست المشكلة أن مقدار الفداء قليل، بل أن زمن العمل انتهى، وأن الإيمان لا يُشترى بعد الموت بالذهب الذي عُبد من دون الله في الحياة.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

لا المال ينصر، ولا الجماعة، ولا النسب، ولا الذين اتُّخذوا أربابًا من دون الله. تسقط الحصانات كلها، ويبقى الإنسان أمام ما اختار.

**الحوار الذي لا يفقد مركزه**

تعلمنا هذه الآيات أن الحوار القرآني يقوم على أصول ثلاثة:

أولها: العدل في وصف المخالف؛ فلا نعمم جريمة فريق على الجميع، ولا ننكر الأمانة حيث وُجدت.

وثانيها: الوضوح في أصل العقيدة؛ فلا نخفي التوحيد كي نصنع اتفاقًا مريحًا.

وثالثها: تحرير البشر جميعًا من الربوبية البشرية؛ فلا ندعوهم إلى الخروج من سلطان رجال دينهم ليدخلوا في سلطان رجال ديننا.

نحن لا نقول لهم: اتخذونا أربابًا بدل أربابكم.

بل نقول: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

هذه الكلمة لا تمنح المسلم امتيازًا ذاتيًّا على الناس، بل تحمله مسؤوليةً أشد: أن يكون أول الخاضعين لله، وأبعدهم عن الظلم، وأصدقهم في العهد.

وإلا صار يدعو بلسانه إلى كلمة سواء، بينما يقيم في سلوكه عروشًا صغيرةً لنفسه.

لقد بدأ الفصل بدعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ثم كشف كيف يفسد الحوار حين تدخل العصبية والحسد والكتمان وشراء العهد بثمن قليل. ورد مقام الأنبياء إلى العبودية، وجمع رسالاتهم على ميثاق واحد، وأعلن أن الدين كله استسلام لله.

ثم انتهى إلى مشهد لا يستطيع فيه الذهب كله أن ينقذ صاحبه إذا مات على الكفر.

وكأن السورة تقول: لا تبع العهد بشيء؛ فكل ما تأخذه ثمنًا له قليل، ولو بلغ ملء الأرض ذهبًا.

بعد أن حررت السورة العقيدة من احتكار الطوائف، ستنقل المؤمن إلى امتحان شديد القرب من قلبه: المال الذي يحبه.

فالإنسان قد يعلن أن الله وحده رب، ثم يبقى في داخله شيء ينازع مقتضى هذه العبودية. وقد يتكلم عن البذل، لكنه لا يعطي إلا ما فقد قيمته عنده. أما القرآن فيريد أن يبلغ إلى الموضع الذي تختبئ فيه المحبة: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وهنا لا يعود الإيمان مناظرةً مع أهل الكتاب، بل مناظرةً داخل النفس.

ماذا تحب؟

وأي موضع يحتله هذا المحبوب فيك؟

وهل تستطيع أن تضعه في طريق الله حين يدعوك البر إلى ذلك؟

هذا ما يفتح باب الفصل السابع:

**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.**

## الفصل السابع

## لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

## القسم الثاني: الآيات من (٩٨) إلى (١٠١)

بعد أن ردّت السورة دعوى التحريم إلى ميزان الوحي، وأعادت الناس إلى ملة إبراهيم والبيت الذي بناه، التفتت إلى أهل الكتاب بسؤالين متتابعين.

الأول يكشف موقفهم من آيات الله.

والثاني يكشف محاولتهم قطع الطريق بين الناس وبين تلك الآيات.

فليس الباطل قانعًا دائمًا بأن يبقى صاحبه عليه؛ قد يتحول إلى مشروع يصد الآخرين عن الحق، حتى لا تهتز مكانته إذا اتسعت دائرة الهداية.

### والله شهيد على ما تعملون

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ**﴾ **(٩٨)**

يتكرر السؤال: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؟

إنه سؤال يحاصر التناقض ولا يتركه يختبئ داخل الأسماء. أنتم أهل كتاب، تنتسبون إلى وحي جاء من عند الله؛ فكيف تصير هذه الصلة نفسها حجابًا يمنعكم من الإيمان بآيات جديدة أنزلها الله؟

كان ينبغي للكتاب السابق أن يكون نافذةً يتعرفون من خلالها إلى الوحي، فإذا بالتعصب يحوله إلى جدار. بدل أن يقودهم ما عرفوه إلى التصديق بما صدقه، جعلوا انتماءهم إليه سببًا لرفض ما جاء بعده.

وهذا انقلاب يقع كلما تحولت النعمة إلى هوية جامدة.

قد يمنح الله الإنسان علمًا ليهتدي به، فيجعله وسيلةً للاستعلاء.

ويمنحه تاريخًا صالحًا ليواصل أمانته، فيحوله إلى سبب للركون.

ويمنحه جماعةً تعينه على الحق، فيجعل الجماعة حاجزًا يمنعه من مراجعة نفسه.

المشكلة ليست في الكتاب، بل في القلب الذي صار يحب امتلاكه أكثر مما يحب الانقياد إليه.

ثم تختم الآية:

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

قد يستطيع الإنسان أن يصوغ لكفره تفسيرًا يرضي جماعته، وأن يقدم إعراضه في صورة دفاع عن التراث، لكن الله شهيد على العمل وعلى الدافع الذي وراءه.

يعلم من اشتبه عليه الدليل فبحث عنه بصدق.

ويعلم من تبين له الحق، ثم خاف أن يفقد به سلطانه.

ويعلم من يتكلم باسم حماية الدين، بينما يحمي في الحقيقة موقعه الذي بناه داخله.

وشهادة الله ليست شهادة مراقب بعيد؛ فهو محيط بالظاهر والباطن، لا تخفى عليه حركة ولا نية. وستصير هذه الشهادة حكمًا حين يقف العامل أمام ما عمل.

فإذا عجزت عن خداع ضميرك مرة، فقد تستطيع إسكات صوته بالتكرار؛ لكنك لا تستطيع أن تغير حقيقة الفعل في علم الله.

## لِمَ تصدون عن سبيل الله؟

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ **(٩٩)**

في الآية السابقة كان الحديث عن كفرهم هم، وهنا ينتقل إلى فعل أشد خطرًا:

﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾؟

لم يكتفوا بأن يغلقوا الباب على أنفسهم، بل وقفوا عند الطريق يريدون منع الآخرين من العبور.

وهذا يكشف أن بعض الناس لا يزعجهم الحق لأنه لم يقنعهم فقط، بل لأنه أقنع غيرهم. إن انتشار الهداية يهدد البنية التي يستمدون منها المكانة؛ ولذلك يحاولون تشويه الطريق حتى لا يسلكه أحد.

قالت الآية:

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الطريق لله، وليس ملكًا لجماعة بشرية. فلا يملك أحد أن يضع عليه رسوم العبور، أو يمنع عنه من لا يوافق هواه، أو يحرف معالمه حتى ينتهي السائرون إلى سلطانه بدلًا من الله.

قد يصد الإنسان عن سبيل الله بالتخويف.

وقد يصد بالتشكيك المستمر.

وقد يصد بتشويه صورة المؤمنين، حتى تصبح أخطاؤهم البشرية حجةً على الوحي.

وقد يصد بأن يقدم الدين للناس في صورة قسوة وغلظة وظلم، ثم يقول: هذه هي سبيل الله.

ومن أشد صور الصد أن يتحول المنتسب إلى الدين نفسه إلى حاجز ينفّر الناس منه بسوء خلقه واستبداده. إنه لا ينكر الآيات بلسانه، لكنه يحجب جمالها بسلوكه.

## تبغونها عوجًا

قال تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

لم يستطيعوا أن يمحوا السبيل، فحاولوا أن يرسموها للناس معوجةً.

يبغون لها العوج؛ أي يطلبون تشويهها، وإظهار المستقيم في صورة المنحرف، والمنحرف في صورة المستقيم.

الحق في ذاته مستقيم، لكن الصورة التي يصنعها خصومه عنه قد تكون شديدة الاعوجاج. يقتطعون منه حكمًا بلا سياقه، ويخفون رحمته، ويضخمون خطأ بعض أتباعه، ثم يعرضون الصورة المصنوعة ويقولون للناس: هذا هو الدين.

ولا ينجو أهل الحق من المسؤولية بمجرد أن الخصم يشوههم؛ فقد يمنحونه من أخطائهم مادةً حقيقية يضيف إليها أكاذيبه. لذلك يحتاج المسلم إلى أن يحرس صورة السبيل بسلوكه كما يحرس بيانها بلسانه.

فلا يكفي أن تقول إن الإسلام عدل، ثم تظلم.

ولا أن تقول إنه رحمة، ثم تقسو على الضعيف.

ولا أن تقول إنه يحرر البشر من الربوبية البشرية، ثم تطلب من الناس طاعةً لا تراجعك فيها.

من عاش نقيض ما يدعو إليه، أعان خصمه على أن يبغي السبيل عوجًا.

## وأنتم شهداء

قال تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾.

ليست الجريمة واقعةً في ظلمة الجهل الكامل؛ لديهم من العلم والشهادة ما يكشف لهم استقامة الطريق.

قد يشهد الإنسان للحق بمعرفته، ثم يقف ضده بمصلحته. وهنا تبلغ الأزمة الأخلاقية ذروتها: لا يعود العقل جاهلًا، بل يصبح أسيرًا لما يريد القلب الاحتفاظ به.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

في الآية السابقة: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ﴾.

وهنا: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ﴾.

إنها إحاطة تقطع أوهام الإفلات. فالذي يعمل في الخفاء قد يظن أن مرور الزمن سيجعل جريمته جزءًا من النسيان، لكن الزمن لا يمحو شيئًا من علم الله.

قد يغفل الناس عن حملة التشويه، وينسون من صنع الشبهة الأولى، ثم تبقى آثارها تتحرك بين الأجيال. أما الله فلا يغفل عن الفعل الأول، ولا عن كل قلب وصل إليه أثره.

وما دام الله غير غافل، فليس على المؤمن أن يصاب بالهلع أمام كل مكر. عليه أن يبين، وأن يصلح صورته، وأن يأخذ بالأسباب؛ ثم يعلم أن المعركة لا تجري بعيدًا عن عين الله.

## الطاعة التي تهدم ما بناه الإيمان

بعد مخاطبة أهل الكتاب، التفت الخطاب إلى المؤمنين: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠)**

ناداهم بوصف الإيمان قبل أن يحذرهم من فقده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

كأن النداء يوقظ فيهم النعمة التي ينبغي أن يحرسوها. أنتم الذين آمنتم بعد الجاهلية، وعرفتم التوحيد بعد الشرك، وجمعكم الله بعد التفرق؛ فلا تسلموا هذه النعمة إلى من يريد ردكم عنها.

لم تقل الآية: إن تسمعوا منهم؛ فالسماع وحده لا يوجب الضلال، وقد يسمع المؤمن الحجة المخالفة فيردها بعلم. إنما قالت: ﴿إِن تُطِيعُوا﴾.

فالخطر حين تنتقل الكلمة من مساحة السماع والفحص إلى موضع القيادة. الطاعة تجعل الجهة المتبوعة قادرةً على توجيه القرار، وإذا كان مقصد فريق منها أن يرد المؤمنين عن دينهم، فإن تسليم القيادة له يجعل النتيجة قريبة.

والقرآن دقيق مرةً أخرى: ﴿فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

لم يعمم، بل حدد فريقًا. فليس التحذير من كل فرد بسبب هويته، وإنما من الفريق الذي ظهر قصده في الصد والإضلال.

وهذه الدقة تمنع المؤمن من طرفين:

من السذاجة التي تتجاهل العداوة القائمة.

ومن الظلم الذي يجعل هوية جماعة كاملة جريمةً لا تمييز فيها.

**يردوكم بعد إيمانكم كافرين**

قال تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾.

الرد حركة إلى الخلف. لقد قطع المؤمن طريقًا من الظلمة إلى النور، ثم يأتي من يريد إعادته إلى الموضع الذي خرج منه.

والعودة بعد الإيمان ليست دائمًا إعلانًا صريحًا للكفر في لحظة واحدة. قد تبدأ بتفكيك الثقة في الوحي.

ثم بجعل المحكمات موضع شك دائم.

ثم بتقديم الشهوة في صورة حرية.

ثم بجعل الانتماء إلى الدين مصدر خجل.

ثم يستيقظ الإنسان بعد مسافة طويلة، فيجد أنه عاد إلى الوراء وهو يظن أنه يتقدم.

ولهذا يحتاج الإيمان إلى حراسة معرفية وروحية. ليس كل من وصل إلى الطريق صار في مأمن من الانحراف، وقد دعا الراسخون من قبل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

يتكرر معنى «بعد» في السورة؛ لأن النعمة بعد حصولها تحتاج إلى شكر وصيانة. قد يهتدي القلب، ثم يدخله الزيغ. وقد تجتمع الأمة، ثم تعود إليها عصبيات الجاهلية. وقد تنتصر، ثم تفتح الغنيمة في صفها ثغرة الهزيمة.

## وكيف تكفرون؟

قال تعالى: **﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١)**

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾؟

ليس السؤال نفيًا لقدرتهم على الانحراف؛ فالإنسان يملك الاختيار، وإنما هو تعجيب من وقوع الكفر مع اجتماع أسباب الثبات.

آيات الله تتلى عليهم.

ورسوله ﷺ فيهم.

الوحي حاضر، والبيان النبوي حاضر، والنموذج الذي يجسد الآيات يمشي بينهم؛ فكيف يتركون النور ويعودون إلى الظلمة؟

إنها تربية على معرفة قيمة البيئة الإيمانية قبل فقدها. قد يألف الإنسان سماع القرآن حتى لا يعود يشعر بعظمة أن كلام الله يُتلى بين يديه. وقد يألف مجالس العلم والصالحين، فلا يعرف مقدار النعمة إلا إذا وجد نفسه في بيئة تهاجم يقينه كل يوم.

كان الصحابة يسمعون الوحي من الرسول ﷺ، لكن وجود أسباب الهداية لم يلغ مسؤوليتهم. فالآيات لا تهدي من يغلق قلبه، وقرب الجسد من النبي لا ينفع من يعصيه.

وهذا يفسر السؤال: كيف تكفرون مع هذه النعم؟ أي ما أعظم التفريط إن وقع منكم، وما أضعف الحجة التي يمكن أن تختبئوا خلفها!

## وفيكم رسوله

كان وجود الرسول ﷺ فيهم أمانًا من كثير من الالتباس. إذا اختلفوا ردهم إلى الحق، وإذا اشتبهت عليهم الآية بيّنها، وإذا زلت النفوس ربّاها.

لكن الرسول ﷺ سيموت، والسورة نفسها ستقرر لاحقًا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

فما الذي يبقى للأمة بعد وفاته؟

تبقى آيات الله، وتبقى سنته وهديه وبيانه، ويبقى الاعتصام بالله. لم تكن الآية لتربط الأمة بجسد الرسول ربطًا يجعلها تنهار بعد غيابه، بل لتعلّمها أن وجوده حجة، وأن رسالته باقية.

من أراد القرب منه بعد موته، فليس الطريق أن يصنع حوله غلوًّا نهى عنه، بل أن يتبع ما جاء به. فالمحبة التي لا تتحول إلى اتباع قد تبقى عاطفةً لا تحفظ صاحبها من الانحراف.

## ومن يعتصم بالله

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الاعتصام هو التمسك والاحتماء. وفي اللفظ صورة إنسان تحيط به أمواج الفتنة، فيمد يده إلى حبل لا ينقطع.

لم تقل الآية: ومن يعتصم بعقله وحده، أو بجماعته، أو بتاريخه، أو بقوة ثقافته؛ بل: ﴿بِاللَّهِ﴾.

فالعقل قد تشتبه عليه الطرق.

والجماعة قد تنحرف.

والتاريخ قد يُحرّف.

والنفس قد تخدع صاحبها.

أما الاعتصام بالله فيرد الإنسان إلى الوحي، ويملأ قلبه افتقارًا، ويمنعه من أن يجعل وسيلة الهداية إلهًا جديدًا.

ومن يعتصم بالله لا يترك الأسباب، بل يستعملها وهو يعلم أنها لا تحفظه استقلالًا. يتعلم، ويسأل، ويصاحب الصالحين، ويراجع نفسه؛ لكنه يرى في ذلك كله وسائل يصل بها مدد الله، لا حصونًا قائمةً بذاتها.

**فقد هُدي إلى صراط مستقيم**

لم تقل الآية: فسيُهدى فقط، بل: ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾.

نفس الاعتصام بالله هداية؛ لأن من عرف الجهة التي يحتمي بها وضع قدمه على الصراط.

والصراط مستقيم، لا التواء فيه. لكن الاستقامة لا تعني أن الطريق خالٍ من الصعوبة؛ قد يكون مستقيمًا وهو صاعد، واضحًا وهو مكلف، حقًّا وهو محاط بالخصوم.

المهم أن تعرف أن الطريق يصل.

أما الطرق المعوجة فقد تبدو في بدايتها سهلة؛ لأنها تنزل مع هوى النفس، ثم تكتشف في نهايتها أنها لم تكن تسير بك إلى حيث ظننت.

وهكذا يصل الفصل إلى الكلمة التي سيفتتح بها الفصل التالي:

الاعتصام.

بدأ هذا الفصل بالإنفاق مما نحب؛ لأن القلب لا يتحرر ما دام محبوبه يملكه.

وانتقل إلى ملة إبراهيم؛ لأن الحنيفية تحرير للوجهة من الشرك.

ووصل إلى البيت؛ لأن الأمة تحتاج إلى مركز تتجه إليه.

ثم حذّر من الصد عن سبيل الله؛ لأن الطريق المستقيم تحيط به محاولات التشويه.

وانتهى بالاعتصام بالله؛ لأن المال قد يخرج من اليد، والحاج قد يعود من البيت، والرسول ﷺ قد يغيب عن الدنيا، لكن الصلة بالله هي الحبل الذي يبقى.

## من البر الفردي إلى بناء الأمة

لكن سورة آل عمران لا تريد أفرادًا كرماء متفرقين فحسب. فالبر الذي يبدأ من القلب ينبغي أن يتحول إلى جماعة تمسك بحبل الله، وتحمي نفسها من التفرق، وتأمر بالمعروف، وتواجه محاولات ردّها عن الإيمان.

بعد الإنفاق والحج والتحذير من الطاعة التي تعيد الأمة إلى الوراء، يأتي النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

فالإنسان قد ينتصر على شح ماله، ثم يسقط في شح نفسه داخل الجماعة. يريد الرئاسة، ويتعصب لرأيه، ويضيق بخير يجري على يد أخيه؛ فتتفرق القلوب التي تتجه إلى قبلة واحدة.

وهكذا ستنتقل السورة من سؤال: ماذا تنفق مما تحب؟

إلى سؤال أشد: هل تستطيع أن تتنازل عن حظ نفسك حتى تبقى الأمة مجتمعةً على الحق؟

فالطريق إلى أُحُد لا يمر بالسلاح أولًا، بل يمر بوحدة المرجعية، وسلامة الصف، ومعرفة النعمة التي جمعت القلوب بعد عداوة.

وهناك يبدأ الفصل الثامن:

**أُحُد: حين كشفت الهزيمة ما لا يكشفه النصر.**

## الفصل الثامن

## أُحُد: حين كشفت الهزيمة ما لا يكشفه النصر

## القسم الأول: الآيات من (١٠٢) إلى (١٢٠)

قبل أن تدخل السورة بالمؤمنين إلى أُحُد، تبني فيهم الصف الذي يستطيع أن يدخل المعركة.

فالمعارك لا تبدأ ساعة التقاء الجيشين، بل تبدأ في العقائد التي يحملها الجنود، وفي الروابط التي تجمعهم، وفي المرجعية التي يرجعون إليها عند الاختلاف. وقد تكون الهزيمة المتأخرة ثمرة تصدع قديم لم تسمع الجماعة صوته حين بدأ.

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)**

### لا تموتن إلا وأنتم مسلمون

ليس الموت حدثًا يملك الإنسان تحديد ساعته حتى يختار الهيئة التي يلقاه بها. وإنما تطلب الآية منه أن يعيش في حال من الإسلام، فإذا باغته الموت وجده على الطريق.

فخاتمة العمر لا تُصنع غالبًا في اللحظة الأخيرة؛ إنها تنمو في العادات الصغيرة التي تتكرر كل يوم.

من عاش قلبه معلقًا بشيء، خيف أن يلقاه الموت وهو ملتفت إليه.

ومن درّب نفسه على العودة إلى الله، كان أرجى أن تأتي النهاية وهي تعرف وجهتها.

إننا لا نختار ساعة الموت، لكننا نختار ـ بإذن الله ومعونته ـ الطريق الذي نمشي فيه حين تأتي الساعة.

ولهذا سبقت التقوى ذكر الموت: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

فالتقوى حراسة مستمرة للاتجاه، حتى لا تنحرف الروح بالتدريج ثم تفاجأ بالنهاية بعيدًا عن مقصدها.

وحق التقوى غاية يسعى إليها المؤمن مستعينًا بالله، باذلًا وسعه في طاعته، فلا يغتر بما عمل، ولا ييأس إذا رأى تقصيره. يعرف أن المقام عظيم، فيظل بين مجاهدة واستغفار.

ولأن الموت لا يرسل موعده، كان الثبات اليومي هو الاستعداد الحقيقي له. لا تقل: سأتوب حين تهدأ الحياة؛ فقد تكون الحياة التي تنتظر هدوءها هي العمر كله.

## واعتصموا بحبل الله جميعًا

قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (١٠٣)

لم يأمرهم أن يمسك كل واحد منهم بحبل خاص، بل أن يعتصموا جميعًا بحبل واحد.

الوحدة في القرآن ليست اجتماع الأجساد حول فراغ، ولا اتفاقًا يطلب من الحق أن يصمت كي لا يختلف الناس. إنها اجتماع على حبل الله: كتابه ودينه وعهده.

فإذا غاب الحبل، صارت الوحدة اسمًا آخر لتوازن المصالح. تجتمع الأطراف ما دامت حصصها محفوظة، فإذا تغيرت المصالح انقطع ما بينها؛ لأن الذي جمعها لم يكن أعلى منها.

أما حبل الله فلا يصنع وحدةً بإلغاء العقول، بل يمنح اختلافها مركزًا يحكمها. قد تتعدد الاجتهادات، لكن لا تتحول إلى آلهة صغيرة يتعصب كل فريق لإحداها.

المشكلة ليست أن يرى إنسان ما لا يراه أخوه، بل أن يرى نفسه أكبر من أن يعود إلى الحق إذا ظهر على لسان أخيه.

كثير من التفرق يبدأ من جرح في الذات، ثم يبحث لنفسه عن عنوان فكري.

تتنازع النفوس على المكانة، ثم تصوغ نزاعها في لغة المبادئ.

وتطلب القيادة، ثم تسمي طلبها حمايةً للمنهج.

وتضيق بنجاح غيرها، ثم تفتش في نجاحه عن شبهة.

ولهذا جاء الأمر بالتقوى قبل الأمر بالاعتصام؛ لأن الوحدة لا يحفظها النظام وحده، بل قلوب تخاف الله في خلافها.

**ولا تفرقوا**

النهي عن التفرق لا يعني أن الحقيقة موزعة بالتساوي بين كل الأقوال، ولا أن السكوت عن الخطأ واجب لحفظ صورة الجماعة. فقد يكون البيان نفسه حمايةً للوحدة من أن تقوم فوق انحراف.

التفرق المذموم أن تنفصل القلوب عن مرجعيتها بسبب البغي والعصبية وحظوظ النفوس. أما الاختلاف الذي يطلب الحق بأدب، ويرجع إلى الدليل، ويحفظ الأخوة، فليس هو التفرق الذي يقطع جسد الأمة.

قد تصمت الجماعة طويلًا عن ظلم داخلها، ثم تسمي صمتها وحدة. لكنها لا تكون قد عالجت الشق؛ إنما غطته حتى اتسع في الظلام.

الوحدة الصادقة لا تُبنى بإلزام المظلوم أن يبتلع ألمه، بل بإقامة العدل الذي يعيد إليه مكانه. فالعدل ليس خطرًا على الصف؛ الظلم هو الذي يأكله من الداخل.

ولا تعني الوحدة أن يصبح النقد خيانة، أو أن يُحمى الخطأ لأنه صدر عن صاحب مكانة. الجماعة التي تمنع المراجعة لا تحفظ تماسكها، بل تؤجل انفجارها.

## واذكروا نعمة الله عليكم

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

كان الأوس والخزرج يحملون تاريخًا من الدماء، وكانت الذاكرة قادرةً على إشعال حرب جديدة كلما نكأ أحدهم جرحًا قديمًا. فجاء الإسلام، ولم يمح وقائع الماضي من السجلات، لكنه نزع منها سلطانها على الحاضر.

قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

لم يقل: جمع أجسادكم.

فقد يجلس الخصوم في مجلس واحد، بينما الحرب قائمة في أعماقهم. وقد توقع القيادات وثيقة مصالحة، ولا تصل كلمة منها إلى القلب.

التأليف أعمق من الترتيب الإداري؛ إنه أن يعاد بناء رؤية الإنسان لأخيه، فلا يعود يراه من خلال ثأر القبيلة، بل من خلال أخوة الإيمان.

ولا يملك البشر هذا التحويل استقلالًا. يستطيعون تنظيم اللقاءات وتقريب المصالح، لكن القلب له أغلاق لا يفتحها إلا الله. ولهذا نسب التأليف إليه.

ثم قال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

الأخوة نعمة، وليست إنجازًا ذاتيًّا تتباهى به الجماعة. وما دام مصدرها نعمة الله، فإن حفظها يكون بطاعته، لا بالعصبيات الجديدة التي تستبدل القبيلة بالحزب أو المذهب أو التنظيم.

قد يخرج الناس من عصبية النسب، ثم يبنون عصبية الفكرة؛ يحبون أفراد جماعتهم في باطلهم، ويبخسون المخالف في حقه. تتغير الأسماء، ويبقى المرض.

## على شفا حفرة من النار

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

الشفا هو الطرف والحافة. كانوا قريبين من السقوط، لا تفصلهم عن النار إلا خطوة. تشمل الآية نار الآخرة التي أنقذهم الله منها بالإيمان، وتستحضر كذلك صورة الحياة التي كانت تلتهمها الحروب والعداوات.

الإنسان على الحافة لا يحتاج إلى زينة فكرية، بل إلى إنقاذ. والإسلام لم يأت ليضيف إلى حياتهم طقسًا، بل لينقلهم من مصير إلى مصير.

لكن الخطر أن ينسى الناجي الحفرة بعد أن يبتعد عنها. يرى استقرار حاله فيظن أنه كان دائمًا كذلك، ويبدأ العبث بالحبل الذي أنقذه.

لذلك قال: ﴿وَاذْكُرُوا﴾.

الذاكرة حارسة النعمة. من نسي حاله قبل الهداية، استهان بما أنقذه. ومن نسي ثمن التفرق، أعاد إنتاج أسبابه.

ليس المقصود أن يظل الإنسان سجينًا لماضيه، بل أن يحتفظ منه بالمعرفة التي تمنعه من العودة إليه.

ثم تختم الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالبيان ليس معرفةً تضاف إلى الذاكرة فقط، بل طريق هداية. والله يبين لهم كيف كانوا، ومن الذي أنقذهم، وبأي حبل اجتمعوا؛ حتى لا ينسبوا النعمة إلى عبقريتهم، ثم يهدموها بأيديهم.

## ولتكن منكم أمة

قال تعالى: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤)**

لا يكفي أن تعرف الجماعة الخير في داخلها؛ ينبغي أن توجد فيها قوة أخلاقية تحرس الاتجاه. فالانحراف إذا تُرك بلا بيان يتدرج من خطأ مستنكر إلى واقع مألوف، ثم يتحول المألوف إلى شيء يدافع الناس عنه.

لكن الأمر بالمعروف ليس سلطةً لتفتيش القلوب، ولا ترخيصًا بالإهانة. إنه وظيفة إنقاذ، ومن يحملها بروح الاستعلاء قد يصير هو نفسه منكرًا يصد الناس عن المعروف.

الداعية إلى الخير لا يقف فوق الناس، بل بينهم. يعرف أنه يحمل من الضعف ما يحملون، وأن ستر الله عليه لا يمنحه حق فضحهم، وأن المقصود رد الإنسان إلى الطريق لا كسر كرامته على حافته.

والأمة التي تفقد قدرتها على النقد الصادق لا تحفظ وحدتها، بل تحفظ أخطاءها حتى تكبر.

والآية تبدأ بالدعوة إلى الخير، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى لا يتحول الإصلاح إلى مطاردة للسوء فحسب. فالمجتمع لا يُبنى بمنع المنكرات وحدها، بل بفتح أبواب الخير وصناعة البدائل التي تغذي الفطرة.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح ليس للمتفرج الذي عرف الخلل واكتفى بوصفه، بل لمن حمل مسؤوليته بقدر استطاعته، وأراد للناس النجاة لا لنفسه التفوق عليهم.

## لا تكونوا كالذين تفرقوا

قال تعالى: **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥)**

مرةً أخرى لا يكون سبب التفرق غياب العلم، بل وقوعه بعد البينات. فالمعرفة وحدها لا تضمن الوحدة إذا دخل البغي.

قد يقرأ المختلفون النص نفسه، ويعرفون الحكم نفسه، لكن كل فريق يريد أن يبقى الحق تابعًا لموقعه. عندئذ لا يحسم وضوح الدليل النزاع؛ لأن النزاع الحقيقي لم يعد حول الدليل.

كم من خصومة تبدو فكريةً، ولو نُزعت منها حظوظ النفس لانطفأ نصفها!

القلوب إذا مرضت تستطيع أن تجعل من أوضح النصوص ساحةً للقتال. أما القلوب الصادقة، فقد تختلف في فهم مسائل دقيقة ثم تبقى متآلفة؛ لأن كل واحد منها يفرح أن يظهر الحق ولو على لسان غيره.

ثم يأتي الوعيد: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فالتفرق بعد البيان ليس خلافًا اجتماعيًّا صغيرًا؛ قد يهدم قوة الأمة، ويبدد أمانتها، ويفتح للعدو ثغرات لم يستطع فتحها بقوته.

وسيكشف جبل الرماة بعد قليل كيف يمكن لتنازع واحد ومخالفة واحدة أن تغيّرا مسار معركة كاملة.

## يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ **(١٠٦)**

ينتقل المشهد من اختلاف الأرض إلى انكشاف الوجوه في الآخرة.

الوجه هو موضع الظهور والهوية. وفي الدنيا يستطيع الإنسان أن يصنع له وجهًا اجتماعيًّا يخفي وراءه ما يشاء؛ أما هناك، فتخرج حقيقة الباطن إلى الظاهر.

تبيض وجوه بما حملته من نور الإيمان والصدق.

وتسود وجوه بما تراكم عليها من الكفر والإعراض.

ليس البياض والسواد هنا معيار لون أو عرق؛ فالإسلام أسقط تفاضل الألوان، وإنما هما صورتان للمصير وانكشاف الحقيقة.

ويقال لأصحاب الوجوه المسودة:

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؟

تعود السورة إلى خطر الرجوع بعد الهداية. فالمؤمن لا يستغني عن الثبات، والجماعة لا تملك حصانةً لمجرد أنها حملت اسم الإيمان زمنًا.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

الجزاء متصل بما اختاروا؛ ليس ظلمًا نزل بهم بلا سبب، بل ثمرة طريق أصروا عليه.

## ففي رحمة الله هم فيها خالدون

قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **(١٠٧)**

لم يقل: فبأعمالهم وحدها، بل: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

الأعمال أسباب لدخول الرحمة، لكنها لا تجعل العبد مستغنيًا عن فضل الله. ولو حوسب الإنسان بعدل مجرد على النعم التي أُعطيها وما أداه من شكر، لرأى أن عمله نفسه نعمة تحتاج إلى شكر آخر.

إنهم داخل الرحمة، كأنها فضاء يحيط بهم من كل جهة.

في الدنيا كانت الرحمة تصل إليهم في قطرات: ستر بعد ذنب، وسكينة بعد خوف، وهداية بعد حيرة. أما هناك فهم في رحمة الله خالدون، لا يخشون خروجًا ولا انقطاعًا.

وقد تفرقت القلوب في الآية السابقة، أما هؤلاء فجمعهم الله داخل رحمة واحدة. فمن أراد بياض الوجه يوم القيامة، فليحذر أن يسود قلبه اليوم بالبغي والتفرق.

## تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق

قال تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ **(١٠٨)**

ما سبق ليس تهويلًا منفصلًا عن الحقيقة، بل آيات الله تتلى بالحق.

حق في الخبر.

وحق في الميزان.

وحق في الجزاء.

ثم ينفي الله عن نفسه إرادة الظلم: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾.

هو سبحانه غني عن ظلمهم، كامل العدل والحكمة. لا يزيده عذاب أحد ملكًا، ولا تنقصه نجاة أحد، وإنما يجازي الخلق بأعمالهم ويضاعف لمن يشاء من فضله.

والآية تحرس القلب من سوء الظن حين يسمع الوعيد. فالعذاب ليس قسوةً بلا سبب، والجنة ليست محاباةً بلا ميزان. الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحدًا ذنب غيره.

وإذا كان لا يريد ظلمًا للعالمين، فكيف يتقرب إليه من يظلم عباده؟ لا يمكن أن يكون الظلم وسيلةً إلى مرضاة الإله الذي نفى إرادته لنفسه.

## ولله ما في السماوات وما في الأرض

قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ **(١٠٩)**

الملك كله لله؛ ولذلك يستحيل أن يحتاج إلى ظلم مخلوق في ملكه.

كل جيش يتحرك في أرضه.

وكل قلب ينبض بإذنه.

وكل أمة ترتفع أو تسقط داخل سننه.

وكل قوة تظن أنها مستقلة تحمل في داخلها أسباب افتقارها إليه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

لم يقل: بعض الأمور. كل قضية انتهت عند الناس بلا عدل ترجع إليه. وكل دم ضاع في سجلات الأرض لم يضع في علمه. وكل اختلاف بقي معلقًا سيعود إلى حكمه.

والرجوع إلى الله ينبغي أن يرد الجماعة عن بغيها؛ فما معنى أن تنتصر لنفسك في خصومة، ثم تخسر حين ترجع القضية إلى الله؟

## كنتم خير أمة

قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (١١٠)

ليست الخيرية لقبًا عرقيًّا ثابتًا، ولا وثيقة حصانة من النقد. لقد ربطتها الآية بوظيفة:

تأمرون بالمعروف.

وتنهون عن المنكر.

وتؤمنون بالله.

وقال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

لم تُخرج لتعيش حول نفسها، ولا لتجعل فضل الرسالة امتيازًا تستعلي به. خُيريتها للناس: تهديهم، وتقيم العدل فيهم، وتحمل إليهم رحمة الوحي.

فإذا تحولت الأمة إلى جماعة تطلب مصالحها باسم الدين، أو تأمر غيرها بالمعروف وتستثني قياداتها منه، فقد احتفظت بالاسم وأضاعت شرطه.

الخيرية تكليف يثقل الكتف، لا وسام يزين الصدر.

ومن آثار الإيمان بالله أن تكون كلمة المعروف قادرةً على الصعود إلى أعلى موضع في المجتمع، لا أن تتوقف عند الضعفاء. فإذا كان النهي عن المنكر

لا يطال إلا من لا سلطان لهم، بينما يُصنع للصاحب النافذ قاموس من الأعذار، فقد صار المعروف نفسه أسير ميزان القوة.

ثم قالت: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾.

فالإيمان لا يزيد ملك الله، وإنما يعود خيره على صاحبه. والدعوة إليهم ليست طلبًا لانتصار جماعة عليهم، بل رغبةً في خيرهم ونجاتهم.

ومرةً أخرى يمنع القرآن التعميم: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أثبت الخير لمن استحقه، ولم يجعل الحكم على الأكثرية محوًا للأقلية المؤمنة.

## لن يضروكم إلا أذى

قال تعالى: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ**﴾ **(١١١)**

لا تنفي الآية وقوع الأذى. قد تصدر كلمة جارحة، أو شبهة، أو مؤامرة، أو ضغط يرهق المؤمنين. لكن الأذى ليس دائمًا الضرر الذي يقتلع أصل الرسالة.

ثمة فرق بين أن يؤلمك العدو، وأن يملك مصيرك.

قد يجرح الجسد، لكنه لا يستطيع أن ينتزع اليقين إلا إذا فتح له القلب الباب.

وقد يشوه السمعة زمنًا، لكنه لا يغير الحقيقة في علم الله.

وقد يربح جولة، لكنه لا يكتب الكلمة الأخيرة.

﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾.

الوعد لا يعفي المؤمنين من شروط النصر؛ فالآيات نفسها ستربط المدد بالصبر والتقوى. لكنه يحررهم من رهبة العدو التي تجعله في مخيلتهم أكبر من حقيقته.

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قد يملكون أدوات، لكن النصرة شيء آخر؛ توفيق وتثبيت وبركة في السبب، وهذه لا يملكها إلا الله.

## حين تفقد الأمة عهدها بالله

قال تعالى: **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)**

لا تتحدث الآية عن عرق يحمل الذلة في دمه؛ فالقرآن أبطل الامتيازات العرقية، وأثبت أن من أهل الكتاب مؤمنين صالحين. إنما تتحدث عن مصير ارتبط بأفعال محددة: كفر بالآيات، وقتل للأنبياء، وعصيان واعتداء.

فالذلة ليست هوية وراثية، بل ثمرة انقطاع عن حبل الله، وقد ترفع بما يقدره الله من عهد أو أمان.

بدأ المقطع بأمر المؤمنين: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾.

وهنا تظهر حياة من فقد الحبل: ذلة لا ترفعها قوة ذاتية مستقلة.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

عادوا حاملين غضبًا استحقوه بأفعالهم، لا لأن الله ظلمهم.

ثم تكشف الآية تدرج السقوط: كفر بالآيات.

وقتل للأنبياء.

وعصيان متكرر.

واعتداء تجاوز الحدود.

لا تبدأ الجرائم الكبرى دائمًا دفعةً واحدة. قد تبدأ بمعصية يستهين بها صاحبها، ثم تتكرر حتى يضعف حاجز القلب، ثم يصبح الاعتداء منهجًا.

## ليسوا سواء

ثم يعود عدل القرآن: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣)**

بعد نقد واسع لانحرافات أهل الكتاب، تأتي هذه الجملة لتمنع التعميم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

ثلاث كلمات تحرس العقل من ظلم التصنيف.

قد تختلف مع جماعة في أصل، لكن أفرادها ليسوا نسخةً واحدة. فيهم طالب حق، وفيهم أمين، وفيهم قائم بالليل، وفيهم من يسارع في الخيرات.

والخصومة لا تمنحك حق محو الفروق.

العقل الكسول يضع الناس في صناديق كبيرة، ثم يصدر حكمًا واحدًا عليهم. أما العدل فيتعب؛ لأنه ينظر في كل حالة، ويميز، ويعترف بالخير حيث وجده.

ومن عجز عن إنصاف مخالفه، فليخف على عدالته؛ إذ العدل مع الموافق يسير، وإنما تظهر قوته عند الخصومة.

وما أجمل وصفهم: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

قائمة على الحق، وقائمة في الليل، لم تحملها أخطاء الأكثرين على الاستسلام للتيار. فالفرد الصادق لا يتخذ فساد بيئته عذرًا دائمًا لسقوطه؛ قد يقوم لله وإن نامت جماعته.

## يسارعون في الخيرات

قال تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ **(١١٤)**

جمعت الآية بين أصول الإيمان وحركة الإصلاح.

يؤمنون بالله؛ فيستقيم المركز.

وباليوم الآخر؛ فيحضر الحساب في القرار.

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ فلا يحبسون صلاحهم داخل نفوسهم.

ويسارعون في الخيرات؛ لأنهم يعرفون أن الفرصة لا تبقى دائمًا.

المسارعة ليست تهورًا ولا عملًا بلا علم، بل يقظة تمنع النفس من تأجيل الخير حتى تفوته. كم من باب ظل الإنسان يقول: سأدخله غدًا، ثم أُغلق قبل أن يصل إليه!

﴿وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم تجعلهم هويتهم السابقة خارج إمكان الصلاح، ولم تمنعهم أخطاء بيئتهم من أن يكونوا منه. فالعدل القرآني يفتح للإنسان باب أن يُعرّف بعمله وإيمانه، لا أن يُسجن إلى الأبد داخل اسم الجماعة التي وُلد فيها.

## فلن يُكفروه

قال تعالى: **﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥)**

قد لا يعرف الناس خيرهم، وقد يضعهم التصنيف العام في موضع لا ينصفهم، لكن الله لا يجحد لهم عملًا.

﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

لن يُستر الخير عن الجزاء، ولن يضيع لأن صاحبه جاء من جماعة يكثر فيها المنحرفون. عند الله لا تضيع الفردية الأخلاقية داخل الأحكام العامة.

وهذا عزاء لكل من فعل خيرًا في بيئة لا تعرف قيمته، أو كان صالحًا بين قوم غلب عليهم الفساد. ليس محتاجًا إلى شهادة جماعته حتى يثبت عمله في علم الله.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

يعلم التقوى التي لا تظهر في الاسم، ويعلم مقاومة الإنسان لتيار بيئته، ويعلم الكلفة التي دفعها حتى يبقى قائمًا حين انحنى الآخرون.

## المال والولد لا يصنعان نجاة

قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦)**

يعود المعنى الذي ظهر في مطلع السورة، لكنه يعود هنا بعد الحديث عن خير الأمة وصلاح أفراد من أهل الكتاب.

القيمة ليست في كثرة ما يملك الإنسان، بل في الجهة التي يقف فيها قلبه. قد تحيط به الأموال والأولاد، لكنه يقف في الآخرة وحيدًا أمام عمله.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾.

المال نافع في حدوده، والولد نعمة، لكنهما لا يحملان وظيفة الخلاص. وكلما طلب القلب من نعمة أن تنقذه من الله، حولها إلى وهم.

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

الصاحب يلازم صاحبه؛ وهي صورة تقابل الصحبة التي ظنوها في المال والولد. ما صاحبوه في الدنيا لن يصحبهم إلى النجاة، وما صنعوه من كفر سيصير ملازمًا لمصيرهم.

## نفقة بلا إيمان تقتلعها الريح

قال تعالى: ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ **(١١٧)**

المشهد حقلٌ نما، وتعلقت به آمال أصحابه، ثم جاءت ريح شديدة البرد فأهلكته.

هكذا يكون العمل الذي فقد أصله عند الله: قد يبدو في الدنيا حرثًا قائمًا، ويحصل صاحبه منه على سمعة أو نفوذ أو منفعة عاجلة؛ لكنه لا يجد ثمرته حيث يحتاجها.

ليست كل نفقة مقبولة لمجرد خروج المال. قد ينفق الإنسان رياءً، أو نصرةً لباطل، أو يبني عطاؤه على كفر يقطع العمل عن أصل الإيمان.

ثم قال: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

لم تأت الريح إلى حرث أبرياء بلا حكمة؛ إنما اتصل الهلاك بظلمهم.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

تكرار نسبة الظلم إلى أنفسهم ينزع آخر عذر. فالإنسان هو الذي يفسد نيته، ويقطع عمله عن الإيمان، ثم يلقى ما اختار.

وكم من إنسان يلوم القدر على حصاد بذور زرعها بيده!

## البطانة التي تدخل إلى الداخل

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١١٨)**

البطانة ما يلي باطن الثوب؛ واستعمال الكلمة في المقربين يرسم مقدار دخولهم إلى مواضع السر والثقة وصناعة القرار.

ليست كل علاقة مع المخالف ممنوعة؛ فالعدل والإحسان والتعاون المشروع أبواب قررها الوحي. إنما النهي عن إدخال من ظهرت عداوته إلى الداخل الذي تُكشف فيه أسرار الجماعة ومواطن ضعفها.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

لا يقصرون في إفساد أمركم واضطرابه.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾.

يتمنون المشقة التي تصيبكم؛ ومن كان هذا باطنه لا يصبح أمينًا لمجرد أنه أحسن إخفاءه زمنًا.

لكن القرآن لا يبني التحذير على أوهام ومخاوف مجردة، بل على علامات:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾.

ما تسرب إلى الألفاظ جزء من الحقيقة، وما تخفي الصدور أكبر.

والآية لا تمنح المؤمن إذنًا لاتهام كل مخالف بما في قلبه؛ فهي تتحدث عن قوم ظهرت أمارات بغضهم. ولهذا تبقى الموازنة: لا سذاجة تسلم الأسرار للعدو، ولا وسوسة تحول العالم كله إلى متهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فحسن النية لا يغني عن العقل، والرحمة لا تعني تعطيل البصيرة.

## تحبونهم ولا يحبونكم

قال تعالى: **﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١١٩)**

تكشف الآية علاقةً مختلة: قلب يفتح أبوابه بالمحبة، وطرف آخر يخفي له البغضاء.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

المؤمنون يؤمنون بأصل ما أنزل الله على الأنبياء جميعًا، فلا يحملون كراهية موسى أو عيسى، بينما يكفر الطرف الآخر ببعض الوحي.

ثم تكشف الآية ازدواج الوجه: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾.

وجه يلبس القبول في اللقاء.

ووجه آخر يظهر في الخلوة: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

الغيظ بلغ حدًّا لا يجدون له مصرفًا إلا أن يعضوا أصابعهم. لكن ما في الصدور لا يظل مستورًا عن الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾،

ليس دعوةً للمؤمن إلى التشفي الشخصي، بل إعلان أن الغيظ لن يطفئ نور الله، وأن مشروع الحق لن يموت لأن خصومه يكرهونه.

من عاش قلبه على كراهية الخير للآخرين بدأ يموت بذلك الغيظ قبل موت الجسد.

## إن تمسسكم حسنة تسؤهم

قال تعالى: **﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠)**

هذه من أدق علامات العداوة: أن يحزن الإنسان لخير يصيبك، ويفرح لألم ينزل بك.

قد يستطيع اللسان أن يخفي، لكن الفرح والحزن يفضحان موضع القلب. من يحبك يفرح لخيرك ولو لم يكن له منه نصيب، ومن امتلأ حسدًا يشعر أن نعمتك انتقاص منه.

لكن الآية لا تجعل المؤمن أسيرًا لمراقبة مشاعرهم، ولا تدفعه إلى قلق دائم من كيدهم. تعطيه برنامج النجاة:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

الصبر يمنعهم من إنهاكك بطول الطريق.

والتقوى تمنعك من أن تصير نسخةً منهم وأنت تقاومهم.

قد يدفعك كيد الخصم إلى استعمال الباطل، فتكون قد خسرْت نفسك وإن ربحت الجولة. ولهذا لا يكفي أن تصبر؛ ينبغي أن تتقي، حتى يبقى أسلوبك داخل حدود الله.

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

ليس المعنى ألا يقع أذى عابر، فقد ذكرت الآيات الأذى؛ بل ألا يبلغ كيدهم غايته في اقتلاعكم ما دمتم قائمين بشرط الصبر والتقوى، آخذين بالأسباب التي أمر الله بها.

ثم تختم: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

الإحاطة أوسع من العلم بالفعل وحده؛ أعمالهم لا تخرج عن سلطانه، ولا تستطيع خطة أن تتسلل من جانب غاب عنه.

وهكذا ينتهي هذا القسم قبل أن يتحرك النبي ﷺ من بيته ليبوئ المؤمنين مقاعد القتال.

لقد بُني الصف أولًا: تقوى تحفظ الخاتمة.

واعتصام يمنع التفرق.

وذاكرة تعرف نعمة الأخوة.

وأمة تحرس المعروف.

وعدل لا يعمم الحكم على المخالفين.

وبصيرة تميز البطانة من العدو.

وصبر وتقوى يبطلان أثر الكيد.

والآن تبدأ لحظة الاختبار:

هل تصمد هذه المعاني حين تتحول من آيات تُتلى إلى مواقع في ميدان أُحُد؟

## الفصل الثامن

## غزوة أُحُد بين النصر والانكسار

## من الآية (١٢١) إلى الآية (١٤٣)

## الخروج إلى مواقع القتال

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **(١٢١)**.

خرج النبي ﷺ في أول النهار من بين أهله، لا إلى راحةٍ ينتظرها، بل إلى ميدان تُختبر فيه القلوب، وتُراق فيه الدماء، وتُكشف به حقائق النفوس. وكان يضع المؤمنين في مواقعهم، وينظم الصفوف، ويجعل لكل جماعة موضعًا تؤدي منه واجبها.

الإيمان لا يلغي التخطيط، والتوكل لا يعني أن يقف المؤمن أمام الحدث بلا إعداد. فهذا رسول الله ﷺ، المؤيد بالوحي، يختار المواقع، ويرتب الرجال، ويحمي الثغور، ويجعل الرماة على الجبل.

إن النصر هبة من الله، لكنه سبحانه أمر أن تُهيأ له أسبابه. ومن طلب ثمرةً لم يغرس لها شجرة، فقد أساء فهم الرجاء.

ثم تختم الآية بقول الله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يسمع ما يدور بين أفراد الصف من حديث، ويعلم ما يختبئ وراء العبارات من نيات. قد يقف رجلان في موقع واحد، ويحملان السلاح نفسه، لكن أحدهما خرج لله، والآخر خرج لعصبية أو غنيمة أو سمعة.

ترتيب المواقع ظاهر المعركة، أما ترتيب النيات فباطنها. وإذا كان القائد يستطيع أن يضع الأجساد في مواضعها، فلا يستطيع أن يضع الإخلاص في القلوب؛ ذلك أمر بين العبد وربه.

## حين همّ الضعف أن يدخل الصف

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ **(١٢٢)**.

لم تقل الآية إن الطائفتين فشلتا، وإنما همّتا أن تفشلا. مرّ الضعف بالقلب، واقترب منه التراجع، لكن عناية الله أدركتهما قبل أن تتحول الخاطرة إلى موقف.

وهذه رحمة عظيمة؛ فليس كل ما يمر بالنفس يصبح هويتها. قد يخاف المؤمن، وقد يتردد لحظة، وقد يجد في قلبه ثقلًا، ثم يتداركه الإيمان فينهض.

القوة ليست ألا تشعر بالضعف أبدًا، بل ألا تسلّم له قيادك.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

لم يتخل الله عنهما لأن الخوف طرق قلبيهما، بل تولاهما، وثبتهما، وردهما إلى الصف. فالولاية الإلهية لا تعني أن المؤمن لن يضعف، وإنما تعني أن ضعفه لا يُترك بلا مدد.

وكم من إنسان نجا من قرار كان سيغير حياته إلى الأسوأ، لا لأنه كان شديدًا في نفسه، بل لأن الله تولاه في اللحظة التي أوشك فيها أن يسقط.

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

حين يضطرب الصف، وتكثر الاحتمالات، ويصبح المستقبل غامضًا، لا يجد القلب موضعًا ثابتًا إلا الله. فكل ما سواه عرضة للتبدل: العدد يتغير، والخطط قد تنكشف، والرجال قد يتراجعون، أما الله فلا يعجزه شيء.

## بدر: حين جاء المدد إلى القلة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ **(١٢٣)**.

لم يكونوا أذلةً في إيمانهم، بل قلةً ضعاف العدة في ظاهر الموازين. فنصرهم الله، لتعلم الأمة أن القوة المادية ليست إلهًا.

لكن الآية التي تذكر النصر تأمر بالتقوى والشكر. فالانتصار نعمة تحتاج إلى أخلاق تحفظها.

إن المهزوم يفتش عن أسباب ضعفه، أما المنتصر فقد يتوقف عن المراجعة؛ لأن النتيجة الناجحة تغطي الأخطاء. ولهذا يكون النصر امتحانًا أشد خفاءً من الهزيمة.

في الهزيمة تنكسر النفس.

وفي النصر قد تنتفخ.

والانكسار أقرب إلى العلاج من تضخم لا يشعر صاحبه بمرضه.

نسبت الآية النصر إلى الله حتى لا تتحول بدر إلى أسطورة عن بطولة البشر منفصلةً عن المدد. نعم، قاتل الصحابة وثبتوا وأخذوا بالأسباب، لكن السبب لم يستقل بالثمرة.

وكلما ازداد إنجاز الإنسان، ازدادت حاجته إلى أن يقول: هذا من فضل ربي؛ لا عبارةً تقال، بل رؤيةً تمنعه من احتقار من لم يحقق ما حقق.

**ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم؟**

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ **(١٢٤)**.

جاء المدد من عالم لا تراه العيون. وكانت البشرى بالملائكة تسند القلوب التي وقفت أمام عدد يفوقها، وتقول لها إن حساب الأرض ليس الحساب الوحيد.

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾.

إنها كلمة ترد القلب من مراقبة كثرة العدو إلى استحضار كفاية الرب. فكم من خوف نشأ لا لأن الخطر أكبر من النجاة، بل لأن القلب قاس الخطر بنفسه، ونسي أن يقيسه بقدرة الله.

قد لا ترى كل جنود الله، لكن عدم رؤيتك لها لا يعني غيابها. كم من بلاء صُرف عنك بسبب لم تعرفه، وكم من باب فُتح لك من طريق لم يخطر لك، وكم من قلب سخّره الله لنصرتك وأنت لا تعلم!

## الصبر والتقوى شرطان للمدد

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ **(١٢٥)**.

ليس المدد بديلًا من الصبر، ولا ملائكة السماء عذرًا لتفريط أهل الأرض. العون الإلهي ينزل على قوم يقومون بما عليهم، لا على قوم يتركون مواقعهم ثم يطلبون من الغيب أن يسد كل ثغرة.

كم يُساء فهم التوكل حين يتحول إلى مطالبة الله بنتائج أسباب لم نبذلها!

نطلب وحدةً بلا عدل.

ونصرًا بلا إعداد.

ووعيًا بلا تعليم.

ونهضةً بلا صبر.

ثم نسمّي انتظار الخارق يقينًا.

لكن القرآن يقول:

﴿إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

الصبر يحفظك تحت ضغط الزمن، والتقوى تحفظك من الانحراف وأنت تطلب النتيجة. فقد يصبر المرء، لكنه يستعمل وسائل محرمة، أو يثبت على باطل. لذلك اجتمع الصبر والتقوى: ثبات في الطريق، وصحة في الاتجاه.

**وما جعله الله إلا بشرى**

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ **(١٢٦)**.

حتى الملائكة ليست مصدر النصر استقلالًا. هي جنود مأمورة، والبشرى بها لتطمئن القلوب، أما النصر فمن عند الله.

هذا التوحيد يطهر القلب من التعلق حتى بالأسباب الغيبية. فكما لا يعبد المؤمن سيفه، لا يعبد المدد. يتجاوز الجميع إلى الله.

العزيز؛ القادر على كسر قوة الباطل.

الحكيم؛ الذي قد يؤخر النصر لحكمة، أو يمنح أصحابه انتصارًا بصورة لم يتوقعوها.

فليس كل تأخير عجزًا، وليس كل نصر رضا. قد يُعطى المبطل جولة استدراجًا، وقد يُمنع المؤمن جولة تربيةً وتمحيصًا.

## حين ينقلب المعتدي خائبًا

قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ **(١٢٧)**.

قد يكون النصر بقطع طرف من قوة الباطل، فلا تزول القوة كلها في جولة واحدة، ولكن يُكسر جانب منها، وتُضعف هيبتها، ويعرف الناس أنها ليست قدرًا لا يُدفع.

وقد يكون النصر بالكبت: أن يعود المعتدي وفي صدره غيظ لم يبلغ به ما أراد. جاء يطلب محو الحق، فعاد وقد ازداد الحق ظهورًا، وجاء يتوقع انكسار المؤمنين، فاكتشف أن الدم لم يطفئ الرسالة.

ليس كل نصر استئصالًا كاملًا، فقد يكون إبطال خطة، أو حفظ جماعة، أو كشف كذبة، أو تثبيت قلب. ومن ضيّق صورة النصر في نتيجة واحدة، ربما لم يرَ ألطاف الله وهي تعمل من حوله.

﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

الخيبة الحقيقية ليست أن تفوت الإنسان غنيمة، بل أن يسعى بكل قوته لإطفاء نور الله، ثم يرجع ولم يحمل إلا وزر سعيه.

## ليس لك من الأمر شيء

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ **(١٢٨)**.

حتى النبي ﷺ، وهو أحب الخلق إلى الله، لا يملك مصائر العباد. له البلاغ والدعاء والجهاد، أما التوبة والعذاب والحكم النهائي فلله.

هذه الآية تحرر الداعية من وهم السيطرة على النهايات. قد يبذل كل ما يستطيع ثم لا يهتدي من يحب، وقد يؤذيه إنسان ثم يهديه الله بعد ذلك فيصير نصيرًا للحق.

ولعل من بين من قاتلوا المسلمين يوم أُحُد رجالًا سيحملون راية الإسلام لاحقًا. خالد بن الوليد الذي استثمر ثغرة الرماة سيصبح سيفًا من سيوف الله.

لو أُغلق التاريخ عند لحظة أُحُد، لم نر إلا قائدًا في جيش المشركين. لكن الله يرى في العدو الحاضر مؤمنًا قادمًا.

ولذلك ينبغي ألا نجعل موقف الإنسان اليوم حكمًا نهائيًّا على كل غده. نرد باطله ونقاوم عدوانه، لكن باب الهداية ليس ملكًا لنا حتى نغلقه.

## الملك لله والحكم لله

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **(١٢٩)**.

كل من في السماوات والأرض ملك لله؛ فلا يملك أحد أن يفرض على الله حكمًا، أو يحجر رحمته عن إنسان، أو يمنح الأمان لمن لم يمنحه الله.

يغفر سبحانه بعلم وعدل ورحمة، ويعذب بعلم وعدل وحكمة. وليست مشيئته هوى، تعالى الله، بل مشيئة الحكيم الذي يعلم السرائر، ويرى التوبة قبل أن يراها الناس، ويعلم الإصرار وإن تستر صاحبه بأجمل العبارات.

ومع ذكر العذاب، تختم الآية:

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كأن باب الرجاء يظل مفتوحًا حتى لمن وقف بالأمس في صف العدو. لا ينبغي للداعية أن يجعل غضبه أوسع من رحمة الله، ولا أن ييأس من قلب ما دام الله قادرًا على تقليبه.

## لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠).

يأتي النهي عن الربا في سياق الحديث عن المعركة؛ لأن الأمة لا تنتصر في الخارج وهي تأكل ضعف أبنائها في الداخل.

الربا معركة يشنها القوي بماله على حاجة الضعيف. يمر الزمن، فينمو الدين لا لأن مالًا حقيقيًّا أُنتج، بل لأن عجز المحتاج صار فرصةً لمزيد من الاستغلال.

وذكر الأضعاف المضاعفة يصور ما كان يقع من تضخم الدين، وليس معناه إباحة القليل من الربا؛ فقد جاء تحريمه قاطعًا في مواضع أخرى. وإنما تكشف الآية الوجه المتوحش لنظام يجعل الزمن يعمل لمصلحة الغني ضد الفقير.

ثم تربط النهي بالتقوى والفلاح. فالفلاح لا يُبنى على مال امتص دموع المحتاجين. قد يزداد الرقم في الحساب، لكن البركة تنقص، وقد يبدو المرابي رابحًا في دفاتره وهو يخسر إنسانيته وآخرته.

## واتقوا النار

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ **(١٣١)**.

بعد النهي يأتي التحذير من النار، ليعلم المؤمن أن المعاملات المالية ليست منطقة بعيدةً عن الدين. فالمال قد يحمل صاحبه إلى الجنة، وقد يجره إلى النار.

وإضافة النار إلى أنها أعدت للكافرين لا تجعل المؤمن آمنًا من أسبابها؛ بل تحذره من أن يسلك مسالك أهل الكفر، أو يستحل ما حرمه الله، أو يجعل الطمع ربًّا يطيعه من دون أمر الله.

التقوى ليست خوفًا يشل الإنسان، بل يقظة تمنعه من أن يخطو في طريق يعرف نهايته. ومن رأى النار بقلبه، لم يبع آخرته بزيادة عابرة في ماله.

## الرحمة في طريق الطاعة

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **(١٣٢)**.

الرحمة ليست أمنية مجردة؛ لها طريق اسمه الطاعة.

وطاعة الله والرسول لا تعني أن العبد يشتري رحمة الله بعمله، فالعمل نفسه توفيق ورحمة. لكنها تعني أن من أراد نزول المطر وقف في موضعه، ومن أراد الرحمة سلك الطريق الذي دل الله عليه.

وفي سياق أُحُد، تظهر مركزية الطاعة. لم تكن مخالفة الرماة أمرًا تنظيميًّا صغيرًا؛ كان وراءها تبدل في مسار المعركة. فالطاعة تحفظ الصف من أن تتنازعه الرغبات الفردية.

وقد يظن الإنسان أن الأمر الذي خالفه يسير، لأنه لا يرى ما يتصل به من نتائج. لكن الله يرى الخيط إلى آخره، ولذلك كانت طاعته أمانًا، حتى حين لا ندرك كل حكمة الأمر.

## وسارعوا إلى مغفرة

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **(١٣٣)**.

وسط الحديث عن المعركة والربا والأعداء، يأتي النداء:

كأن السورة تنقل ساحة السباق من الغنيمة إلى المغفرة. سيرى بعض الرماة متاعًا فينزلون إليه، لكن المؤمن الحق يُطلب منه أن يسارع في الاتجاه الآخر: إلى ما عند الله.

الدنيا تقول: أسرع قبل أن يأخذ غيرك نصيبك.

والقرآن يقول: سارع إلى مغفرة لا تضيق بكثرة الداخلين.

جنة عرضها السماوات والأرض؛ فلا يحتاج أحد إلى أن يزاحم أخاه حسدًا على موضعه. خزائن الله واسعة، ومن عرف سعتها لم يبن مجده على إقصاء غيره.

## أخلاق المتقين

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ **(١٣٤)**.

## الذين ينفقون في السراء والضراء

يأتي الإنفاق مرةً أخرى، لكن الامتحان هنا في تغير الأحوال. فبعض الناس كريم ما دامت الدنيا موسعةً عليه، فإذا ضاقت توقف خيره كله.

أما المتقي فلا تنقطع صلته بالعطاء، وإن تغير مقداره. يعطي في السراء كثيرًا، وفي الضراء ما يستطيع؛ لأن الإنفاق عنده عبادة لا فائضًا ماليًّا فقط.

الاستمرار يكشف أن الخلق استقر، وأن صاحبه لا يتعامل مع الخير كمزاج موسمي.

ومن لم يملك مالًا في الضراء، أنفق كلمةً أو وقتًا أو دعاءً أو مواساة. أبواب العطاء أوسع من الخزانة.

## والكاظمين الغيظ

قبل أُحُد، تربي السورة المقاتل على ضبط الغضب. فالقوة التي لا تضبط داخلها قد تنقلب من مقاومة الظلم إلى ظلم.

كظم الغيظ ليس إنكارًا للغضب، ولا دعوةً لقبول الإهانة والعدوان. إنه ألا تمنح الغضب حق القيادة. تشعر بالنار، لكنك لا تتركها تحرق ميزانك.

قد تطالب بحقك، وترد الظلم، وتحمي نفسك، لكنك لا تكذب لأنك غاضب، ولا تخون لأن خصمك خان، ولا تتجاوز الحد لأنك مجروح.

الكظم أن يبقى زمام الفعل في يد القيم حين تضطرب المشاعر.

**والعافين عن الناس**

ثم يرتفع المقام: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

الكظم منع الانفجار، والعفو إزالة أثر الإساءة من دائرة الانتقام حين يكون العفو مشروعًا محققًا للخير.

وليس كل عفو فضيلة في كل موضع؛ فقد يكون السكوت عن الظالم تمكينًا له من ضعيف آخر. لكن حين يكون الحق شخصيًّا، ويكون العفو أقرب إلى الإصلاح، يصبح تجاوز الأذى تحررًا من أن يظل المسيء ساكنًا في قلبك.

قد يخرج المؤذي من حياتك، لكنه يبقى داخلها إذا ظل الغضب يعيد حضوره كل يوم. العفو لا يغير الماضي، لكنه يمنع الماضي من الاستمرار في حكم المستقبل.

وسيحتاج المؤمنون إلى هذا الخلق بعد أُحُد، حين يواجه بعضهم بعضًا بأسباب الهزيمة. لو تُركت النفوس للثأر الداخلي، لتحولت الهزيمة العسكرية إلى تمزق دائم. لذلك كان العفو جزءًا من استعداد الأمة للنجاة من خطئها.

ثم يبلغ المقام ذروته: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

لم يعد الأمر مجرد نجاة من الغضب، بل ارتقاء إلى محبة الله. والإحسان أن تعطي أكثر مما يفرضه الحساب المجرد، وأن تجعل معاملتك للناس متصلةً بنظرك إلى الله.

## المتقون ليسوا ملائكة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ **(١٣٥)**.

لم تصف المتقين بأنهم لا يخطئون أبدًا، بل بأن لهم طريقةً مختلفةً في التعامل مع الخطأ.

## يذكرون الله.

فالذنب في جوهره لحظة نسيان: يضيق الوعي حتى لا يرى إلا اللذة أو الغضب أو المصلحة. فإذا ذكر الله، عاد الفعل إلى حجمه الحقيقي داخل مشهد الآخرة.

## ثم يستغفرون.

لا يجمّلون الخطأ، ولا يصنعون له فلسفة، ولا يلقون تبعته كلها على الظروف. يسمونه ذنبًا، ويرجعون.

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

لا يحملون ذنوبهم إلى أبواب الخلق طالبين منهم ما لا يملكون، ولا ييأسون لأن الخطأ عظم؛ فهم يعرفون أن المغفرة بيد من وسعت رحمته كل شيء.

المشكلة ليست في العثرة وحدها، بل في الإصرار الذي يحول العثرة إلى طريق.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قد يقع المؤمن، لكنه لا يبني بيتًا في موضع سقوطه.

ولا يجعل ضعفه مذهبًا.

ولا يعيد تعريف الحرام حتى يرتاح من ألم التوبة.

إن بقاء الألم الأخلاقي في القلب علامة حياة. أما أخطر لحظة فهي حين يتصالح الإنسان مع انحرافه، ويجمع له الحجج حتى لا يعود يسمع صوت الضمير.

## جزاء العائدين

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ **(١٣٦)**.

أول ما يلقونه المغفرة؛ لأن القلب لا يهنأ بالجنة إذا بقي يحمل خوف الذنب. فيطهر الله صحائفهم، ثم يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

ولم يقل: جزاؤهم لأنهم لم يخطئوا، بل جاء الجزاء بعد ذكر خطئهم واستغفارهم وعدم إصرارهم. إن التائب لا يقف عند باب الله مواطنًا من درجة أدنى؛ إذا صدق في رجوعه، غسل الله عنه ما كان.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

كل نعيم في الدنيا يفسده علمنا بأنه سينتهي. أما الجنة فلا يقف خلف فرحها شبح الزوال؛ لا موت، ولا فراق، ولا مرض، ولا خوف من انقلاب الحال.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

سماهم عاملين مع أنهم أخطؤوا؛ لأن العبرة بمسار العمر لا بعثرة عابرة. ومن عمل في إصلاح نفسه بعد سقوطها، كان رجوعه نفسه من أجلّ الأعمال.

## قد خلت من قبلكم سنن

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ **(١٣٧)**.

قبل تفسير أُحُد، تضعها السورة داخل قانون التاريخ. فالهزيمة ليست حادثًا بلا نظير، والنصر ليس مزاجًا عابرًا. هناك سنن.

والسنن تعني أن الأحداث لا تتحرك في فوضى. للأسباب نتائج، وللتكذيب عواقب، وللظلم أجل، وللأمم شروط في الصعود والسقوط.

المؤمن لا يكتفي بالبكاء على ما حدث؛ يسير وينظر ويتعلم. يحول الألم إلى معرفة.

ومن لم يدرس هزيمته سيضطر إلى عيشها مرةً أخرى بأسماء جديدة.

لكن دراسة السنن لا تعني إلغاء الغيب. السنن نفسها من تقدير الله، والعمل بها عبادة. فمن طلب النصر بالدعاء وترك الإعداد، فقد أراد من الله أن يلغي سننه لأجل تقصيره.

## بيان وهدى وموعظة

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ **(١٣٨)**.

القرآن بيان للناس؛ يكشف لهم قوانين الطريق، ويخرج الأحداث من غموضها، ويمنح التاريخ معنى. لكنه لا يصبح هدى وموعظةً في قلب كل من سمعه؛ إنما ينتفع به المتقون.

قد يقرأ الإنسان الآية فيزداد علمًا بأخبار الماضي، ولا يتغير في حاضره شيء. عندئذ أخذ من البيان، ولم يأخذ من الهداية إلا قليلًا.

الهداية أن تعرف الطريق وتسلكه.

والموعظة أن تصل الحقيقة إلى موضع الشعور، فتوقظ القلب بعد غفلته.

أما التقوى فهي التي تجعل الإنسان مستعدًّا لأن يُصحح القرآن أفكاره، لا أن يستعمل القرآن لتثبيت ما قرره من قبل. المتقي لا يقف أمام الوحي موقف من يبحث عما يوافقه، بل موقف من يسأل: ماذا يريد الله مني؟

## لا تهنوا ولا تحزنوا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **(١٣٩)**.

لم يقل: لا تتألموا. فالألم وقع، والشهداء رحلوا، والجراح كانت مفتوحة. لكنه نهى عن الوهن: أن يتحول الألم إلى سقوط في الإرادة.

والحزن شعور إنساني، وقد حزن الأنبياء. فالمنهي عنه ما يستولي على القلب حتى يعطله عن الواجب، أو يحوله إلى اعتراض ويأس. كأن الآية تقول: احزنوا بقلوب بشرية، لكن لا تسلموا للحزن راية الطريق.

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.

كيف يكونون الأعلين وقد عادوا من المعركة مجروحين؟

لأن العلو ليس نتيجة جولة عسكرية وحدها. قد ينتصر الباطل في واقعة، ويبقى منخفضًا في ميزان الحقيقة. وقد يُهزم المؤمن ميدانيًّا، لكنه يظل حاملًا لمنهج أعلى، ما دام إيمانه قائمًا وطريقه متصلًا بالله.

لكن الآية قيدت العلو: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فهو ليس تفوقًا عرقيًّا، ولا وعدًا غير مشروط. إنما العلو بالإيمان الذي يثمر طاعة وصبرًا وتقوى. فإذا بقي الاسم وذهبت الحقيقة، فلا ينبغي أن يتحول الوعد إلى مخدر يغطي العجز.

## إن يمسسكم قرح

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ **(١٤٠)**.

الألم ليس حكرًا عليكم. عدوكم يتألم كذلك، وقد ذاق في بدر جراحًا شديدة. فلا تجعلوا جرحكم يبدو في وعيكم كأنه نهاية العالم، بينما تنسون جراح الطرف الآخر.

في المحنة يضيق النظر؛ يرى الإنسان ألمه وحده حتى يظن أن خصمه لا يتعب، وأن الباطل يمضي بلا كلفة. فتأتي الآية لتعيد التوازن إلى الرؤية.

قال: يمسسكم؛ وكأن القرح، مع شدته، شيء مسَّ ظاهر المسيرة ولم يصل إلى أصلها. يستطيع الجرح أن يمس الجسد، لكنه لا يملك أن يمحو الحقيقة التي يحملها القلب إلا إذا سلّمه القلب ذلك.

## وتلك الأيام نداولها بين الناس

لا يستقر يوم النصر لأمة إلى الأبد، ولا يبقى يوم الهزيمة على قوم إلى الأبد. الأيام دول؛ تنتقل القوة، وتتغير الموازين، ويعلو قوم ثم يهبطون.

وهذا يمنع المنتصر من الغرور، ويمنع المهزوم من اليأس.

من ظن أن لحظته ستخلد، لم يفهم طبيعة التاريخ. كم من إمبراطورية بدت لأهل عصرها نهاية السياسة، ثم أصبحت فصلًا في كتاب! وكم من مستضعف لم يكن يملك إلا الفكرة، ثم ورثت فكرته الأرض بعد أن غاب!

لكن مداولة الأيام لا تعني تساوي الحق والباطل عند الله، ولا أن التاريخ يدور بلا غاية. تأتي بعدها الحكم:

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

أي ليظهر في الواقع المعلوم لله أزلًا صدق المؤمنين، فيتميز ويقوم عليه الجزاء. فالله لا يطرأ على علمه جديد، سبحانه؛ لكنه يخرج ما علمه إلى عالم الشهادة.

## ويتخذ منكم شهداء

لم يقل: ويسقط منكم قتلى، بل: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

التعبير ينقل الموت من صورة الفقد المجرد إلى مقام الاصطفاء. الشهيد لم يضع من يد الله حين سقط من بين أيدي أصحابه؛ بل اتخذه الله.

ولفظ يتخذ يحمل معنى الاختيار والقرب. كأن الشهادة ليست حادثًا تنتهي به حياة، بل استقبال إلهي لحياة بذلت نفسها في سبيله.

لكن هذا المعنى لا يلغي حزن من فقدوا أحباءهم. القرآن لا يطلب من الأم أن تتوقف عن الاشتياق، ولا من الصديق أن ينكر الفراغ. إنما يمنح الحزن نافذةً يرى منها أن الغائب لم يذهب إلى العدم.

المصيبة تبقى مؤلمة، لكنها لا تبقى بلا معنى.

ثم تختم الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

حتى في مداولة الأيام، وحتى حين يُمكَّن للباطل مدة، لا يعني ذلك أن الله يحبه. قد يؤخره، ويمهله، ويجعله أداةً لتمحيص المؤمنين، لكنه لا يحب ظلمه.

فلا تقرأ محبة الله من اتساع ملك إنسان أو قوة سلطانه؛ إنما تُعرف المحبة من موافقة الحق.

## التمحيص والمحق

قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ **(١٤١)**.

التمحيص تنقية تكشف الدخيل وتزيله. والهزيمة قد تفعل في الصف ما لا يفعله النصر؛ تسقط عنه ادعاءاته، وتكشف المتردد، وتعيد ترتيب الأولويات.

في النصر يزدحم حول الجماعة من يحبون الثمرة.

وفي المحنة يبقى من يحبون الشجرة.

قبل أُحُد كان يمكن لكثيرين أن يتكلموا عن الطاعة والثبات. لكن ساعة الاضطراب حولت الكلمات إلى حقائق متفاوتة: واحد ثبت، وآخر فر، وثالث جلس، ورابع قاتل حتى استشهد.

المحنة لا تخلق دائمًا ما في النفوس، بل تكشفه.

كالأرض حين ينزل عليها المطر؛ لا يصنع البذور الموجودة فيها، لكنه يستخرج ما كان مختبئًا.

وهذا مؤلم؛ لأن الإنسان يكتشف عن نفسه ما لم يكن يريد معرفته. لكنه اكتشاف رحيم إذا قاده إلى الإصلاح. العيب المجهول أخطر من العيب المكشوف، لأن صاحبه يحمله مطمئنًّا.

وفي مقابل التمحيص يأتي المحق. المؤمن يُنقّى ليبقى، والكفر يُمهل ثم يُستأصل. وقد يبدو الباطل في جولة كأنه يزداد، لكنه يحمل في داخله أسباب فنائه؛ لأن الظلم يأكل بنيانه وإن طال وقوفه.

## أم حسبتم أن تدخلوا الجنة؟

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ **(١٤٢)**.

الجنة ليست ثمرة أمنية غير ممتحنة. لا بد أن يتحول الإيمان من دعوى إلى موقف، ومن شعور داخلي إلى صبر حين ترتفع الكلفة.

ليس معنى ذلك أن العبد يدخل الجنة بعمله مستقلًّا عن رحمة الله؛ فالنجاة برحمته، والعمل سبب وعلامة صدق. لكن الرحمة لا تجعل الطريق عبثًا، ولا تسوي بين من باع نفسه لله ومن أدار ظهره عند أول ألم.

الجهاد هنا أوسع من القتال، وإن كان السياق يتضمنه. إنه بذل الوسع في مقاومة ما يحول بين الإنسان والحق: عدو خارجي، وهوى داخلي، وخوف، وطمع، وكسل.

أما الصبر فهو الذي يمنح الجهاد عمرًا. قد يبدأ الإنسان بحماسة، لكن الطريق لا تقيسه البدايات وحدها؛ بل القدرة على البقاء بعد انطفاء التصفيق.

## ولقد كنتم تمنون الموت

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ **(١٤٣)**.

كان بعض من لم يشهد بدرًا يتمنى حضور مشهد مماثل لينال الشهادة والفضل. والتمني في المسافة الآمنة سهل؛ فالخيال يعرض البطولة بلا رائحة دم، ولا صراخ جريح، ولا ارتباك مفاجأة.

ثم جاءت أُحُد، وصار ما كان صورةً في الذهن واقعًا أمام العين.

هنا يربي القرآن المؤمن على ألا يثق ثقةً زائدةً ببطولته المتخيلة. لا تطلب الفتنة، واسأل الله العافية؛ فإن جاءت فاستعن به على الثبات.

كم من إنسان يظن أنه سيقول كلمة الحق لو وُضع في الموقف، ثم يصمت حين تأتي اللحظة! ليس لأنه كان كاذبًا بالضرورة، بل لأنه لم يعرف ثقل الواقع.

التواضع أن تدعو بالثبات بدل أن تُعجب بصورة نفسك وهي ثابتة في خيالك.

وهكذا يضع القرآن الأمنية أمام حقيقتها: لا يكفي أن تتمنى مقام الصادقين؛ ينبغي أن تصدق حين يأتي ثمن الصدق. ولا يكفي أن تحب صورة التضحية؛ ينبغي أن تحتمل ألمها إذا نزلت بساحتك.

## الفصل التاسع

## محمّدٌ إلا رسول

لم يكن محمد ﷺ رجلًا عابرًا في حياة أصحابه.

كان إليهم رسول الله، ومعلمهم، وقائدهم، وإمام صلاتهم، والوجه الذي رأوا فيه معاني القرآن تمشي على الأرض. أخرجهم الله به من ظلمات الجاهلية، وجمع به شتاتهم، وطهّر به تصوراتهم، وصنع من قبائل متناحرة أمةً تحمل رسالةً للعالمين.

أحبوه حبًّا لم تعرفه علاقة أتباع بقائد.

كان الواحد منهم يضع جسده أمام السهم كي لا يصل إليه، ويفديه بأبيه وأمه، ويرى أن بقاءه ﷺ أحب إليه من نفسه.

لكن هذا الحب العظيم كان يحتاج إلى ميزان يحفظه من أن يتحول، ولو في لحظة الصدمة، إلى تعلّق يجعل بقاء الدين متوقفًا على بقاء الرسول.

وجاءت أُحُد لتضع القلب المؤمن أمام السؤال الذي لا يريد أن يسمعه:

ماذا تفعلون إن مات محمد ﷺ أو قُتل؟

### الإشاعة التي ضربت مركز الإرادة

حين شاع في أُحُد أن النبي ﷺ قد قُتل، لم يكن الخبر نبأً عسكريًّا فحسب؛ كان زلزالًا ضرب المعنى الذي يقاتل بعض الناس من أجله.

قال بعضهم: إذا كان محمد قد قُتل، فعلام نقاتل؟

وجلست نفوس أطفأ الخبر إرادتها.

وأخرى فكرت في العودة إلى ما كانت عليه.

لكن أنس بن النضر رضي الله عنه رأى الأمر من الجهة الأخرى: إذا كان محمد ﷺ قد مات، فموتوا على ما مات عليه. ثم مضى يقاتل حتى استشهد.

الخبر واحد، لكنه كشف نوعين من العلاقة بالرسالة:

قوم كانت الرسالة قائمةً فيهم ما دام الرسول أمام أبصارهم.

وقوم غرس الرسول الرسالة في قلوبهم حتى صارت قادرةً على حملهم إذا غاب جسده.

وهذه هي غاية التربية النبوية: ألا يصنع القائد نسخًا معلقةً به، بل يصنع مؤمنين بالله قادرين على مواصلة الطريق بعده.

## وما محمد إلا رسول

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ **(١٤٤)**.

لم تقل الآية: وما محمد إلا رجل؛ لأن مقام الرسالة ثابت، وتعظيمه واجب. لكنها وضعت هذا المقام في حقيقته: رسول.

والرسول مرسَل من عند الله، يحمل رسالةً لم ينشئ حقيقتها من ذاته. شرفه من اصطفاء الله، وطاعته من طاعة الله، ومحبته جزء من الإيمان بالله؛ لكنه عبد لا يملك البقاء لنفسه.

لقد قررت السورة في بدايتها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

ثم جاءت هنا لتستخرج الأثر العملي لهذه الحقيقة: محمد رسول يموت، والله حي لا يموت.

الجسد النبوي الكريم تحكمه سنة البشر، أما الوحي الذي جاء به فمن عند الحي القيوم. ومن ربط الدين بالجسد وحده اهتز إذا غاب؛ ومن ربطه بمرسله ازداد بعد الغياب شعورًا بالأمانة.

لا تنتقص الآية من قدر الرسول ﷺ؛ بل تحرر مقامه من الغلو، وتحفظ رسالته من أن تُدفن معه.

## قد خلت من قبله الرسل

محمد ﷺ ليس أول رسول يواجه الموت. مضت قبله رسل، وانتهت آجالهم، وبقيت الحقيقة التي دعوا إليها.

الموت لا يبطل النبوة.

ولا يعني غياب النبي أن ربه غاب.

ولا يجعل صدق الرسالة محدودًا بزمن وجود حاملها.

إن الله يرسل الرجال، ثم يمضي الرجال، وتبقى العبودية له وحده. فالرسالات لا تريد أن تحبس الناس في اللحظة التاريخية للنبي، بل أن توصلهم من خلالها إلى الله.

وكما لم يكن موت موسى عليه السلام حجةً لترك التوحيد، ولا رفع عيسى عليه السلام مبررًا لعبادته، فلن يكون موت محمد ﷺ نهايةً للإسلام.

الأنبياء أبواب هداية إلى الله، وليسوا بدائل عنه.

## أفإن مات أو قُتل؟

قال تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

السؤال يهز القلب بعنف؛ لأنه يكشف ما يمكن أن يختبئ خلف العاطفة.

هل كنتم تعبدون الله، أم أن تعلقكم بصورة الرسول جعل إيمانكم غير قادر على احتمال غيابه؟

وهل دخلتم الإسلام لأنه الحق، أم لأن شخصًا عظيمًا يقودكم إليه؟

المؤمن يحب الرسول ﷺ أعظم من حبه لنفسه، لكن قوة هذه المحبة تظهر في الوفاء لمنهجه بعد موته، لا في سقوط المنهج بموته.

الانقلاب على الأعقاب صورة جسم يتراجع إلى الوراء بعد أن كان وجهه إلى الأمام. وهو تعبير لا يصف تغيير موقف عابر، بل نكوصًا عن الطريق كله.

كأن الإنسان لم يكن يمشي بقوة يقينه، بل كان يُسحب من أمامه. فلما غاب من يسحبه، عاد إلى موضعه القديم.

أما التربية الراشدة، فإنها تنقل مصدر الحركة إلى داخل الضمير. يبقى الإنسان وفيًّا للحق حين لا يراقبه القائد، وحين لا ينال مكافأةً من الجماعة، وحين يصبح الوفاء مكلفًا.

## هل يصنع القائد أتباعًا أم حملة رسالة؟

هناك قيادة تجمع الناس حول شخصها حتى لا يستطيعوا تخيل العمل من دونها. تحتكر المعرفة، والقرار، والشرعية، وتربط كل نجاح باسمها. كلما ضعفت مؤسسات الجماعة ازداد القائد بروزًا، حتى يبدو غيابه انهيارًا للكيان كله.

هذه القيادة قد تبدو قويةً في حياتها، لكنها تزرع الضعف في كل ما حولها.

أما النبي ﷺ، مع عصمته في التبليغ وكمال قيادته، فقد ربى أصحابًا يحملون الأمانة. علّمهم، وشاورهم، وأرسلهم دعاةً وقضاةً وأمراء، وصحح أخطاءهم دون أن يلغي شخصياتهم.

لم يكن يبني لنفسه عرشًا في نفوسهم، بل كان يبني لله محرابًا.

ولذلك استطاعت الأمة ـ بعد الصدمة الكبرى بوفاته ـ أن تمضي. لم يكن ذلك لقلة حبهم له، بل لأن تربيته نجحت في جعل حبهم له طريقًا إلى الثبات على ما جاء به.

القائد الحقيقي لا يُقاس بعدد الذين يقفون خلفه وهو حاضر، بل بقدرتهم على حفظ الرسالة حين يغيب.

## ومن ينقلب على عقبيه

قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾.

المرتد عن الطريق لا يثلم ملك الله، ولا يسقط الحق بخذلانه. إنما يعود الضرر عليه.

هذه الحقيقة تحرر العمل للدين من شعور المنّة. قد يتوهم الإنسان أن الرسالة لا تقوم إلا به، وأن انسحابه عقوبة ينزلها بها. لكن الله غني عنه، وعن جهده، وعن الناس أجمعين.

الدين لا يحتاج إلى فرد بعينه، وإن كان الفرد محتاجًا إلى شرف خدمته.

فإذا فتح الله لك بابًا لنصرة الحق، فلا تتعامل معه كأنك أنقذت الحق؛ بل احمده أن استعملك. قد تُستبدل في لحظة، ويبقى الطريق ممتدًا.

وكم من رجل ظن أن المشروع سيموت بعده، فمضى وبقي المشروع! وكم من صاحب قلم توهم أن المعنى ملكه، ثم أخرجه الله على ألسنة لم يعرفها!

الأمانة لا تتوقف عند حامل، وإن كان لكل حامل فضله.

## وسيجزي الله الشاكرين

لم تقل الآية: وسيجزي الله الصابرين هنا، مع عظمة الصبر، بل قالت:

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

لماذا الشكر في مقام الموت والاضطراب؟

لأن الشاكر هو الذي يعرف أن الرسالة نعمة من الله، وأن الرسول نفسه نعمة، لكنه لا يحول النعمة إلى حجاب عن المنعم. يشكر الله على بعثة محمد ﷺ بأن يثبت على دينه بعده.

الشكر ليس كلمة تقال عند حضور النعمة فقط؛ قد يكون وفاءً لها بعد غياب صورتها.

شكر المعلّم أن تحفظ العلم حين يغيب.

وشكر المربي أن تبقى على القيمة إذا لم يعد يراك.

وشكر الشهيد أن تحمل الأمانة التي مات لأجلها، لا أن تكتفي بمدحه.

وشكر النبي ﷺ أن يُتبع، وأن يكون الوحي الذي بلغه حاكمًا على الأهواء، لا أن تتحول محبته إلى احتفال عاطفي منفصل عن سنته.

## حين نزلت الآية للمرة الثانية في القلوب

مرت الأعوام، وجاء اليوم الذي لم يكن أصحابه يريدون تخيله.

مات رسول الله ﷺ.

هذه المرة لم تكن إشاعةً في ساحة أُحُد، بل حقيقةً في بيت عائشة رضي الله عنها. سكن الجسد الشريف، وانقطع الوحي، وارتجت المدينة.

بلغ الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يستطع قلبه في اللحظة الأولى أن يحمله. قام يقول إن رسول الله لم يمت، وإنه سيعود كما عاد موسى إلى قومه، وتوعد من يزعم موته.

لم يكن موقف عمر ضعف إيمان، بل صدمة حب تجاوزت قدرة النفس على الاستيعاب. أحيانًا يعرف العقل الحقيقة، لكن القلب يتأخر لحظات عن الوصول إليها.

وجاء أبو بكر رضي الله عنه. دخل على النبي ﷺ، وكشف عن وجهه، وقبله، وقال بكلمات الحب واليقين: طبت حيًّا وميتًا، وإن الموتة التي كتبها الله عليك قد ذقتها، ولن تموت بعدها أبدًا.

ثم خرج إلى الناس.

كان الحزن نفسه يسكن قلبه، لكنه لم يسمح للحزن أن يحجب الحقيقة. وقال:

«مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

وكان الصحابة يعرفون الآية ويحفظونها، لكنها نزلت يومئذ من الذاكرة إلى الجرح.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر.

ليس معنى ذلك أنهم لم يسمعوها من قبل، بل إن الصدمة حجبت حضورها، فلما تلاها الصديق فتحت الآية بابها المخبأ لذلك اليوم.

هناك آيات نقرؤها أعوامًا، ثم تأتي لحظة فنشعر أنها كانت تنتظرنا.

كأنها تعرف موعد ألمنا قبل أن نعرفه.

**لماذا ثبت أبو بكر؟**

ثبت أبو بكر لأنه أحب محمدًا ﷺ الحب الأصدق، والحب الصادق لا يخلط بين المحبوب وربه.

صحبه في الغار، وصدقه حين كذبه الناس، وأنفق ماله في نصرته، وفداه بنفسه، وكان أقرب الرجال إليه. ومع ذلك كان أعرفهم بأنه رسول الله وعبده.

لم تمنعه شدة المحبة من وضوح العقيدة، بل زادته وضوحًا.

أما الحب إذا انفصل عن التوحيد، فقد يرفض بشرية المحبوب؛ يرى الموت انتقاصًا منه، والضعف عيبًا، فيرفعه إلى مقام لا يرضاه هو لنفسه.

لكن أبا بكر كرم النبي ﷺ بأن صدق خبره عن نفسه: عبد ورسول، يجري عليه الموت.

الحب المؤمن لا يكذب الوحي ليحمي عاطفته.

## وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ **(١٤٥)**.

بعد أن واجهت الآيات احتمال موت النبي ﷺ، أعادت حقيقة الموت كلها إلى سلطان الله. لا تموت نفس قبل أجلها، ولا يستطيع الخوف أن يضيف إلى عمرها لحظة، ولا تستطيع الشجاعة المنضبطة أن تنتقص منه لحظة.

﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾؛ لكل حياة موعد مكتوب، لا يتقدم ولا يتأخر.

وهذا المعنى لا يدعو إلى التهور، بل يحرر الشجاعة من الذعر. يأخذ المؤمن بالحذر؛ لأنه مأمور، لكنه لا يعبد الحذر كأنه خالق الحياة.

قد يفر إنسان من واجب خوفًا من الموت، ثم يدركه الأجل في المكان الذي احتمى به. وقد يدخل آخر موطن الخطر بحق، فيعود لأن كتابه لم يكتمل.

الأجل لا يسأل عن سماكة الجدار.

## الموت لا يأتي بسبب واحد

نحن نربط الموت بأقرب سبب رأيناه: معركة، مرض، حادث. لكن الآية ترده إلى الإذن الإلهي. السبب واقع، والمسؤولية البشرية باقية حيث توجد، لكن السبب لا يستقل بخلق الموت.

قد يقتل المعتدي فيكون مجرمًا مسؤولًا، ويكون المقتول قد بلغ أجله الذي كتبه الله. لا تعارض بين القدر والمسؤولية: الله قدّر، والفاعل اختار فعله ويحاسب عليه.

والإيمان بالقدر لا يبرئ الظالم، كما أن إدانة الظالم لا تخرج الحدث من علم الله وسلطانه.

هذا التوازن يحمي العقل من طرفين: من تبرير الجرائم باسم القدر.

ومن تصور أن جريمة بشرية فاجأت الله أو خرجت على حكمه.

## ومن يرد ثواب الدنيا

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

بعد الحديث عن الموت، تضع الآية الإرادة تحت الضوء:

ماذا يريد الإنسان من سعيه؟

قد يقف اثنان في الصف نفسه، ويحملان الشعار نفسه، لكن أحدهما يريد الله والآخرة، والآخر يريد غنيمةً ومكانةً.

العمل واحد في أعين الناس، والوجهتان متباعدتان عند الله.

والدنيا ليست كلها مذمومةً؛ من طلب رزقًا حلالًا، أو نصرًا للحق، أو عمرانًا نافعًا، لم يخرج من العبودية. إنما الخلل أن تكون الدنيا الثواب الأخير، وأن تُستعمل الآخرة لغةً للوصول إليها.

قد يكتب الإنسان عن الحق ليشتهر.

ويقاتل ليُذكر.

ويتصدق ليُرى.

ويخدم جماعةً ليترقى.

فيحمل العمل شكل العبادة، بينما تتحرك روحه نحو الدنيا.

والنية ليست فكرةً هامشيةً تضاف إلى العمل؛ إنها الجهة التي يسافر إليها.

كانت السورة قد قالت في وصف الرماة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

لم تقل إن من أراد الدنيا خرج من الإسلام، بل كشفت اختلاط الإرادات داخل الصف المؤمن. قد يسكن في القلب إيمان صادق وحظ عاجل، ثم تأتي المحنة لتظهر أيهما يقود القرار.

وهذا يجعل المؤمن أقل اغترارًا بشعاراته. لا يكفي أن ينتمي إلى صف يريد الآخرة في الجملة؛ عليه أن يسأل عن إرادته الخاصة في اللحظة التي تلمع فيها الغنيمة.

الصف الصالح لا يلغي إمكان ضعف الفرد.

والتاريخ المجيد لا يمنح أبناءه عصمةً من إعادة الخطأ.

كل جيل ينبغي أن يخوض معركته مع إرادته.

**وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير**

قال تعالى:﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ **(١٤٦)**.

تخرج السورة بالمؤمنين من ضيق اللحظة إلى موكب طويل من الأنبياء وأتباعهم. لستم أول من أصابه القرح، ولا أول من رأى الطريق يشتد.

فما وهنوا في الداخل.

وما ضعفوا في القدرة العملية.

وما استكانوا للعدو.

قد يُجرح الجسد ولا يهن القلب.

وقد تقل الإمكانات ولا تستسلم الروح.

فالوهن عطب يصيب الإرادة، والضعف أثر يظهر في القدرة، والاستكانة انحناء داخلي للباطل. وقد ينزل بالإنسان شيء من الضعف البشري، لكنه يظل قادرًا على رفض الاستسلام.

فالاستكانة ليست نتيجة حتمية للضعف المادي؛ إنها قرار داخلي بأن يصبح الألم سيدًا.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾.

ليسوا متروكين في صبرهم. في اللحظة التي لا يرون فيها إلا العناء، تحيط بهم محبة الله. وما أصغر ألم الطريق إذا وُضع إلى جانب هذه المحبة، وإن بقي الألم في الحس ثقيلًا.

## وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧).

بعد أن أصابهم ما أصابهم، لم يبدأوا باتهام القدر، ولا بمدح بطولاتهم، بل بالاستغفار.

كانوا يعرفون أن إصلاح المعركة يبدأ من إصلاح العلاقة بالله.

قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

لم يطلبوا كشف أخطاء الآخرين قبل أن يفتشوا عما بينهم وبين الله. والصف الذي لا يعرف إلا تحميل خصمه مسؤولية كل هزيمة، ولا يجرؤ على مراجعة نفسه، سيظل يحمل أسباب سقوطه معه إلى المعركة التالية.

لكنهم لم يختزلوا الهزيمة في الذنوب وحدها ويتركوا الأسباب العملية. قالوا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

فطلبوا ثباتًا في الميدان.

ثم: ﴿وَانصُرْنَا﴾.

جمع دعاؤهم بين تطهير الداخل وطلب النتيجة في الخارج. لا يكفي أن نراجع الخطط وننسى القلوب، ولا أن نتحدث عن الذنوب ونهمل التدريب والتنظيم.

الجماعة المؤمنة تحتاج إلى توبةٍ وخطة.

إلى محرابٍ وميدان.

إلى نقاء مقصدٍ ودقة أداء.

## فآتاهم الله ثواب الدنيا

قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ **(١٤٨)**.

لم يطلبوا الدنيا وحدها، فجاءتهم الدنيا والآخرة. أما من يجعل الدنيا أكبر همه، فقد ينال منها شيئًا ويخسر الأوسع.

وصف ثواب الآخرة بالحسن، لأن نعيمها خالص من الشوائب. أما انتصار الدنيا فتخالطه كلفة، ويتهدده الزوال، وقد يعقبه امتحان جديد.

والآية لا تجعل النجاح الدنيوي دليلًا وحيدًا على القبول. قد يؤخر الله ثمرات بعض الصالحين إلى الآخرة، وقد يرى الإنسان أثر عمله بعد موته. لكن من صدق مع الله فلن يضيع سعيه، سواء رأى في الدنيا كل الثمرة أم طرفًا منها.

ثم ختمت الآية بغاية أرفع من الثوابين: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فالمحسن لا يعمل من أجل ما يأخذه وحده؛ إنه يعمل لأنه يرى نفسه بين يدي الله. وقد يمنحه الله نصرًا في الدنيا، وحسن ثواب في الآخرة، وفوق ذلك كله محبته سبحانه.

## إن تطيعوا الذين كفروا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ **(١٤٩)**.

بعد صدمة الهزيمة، تصبح النفوس مهيأةً لسماع الأصوات التي تعرض عليها السلامة بثمن الهوية. يقولون لها: لو تركتم هذا الطريق لما أصابكم ما أصابكم.

وهنا تكون الهزيمة العسكرية مهددةً بأن تتحول إلى هزيمة فكرية. فإذا أعاد المهزوم تفسير قيمه من خلال المنتصر، بدأ الانقلاب على الأعقاب.

ليست المشكلة في الاستفادة من خبرة الآخرين؛ فالحكمة النافعة تُطلب حيث وُجدت. وإنما المشكلة في الطاعة التي تسلم للمخالف حق تحديد المرجعية والغاية.

يمكن أن تتعلم منه أداةً، لكن لا تسلمه تعريفك لنفسك.

وتقتبس نظامًا نافعًا، لكن لا تجعل قوته دليلًا على صحة عقيدته.

فالمنتصر في الجولة ليس بالضرورة مالك الحقيقة.

﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

وقد تكون خسارة الهوية أشد من خسارة المعركة؛ لأن المهزوم في الميدان يستطيع أن ينهض، أما الذي هُزم في تصوره فقد صار ينظر إلى نفسه بعين خصمه، ويرى خلاصه في الذوبان فيه.

**بل الله مولاكم**

قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ **(١٥٠)**.

كلمة ﴿بَلِ﴾ تقطع تعلق القلب بالجهات التي توهمه أن نجاته في الخضوع لها.

الله مولاكم.

لا يعني هذا أن المؤمن يعيش بلا تحالف أو تعاون أو نصرة بشرية، بل يعني أن الولاية العليا لله، وأن كل علاقة تُقبل أو تُرد وفق ميزانه.

الناس ينصرون بقدر، وقد يخذلون.

يقتربون لمصلحة، ثم يبتعدون.

وقد يجعلون نصرتهم دينًا يطالبونك بسداده من عقيدتك وكرامتك وقرارك.

أما ولاية الله فلا تقوم على حاجته إليك، بل على رحمته بك.

﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

ينصرك وهو يعلم ضعفك كله، ولا يعجزه عدوك، ولا يطلب منك ثمنًا خارج عبوديتك له. وقد تكون نصرته بأن يمنحك الغلبة، وقد تكون بأن يحفظ قلبك من الانقلاب حين تفوتك الغلبة.

ومن عرف مولاه، لم يبع هويته في سوق الخوف.

## سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب

قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ **(١٥١)**.

تكشف الآية أن للقوة باطنًا هو القلب. قد يملك الجيش عددًا وسلاحًا، لكن الرعب إذا دخل داخله عطّل ما في يده.

كما أن المؤمن قد يكون قليلًا، لكن الطمأنينة تضاعف أثر قوته.

والشرك في أعماقه تشتيت؛ لأن صاحبه يتوزع بين قوى متعددة، يخشى هذا ويرجو ذاك، ولا يملك مركزًا يجمعه. أما التوحيد فيمنح القلب جهةً واحدةً، فيستقر.

﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

الباطل مهما انتفخت قوته يظل بلا سلطان من الحقيقة. قد يحميه السلاح مدة، وقد تزينه الدعاية، لكنه لا يملك برهانًا يسند القلب ساعة الانكشاف.

ولهذا يسكن الخوف في أعماق صاحبه؛ لأنه يعلم، ولو توارى ذلك العلم تحت طبقات المكابرة، أنه يقف على أرض لا تحمل وزن الحقيقة.

لكن لا يجوز للمؤمن أن يفهم الوعد فهمًا آليًّا، فيترك إعداد القوة وينتظر الرعب في عدوه. فالذي أنزل هذا الوعد هو الذي أمر بالصبر والتقوى والطاعة والثبات. النصوص لا تُضرب بعضها ببعض، بل تُحمل في بناء واحد.

ثم تنقل الآية النظر من خوف الدنيا إلى المصير الأخير: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾.

قد يجد الظالم في الأرض مأوى يحميه من المحاسبة حينًا، لكنه لا يجد خارج ملك الله مهربًا. وكل مأوى في الدنيا مؤقت، أما المثوى الأخير فهو الذي يكشف حقيقة الرحلة كلها.

## ولقد صدقكم الله وعده

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ **(١٥٢)**.

بدأت المعركة بنصر المسلمين. كانوا يقتلون المشركين ويهزمونهم بإذن الله. فالوعد لم يتخلف من البداية.

لكن النتيجة تغيرت حين تغير حالهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾.

ثلاث حلقات صنعت التحول: فشل داخلي.

ثم تنازع جماعي.

ثم عصيان عملي.

يبدأ الانهيار في الروح، ثم ينتقل إلى العلاقة، ثم يظهر في السلوك.

وقد يكون العكس جزءًا من العلاج: يتجدد اليقين، فتتوحد الوجهة، فتستقيم الطاعة.

## من بعد ما أراكم ما تحبون

قال تعالى: ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

لم يقع العصيان في بداية الشدة، بل بعد أن رأوا مقدمات النصر والغنيمة. أحيانًا يصبر الإنسان على الألم، ثم يسقط أمام ما يحب.

الشدة تجمع الصف؛ لأن الخطر ظاهر. أما الرخاء فيرخّي الحراسة، ويجعل كل نفس ترى نصيبها.

كم من مشروع تجاوز أيام الاضطهاد، ثم تمزق عند توزيع المكاسب!

وكم من جماعة ثبتت وهي محرومة، فلما فُتحت لها الدنيا تنازعت على المناصب!

إن رؤية ما نحب امتحان كما أن فقده امتحان. وقد يكون الثاني أوضح من الأول.

ثم كشفت الآية موضع المعركة الحقيقي: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

لم يكن الاختلاف على تفسير الأمر العسكري وحده، بل كانت خلفه إرادات متباينة. فالعين التي تعلقت بالغنيمة صنعت للعقل تأويلًا يبرر النزول من الجبل.

وكثيرًا ما تأتي الرغبة أولًا، ثم يستدعي العقل الحجج التي تخدمها. يظن الإنسان أنه اتخذ موقفه بعد تفكير محايد، بينما كانت إرادته الخفية قد اختارت النتيجة قبل أن يبدأ التفكير.

## ثم صرفكم عنهم ليبتليكم

قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

تغير اتجاه المعركة، لا لأن الله تخلى عنهم بلا حكمة، بل ليمتحنهم ويعلمهم. أصبحت الهزيمة مرآةً عمليةً لعاقبة المخالفة.

ثم جاءت الرحمة: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

العفو لم يمح الدرس، والدرس لم يغلق باب العفو.

هذه هي التربية المتوازنة: لا تسامح يطمس المسؤولية، ولا محاسبة تنكر إمكان التوبة.

ولو عفا القائد بلا بيان، تكرر الخطأ.

ولو بيّن بلا رحمة، تحطمت النفوس.

أما القرآن فسمّى الفشل والتنازع والعصيان، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

لم يجعل الله خطأهم نهاية تاريخهم، ولم يختزلهم في لحظة نزلوا فيها عن الجبل. كشف الجرح، وطهره، ثم أعاد أصحابه إلى الطريق.

## والله ذو فضل على المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

حتى حين يؤدبهم، فهو ذو فضل عليهم. فالعقوبة التي تعيد الإنسان إلى رشده قد تكون فضلًا أعمق من راحة تتركه في وهمه.

ليس كل لطف أن يُمنع عنك الألم. قد يكون اللطف أن يأتي الألم بقدر، فيوقظ موضعًا كان يقترب من الهلاك.

لو استمر النصر مع مخالفة الرماة، لتعلم الصف درسًا مدمرًا: أن الطاعة ليست ضرورية ما دامت النتيجة تأتي. لكن انقلاب الميدان وصل بين السبب وعاقبته، فبقي الدرس في ذاكرة الأمة.

وهكذا يكون بعض الوجع حارسًا للمستقبل.

## حب النبي بعد النبي

حين نزلت آية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾

لم تطلب من الصحابة أن يخففوا حبهم له، بل أن ينقوه. فالحب الذي يقود إلى اتباعه في حياته ثم الثبات على دينه بعد موته هو الحب الذي أراده الله.

أما أن يُكثر الناس من مدحه ثم يعطلوا سنته حين تخالف أهواءهم، فذلك احتفاء بالصورة وهجر للرسالة.

وأن يبكوا عند ذكره، ثم يظلموا الناس، ويخونوا العهد، ويتعصبوا للباطل، فذلك وجدان لم يبلغ بعد ثمرة المحبة.

لقد كان رحمةً للعالمين، فمن أحبه فليكن للناس من رحمته نصيب.

وكان أمينًا، فمن أحبه فليحفظ الأمانة.

وكان عادلًا، فمن أحبه فلا يجعل قرب الأشخاص سببًا لبخس الحقوق.

وكان متواضعًا، فمن أحبه فلا يبنِ من علمه أو قيادته عرشًا فوق الناس.

ليس الوفاء له ﷺ كثرة الحنين وحدها، بل أن تظل أخلاق النبوة حاضرةً حين يغيب الجسد.

## الرسالة بعد غياب حاملها

كل جيل من المسلمين لم ير النبي ﷺ بعينيه، لكنه تلقى أثره في القرآن والسنة. وهذا يعني أن الإسلام من بعده قائم على أمانة النقل والفهم والاتباع.

لم يعد الوحي ينزل ليصححنا مباشرةً عند كل خطأ؛ صار بين أيدينا الكتاب، وبيان الرسول، وميراث من العلم يحتاج إلى أمناء.

وهنا تزداد خطورة التحريف باسم الحب، والقول على النبي ما لم يقل، وتحويل السنة إلى مادة انتقائية نأخذ منها ما يخدم أهواءنا.

من أحب الرسول تحرى صدق النسبة إليه. فلا ينشر حديثًا لمجرد أن معناه أعجبه، ولا يجعل العاطفة بديلًا من التثبت.

الكذب عليه ليس خدمةً لمقامه، ولو قصد صاحبه الترغيب. فالرسول الذي جاء بالصدق لا يحتاج إلى كذبة كي يُحب.

## إن غاب الرجل فلا تغيب القيمة

لا تخص الآية علاقة الأمة بالنبي ﷺ وحده، مع خصوصية مقامه. إنها تربي الوعي على التمييز بين الأشخاص والقيم في كل مستوى.

قد يموت عالم، فلا يموت العلم.

ويغيب قائد، فلا تسقط القضية.

ويرحل أب، فتبقى المبادئ التي زرعها.

ويُقتل شهيد، فتنتقل أمانته إلى الأحياء.

لكن الجماعات التي لا تبني المؤسسات والمعايير تجعل موت الأشخاص موتًا للخبرة كلها. تبدأ من الصفر كلما غاب قائد؛ لأن المعرفة كانت محفوظةً في صدره، والقرار محصورًا في يده، ولم يُسمح للجيل التالي أن ينضج.

إن الوفاء للراحل لا يكون بتجميد الزمن عنده، بل باستكمال ما بدأه على هدى الحق. ليس المطلوب أن نصنع منه نسخةً مقدسةً نكررها، بل أن نحمل الجوهر الذي عاش له إلى أسئلة زماننا.

## بين التعلق والاقتداء

التعلق يريد وجود الشخص لنسكن إليه.

والاقتداء يريد هديه لنسير به.

التعلق قد يجعل الإنسان عاجزًا بعد الفقد.

أما الاقتداء فيجعل الغائب قوةً أخلاقيةً في الحاضر.

كان الصحابة أشد الناس تعلقًا بالنبي ﷺ حبًّا، لكن القرآن نقلهم من الاتكال على حضوره إلى مسؤولية الاقتداء به. فلم يعودوا بعد وفاته أطفالًا يتامى في التاريخ، بل صاروا حملةً للرسالة إلى الأمم.

خرجوا من المدينة، وفي قلوبهم صوته، لكنهم لم ينتظروا أن يعود جسده ليقودهم. كان الكتاب بين أيديهم، والسنة في وعيهم، ورب محمد حيًّا قيومًا فوقهم.

## وسيجزي الله الشاكرين

تكرر وعد الشاكرين في السياق؛ لأن الشكر هو الجسر بين زمن النعمة وزمن المسؤولية.

شكر الصحابة بعثة الرسول بأن لم يدفنوا رسالته معه.

حفظوا القرآن.

وبلغوا السنة.

ودعوا الأمم.

وجاهدوا.

واختلفوا واجتهدوا، وظل أصل المرجعية قائمًا.

لم يكن تاريخهم معصومًا، فهم بشر، لكن فضل حملهم للأمانة لا يُهدر، كما أن فضلهم لا يمنح التاريخ كله عصمة. العدل أن نعرف لهم سبقهم، ونزن ما وقع بميزان الوحي الذي حملوه.

## الرسالة لا تبحث عن بديل للنبي

بعد وفاة الرسول ﷺ لم يحتج المسلمون إلى شخص يحل محله في النبوة؛ فقد ختم الله به النبيين. كانوا يحتاجون إلى خليفة يدير أمر الأمة وفق الوحي، لا إلى وسيط جديد بين الله والناس.

وهذا فرق جوهري.

الحاكم بعد النبي ليس مقدسًا.

والعالم ليس معصومًا.

والولي لا يأتي بتشريع جديد.

كلهم يُعرضون على الكتاب والسنة، ويُقبل منهم ويُرد.

إن ختم النبوة تحرير دائم للأمة من أن يطالبها أحد بطاعة نبوية بعد محمد ﷺ. لم يبق لأحد أن يقول: قولي حجة بذاته. الحجة فيما جاء به الرسول الخاتم، والاجتهادات البشرية تتحرك تحت ميزانه.

## حين يصبح الغياب تكليفًا

قد نشعر أمام رحيل العظماء أن العالم صار أفقر. وهذا صحيح من جهة؛ فبعض الأشخاص لا يعوّض حضورهم. لكن الفقد لا يسألنا عما نشعر به فقط، بل عما سنفعله بما تركوه.

هل نحول ذكراهم إلى بكاء يستهلك الطاقة؟

أم إلى أمانة توقظها؟

ليس كل حزن ضعفًا؛ الحزن دليل محبة. لكن أجمل الوفاء أن ينبت من موضع الدمع عمل.

هكذا فعل أبو بكر. بكى النبي ﷺ وقبّله، ثم خرج إلى الأمة فثبّتها. لم يمنعه الحزن من القيادة، ولم تمنعه القيادة من الحزن. جمع رقة المحب وصلابة الموحّد.

## الفصل العاشر

## من الآية (١٥٣) إلى الآية (١٦٠)

## إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد

قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ **(١٥٣)**.

مشهد شديد الحركة: قوم يمضون مسرعين، لا يلتفت بعضهم إلى بعض، والرسول ﷺ خلفهم يناديهم.

الخوف يفكك الإحساس بالجماعة. حين يشتد، يضيق العالم حتى يصير الإنسان جسدًا يبحث عن النجاة الفردية. لا يسمع نداء القائد، ولا يرى أخاه، ولا يتذكر المعنى الذي جاء يقاتل لأجله.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾.

كان صوت النبوة يدعوهم إلى العودة، لكن ضجيج الخوف كان أعلى في نفوس بعضهم من النداء الذي يعرفون وجوب طاعته.

وفي هذا المشهد يظهر الفرق بين المعرفة في السكون والمعرفة تحت الصدمة. كانوا يعرفون وجوب طاعة الرسول، لكن الخوف العالي قد يحجب عن الوعي ما يعرفه.

ولهذا تحتاج القيم إلى تدريب حتى تصير استجابةً راسخة، لا معلومةً تُستدعى في الظروف المريحة فقط. فليس المهم أن تعرف معنى الثبات وأنت آمن، بل أن يبقى لهذا المعنى سلطان عليك حين تضطرب الأرض من حولك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾.

تتابعت الغموم: فوات النصر والغنيمة، ووقوع القتل والجراح، وإشاعة مقتل النبي ﷺ؛ حتى صار الغم الأكبر يُنسي ما قبله.

واستعملت الآية لفظ ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ في موضع الغم، وفيه ما يشعر بأن ما أصابهم كان جزاءً تربويًّا، لا عبثًا. لقد دخل الألم نفسه في صناعة الوعي.

أحيانًا يأتي وجع كبير، فيكشف للإنسان صغر أشياء كان يحزن عليها. كان بعضهم يريد الغنيمة، ثم صار كل ما يتمناه أن يعلم أن النبي ﷺ حي. تغير ميزان القيمة في ساعات.

كم نحتاج أحيانًا إلى صدمة تعيد ترتيب ما في داخلنا! لا نطلب البلاء، لكننا إذا نزل عرفنا أن كثيرًا مما استهلك قلقنا لم يكن يستحق ذلك كله.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾.

لم يعد ما فاتهم من الغنيمة هو مركز الشعور، ولم تعد الجراح وحدها نهاية النظر. جاء الغم ليخلع القلب من التعلق بما فات، وليعلمه أن الخسارة الكبرى ليست دائمًا ما يظنه في اللحظة الأولى.

ثم ختمت الآية: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

يعرف حركة الأقدام حين فرت، وحركة القلوب التي دفعتها، ويعلم من ثبت ومن اضطرب، ومن غلبه الخوف لحظةً ثم عاد. وعلمه سبحانه ليس كعلم البشر الذي يقف عند ظاهر الفعل؛ إنه خبير بالدوافع، والضعف، والندم، وما بقي في النفس من استعداد للتوبة والنهوض.

## ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاسًا

**قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٥٤).**

في قلب ساحة المعركة، بعد الدم والخوف، نزل النعاس على المؤمنين.

إنه نعاس لا يصنعه الاطمئنان بالأسباب؛ فالأسباب من حولهم كانت تنذر بالخطر. وإنما هو سكينة أودعها الله في الأجساد المرهقة، حتى هدأت الأعصاب واستردت النفوس توازنها.

كم يكون النوم رحمةً حين يرفض القلق أن يترك الإنسان! يغلق الله به أبواب الوعي قليلًا، ليرمم الجسد ما هدمه الخوف.

ووصفه الله بأنه: ﴿أَمَنَةً﴾.

فقد ينام الإنسان من شدة الإنهاك ولا يجد في نومه أمنًا، فيطارده الفزع في أحلامه. أما هذا النعاس فكان غشاء سكينة، يحمل رسالة خفية إلى القلوب: لستم متروكين.

لكن طائفةً أخرى لم تنلها الأمنة: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

حين لا يرى الإنسان إلا نفسه، تضيق عليه الدنيا. تصبح القضية كلها سؤالًا عن نجاته الشخصية، وتتراجع الرسالة والجماعة والواجب وراء هذا الهم المتضخم.

فالسكينة ليست انعدام الخطر، بل حضور الثقة بالله داخله. وقد ينام مؤمن في قلب الخطر، ويبقى آخر مستيقظًا في أشد المواضع أمنًا؛ لأن الأول أسند قلبه إلى الله، والثاني أسنده إلى حساباته.

## يظنون بالله غير الحق

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

المعركة لم تكشف مهارة المقاتلين وحدها؛ كشفت تصورهم عن الله. فالظن بالله لا يظهر كاملًا حين تسير الأمور كما نحب، بل حين تتكسر الصورة التي توقعناها.

كان بعضهم يظن أن وجود الرسول بينهم يقتضي ألا تقع هزيمة، وأن الانتساب إلى الإيمان يمنحهم نصرًا لا يتأثر بالطاعة والمعصية، ولا بالإعداد والتنازع.

وهذا من ظن الجاهلية؛ لأن الجاهلية لا تعني غياب المعلومات وحده، بل كل تصور عن الله لا يليق بحكمته وعدله وربوبيته.

ومن ظن أن الله يجب أن يجري له القدر وفق هواه، فقد جعل رغبته ميزانًا للحكمة. فإذا جاء الحدث على غير مراده، أساء الظن بربه بدل أن يراجع فهمه وعمله.

الإيمان ليس أن تثق بالله ما دامت خطتك ناجحة؛ بل أن يبقى الله في قلبك حكيمًا رحيمًا حين لا تفهم بعدُ موضع الحكمة والرحمة.

**هل لنا من الأمر من شيء؟**

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

لم يقل: ليس لكم عمل ولا مسؤولية؛ فقد أمرهم بالقتال والطاعة والثبات. وإنما رد الأمر في نهايته إلى الله.

للبشر الاختيار الذي يحاسبون عليه، وعليهم الأخذ بالأسباب التي كُلّفوا بها، لكنهم لا يملكون سلطانًا مستقلًّا على النتائج. يزرعون ولا يخلقون النبات، ويخططون ولا يملكون الغيب، ويقاتلون ولا يكتبون الآجال.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

هذه الكلمة لا تلغي حركة الإنسان، بل تحرره من وهم الربوبية. افعل ما عليك كاملًا، ثم لا تتصرف كأن الكون كان ملزمًا بتنفيذ تصورك.

## يخفون في أنفسهم

قال تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

أُحُد لم تكشف مواقع الرماة فقط؛ كشفت مخابئ القلوب. أظهرت أن بعض الصف كان يحمل ظنونًا لم تظهر في أيام العافية.

المحنة ترفع الغطاء.

فالإنسان يستطيع أن يحسن ترتيب عباراته في الرخاء، لكن الضغط يدفع ما في الأعماق إلى السطح. ومن هنا كانت الأزمات كاشفةً للقيادات والجماعات والأفراد.

لا تُعرَف الأمانة من الشعارات وحدها، بل من لحظة تتعارض فيها المصلحة مع الحق.

ولا يُعرف الثبات من الخطب، بل حين يغيب النصر القريب.

ولا يُعرف التوكل حين تستجيب الأسباب، بل حين تتركك واقفًا أمام باب مغلق.

## لو كان لنا من الأمر شيء

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

إنها محاولة لقراءة الماضي من موقع المتفرج الذي عرف النتيجة. وبعد ظهور النتيجة يبدو البديل دائمًا واضحًا وسهلًا، ويظن صاحبه أنه كان سيمنع الألم كله لو كان القرار إليه.

لكن الإنسان حين يقرر لا يرى المستقبل مكشوفًا. يجتهد بما لديه، ويستشير، ويأخذ بالأسباب، ثم تقع النتيجة داخل قدر الله.

وقد تكون عبارة «لو كان الأمر إلينا» ستارًا يخفي رغبةً أعمق: لو جرى العالم وفق أهوائنا لما وقع ما نكره. لكن العالم لا تديره رغباتنا المحدودة؛ يديره علم الله الذي يرى ما قبل الحدث وما بعده، وما نراه وما لا نراه.

## قل لو كنتم في بيوتكم

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

كان المنافقون يظنون أن البيت يستطيع أن يحبس الأجل، وأن القرار البشري هو الذي أنشأ الموت.

فيرد القرآن بأن الذين كتب عليهم القتل كانوا سيبرزون إلى مواضعهم.

هذا لا يلغي مسؤولية التخطيط ولا يبرر التهور. الإسلام يأمر بالحذر، والنبي ﷺ لبس لأمته، واستشار أصحابه، ورتب الصفوف. لكن بعد بذل السبب لا ينبغي أن يتحول الندم إلى اعتراض على القدر.

هناك فرق بين مراجعة القرار لتتعلم، وبين إعادة الماضي لتعذيب نفسك بوهم أنك كنت تملك السيطرة الكاملة.

قل: أخطأنا هنا، وكان ينبغي أن نفعل كذا، ثم تعلم. لكن لا تقل في قلبك: لو أنني فعلت لأبطلت ما كتبه الله قطعًا. أنت مسؤول عن اختيارك، ولست ربًّا للنتائج.

## وليبتلي الله ما في صدوركم

قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الله يعلم ما في الصدور قبل الابتلاء، فلا يختبر ليعلم بعد جهل، تعالى الله. وإنما يبتلي ليظهر المكنون في الواقع، وليقوم عليه الجزاء، وليعرف الإنسان نفسه.

فكم يحمل القلب من أشياء لا يراها صاحبه!

يظن نفسه مخلصًا حتى ينافسه أحد.

ويظن نفسه زاهدًا حتى يفوته المال.

ويظن نفسه شجاعًا حتى يقترب الخطر.

ويظن نفسه متوكلًا حتى تتعطل الخطة.

ثم يأتي الابتلاء كمرآة لا تجامل.

ليس المقصود أن تحتقر نفسك بعد أن ترى ضعفها، بل أن تبدأ علاجًا صادقًا. فالله الذي كشف الخلل هو الذي فتح باب التوبة، والذي محص القلب لم يرد هلاكه، بل تطهيره.

## إن الذين تولوا منكم

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ **(١٥٥)**.

الزلة لا تنشأ دائمًا في لحظتها. قد تكون ثمرة أشياء سابقة لم يعالجها الإنسان: ذنب صغير يُستهان به، أو تعلق لم يُطهَّر، أو عادة في التراجع؛ ثم تأتي المعركة الكبرى فتجد في النفس موضعًا هشًّا.

الشيطان لا يصنع الضعف من العدم؛ يبحث عن شق سابق فيوسعه.

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾.

ما يصنعه الإنسان في أوقات السعة يدخل معه إلى ساعات الشدة. الطاعة القديمة قد تتحول ثباتًا عند الصدمة، والمعصية التي أُهملت توبتها قد تصير ثغرة ينفذ منها الخذلان.

ولهذا فإن المعاصي التي نظنها منفصلةً عن قضايا الأمة قد تظهر آثارها حين يحتاج الصف إلى أقصى طاقته الأخلاقية. الإنسان وحدة واحدة؛ ما يفعله في خلوته يدخل معه إلى الميدان، ولو لم يره أحد.

لكن الآية لا تنتهي عند كشف السبب:

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾.

مرةً أخرى يأتي العفو بعد التشخيص. لم يطردهم الله من دائرة الإيمان، ولم يجعل لحظة الفرار هويتهم الأبدية.

إنه سبحانه يعلم ضعف البشر، ويفتح لهم بعد العثرة طريق العودة.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يغفر الذنب، ويحلم على صاحبه، فلا يعاجله بالعقوبة، ولا يغلق الباب في وجهه. والحلم يمنح العبد مساحةً يعود فيها، لكنه لا ينبغي أن يتحول عنده إلى جرأة على تكرار الخطيئة.

## لا تكونوا كالذين كفروا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **(١٥٦)**.

كلمة «لو» قد تكون أداة تعلم، وقد تكون باب اعتراض يفتح الحزن بلا نهاية. أولئك جعلوها طريقًا إلى الحسرة، كأن بقاء الناس عندهم يمنحهم الخلود.

قالوا عن إخوانهم إذا خرجوا في سفر أو كانوا غزاة:

﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

يتكلمون كأن الموت لا يعرف طريقه إلى البيوت، وكأن من بقي بينهم خرج من سلطان الأجل.

ثم قال تعالى:

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

من ظن أنه كان يملك منع كل ألم، سيعيش معذبًا بكل ما لم يمنعه. أما المؤمن فيراجع مسؤوليته، ثم يسلّم ما وراء قدرته لله.

الحسرة ليست في وقوع المصيبة وحدها، بل في التفسير الذي يضعه الإنسان لها. قد يحمل مؤمن ومنافق الجنازة نفسها، لكن الأول يحزن وهو يعلم أن الأمر لله، والثاني يحزن ويخاصم قدرًا يتوهم أنه كان يستطيع إبطاله.

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

ليست الحياة في حراسة البيوت، ولا الموت في ساحات القتال وحدها. كم من خارج إلى الخطر عاد، وكم من آمن في فراشه جاءه الأجل!

ليس المقصود إلقاء النفس إلى التهلكة، بل تحريرها من وهم أن الحذر يخلق الخلود.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يبصر الحذر حين يكون طاعةً وعقلًا، ويبصره حين يتحول إلى ذريعة للهرب من الواجب. قد يتشابه الفعلان في ظاهرهما، لكن البصير سبحانه يعلم ما حمل كل إنسان على فعله.

## ولئن قُتلتم في سبيل الله

قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ **(١٥٧)**.

ما يجمعه الناس ينتهي عند الموت، أما المغفرة والرحمة فتبدآن في الموضع الذي ينتهي عنده الجمع.

الدنيا تقيس الخسارة بما فارقته اليد.

والقرآن يقيس الربح بما استقبلت به الروح ربها.

قد يموت إنسان بين كنوزه، فيغادرها صفر اليدين. وقد يسقط آخر في سبيل الله، فيدخل على مغفرة ورحمة خير من كنوز الأرض.

هذا لا يهوّن حرمة الدم، ولا يحول الموت إلى شيء يُطلب لذاته. إنما يعيد ترتيب الخوف: ليست المصيبة الكبرى أن تنتهي الحياة، بل أن تنتهي بعيدًا عن مغفرة الله.

وقدّم الله المغفرة على الرحمة؛ كأن أول ما تحتاج إليه الروح وهي تقدم عليه أن يُرفع عنها ثقل الذنوب، ثم تغمرها الرحمة. فالنجاة ليست مجرد خروج من ألم الدنيا، بل دخول آمن على الله.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

كل مجموع في الأرض متفرق يومًا: المال، والبيوت، والمواقع، والأسماء. أما ما عند الله فلا يدخل عليه الفناء.

## وإلى الله تُحشرون

قال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ **(١٥٨)**.

تختلف أسباب الموت، لكن الوجهة واحدة.

قد يموت المرء على فراشه، وقد يُقتل في ميدان، وقد يأتيه الأجل في طريق بعيد؛ لكن شيئًا من ذلك لا يغير الحقيقة الأخيرة:

﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ليست القضية إذن: كيف خرج الإنسان من الدنيا فقط؟ بل: على أي حال خرج، وماذا حمل معه إلى الله؟

والحشر إلى الله يعيد ترتيب الحياة كلها. فما دام اللقاء واقعًا، فلا ينبغي أن تكون النجاة القصيرة في الدنيا سببًا لخسارة طويلة في الآخرة.

قد يهرب الإنسان من موقف حق ليحفظ أيامًا معدودة، ثم يُحشر إلى الله حاملًا خذلانه. وقد يثبت آخر، فيخسر من عمره في حساب الأرض، لكنه يجد ما بذله محفوظًا عند الله.

والآية لا تترك الإنسان يتصور الموت سقوطًا في الفراغ. هناك حشر؛ اجتماع بعد التفرق، وقيام بعد الموت، ووقوف بين يدي العدل الذي لا تضيع عنده قصة إنسان.

## فبما رحمة من الله لنت لهم

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ **(١٥٩)**.

بعد ذكر الفرار والخطأ والغم، يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

كان لين النبي ﷺ نفسه أثرًا من رحمة الله. لم يكن مجرد مزاج شخصي، بل أداة ربانية لحفظ الجماعة بعد الانكسار.

كان يمكن للغضب أن يجد ألف مبرر:

خالفوا الأمر.

وتركوا الثغر.

وتسبب خطؤهم في قتل الشهداء.

وجُرح النبي ﷺ.

لكن الله لم يأمره أن يحول ألمه إلى قسوة عليهم.

القائد قد يكون مجروحًا، وإذا لم يطهّر جرحه بالرحمة، استعمل سلطته للانتقام ممن أخطؤوا. عندئذ يتحول التصحيح إلى إذلال، وتصبح الجماعة ساحةً يدفع فيها الناس ثمن ألم قائدهم.

أما النبي ﷺ فكان أكبر من أن يجعل جرحه الشخصي معيارًا وحيدًا للحكم.

## ولو كنت فظًّا غليظ القلب

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

قد يملك القائد الحقيقة، ثم يخسر الناس بالطريقة التي يحملها بها. فصحة المبدأ لا تعفي صاحبه من أخلاق البلاغ.

الفظاظة خشونة في القول، وغلظ القلب قسوة في الداخل. وقد يضبط الإنسان ألفاظه، لكن الناس يشعرون بأنه يحتقرهم؛ لأن القلب يتسرب إلى العبارة وإن تزينت.

والانفضاض نتيجة طبيعية لقسوة القيادة. قد تبقي القوة الناس حول القائد بأجسادهم، لكنها لا تبقي قلوبهم. وأول فرصة تسمح لهم بالمغادرة تكشف أن الاجتماع كان خوفًا لا ولاءً.

القيادة النبوية لا تبني الانضباط على سحق الكرامة، بل تجعل الطاعة في جو من الرحمة والأمانة. والحزم فيها قائم، لكنه حزم لا يتلذذ بالإيذاء.

## فاعف عنهم واستغفر لهم

قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

العفو يعالج ما بين النبي ﷺ وبينهم، والاستغفار يطلب إصلاح ما بينهم وبين الله.

يا لجمال القيادة التي لا تكتفي بألا تنتقم، بل تدعو للمخطئ أن يغفر الله له!

إنها لا ترى الإنسان من خلال عثرته وحدها. ترى تاريخه، وإيمانه، وما بقي فيه من قابلية النهوض.

بعض القادة يجمدون المرء عند أسوأ لحظة في حياته. كلما حاول أن يعود، ذكّروه بسقوطه؛ حتى يشعر أن التوبة لا تغير صورته عندهم.

أما الوحي فيعلمنا أن الخطأ واقعة، لا هوية أبدية، إذا صدقت التوبة.

## وشاورهم في الأمر

ثم تأتي المفاجأة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

إنهم الذين وقع منهم ما وقع، ثم يؤمر النبي ﷺ أن يشاورهم.

لم تُسحب منهم كرامتهم السياسية والتربوية بسبب خطئهم. فإقصاؤهم الكامل كان سيحوّل الندم إلى عجز، وربما صنع في داخلهم شعورًا بأنهم لم يعودوا جزءًا من الرسالة.

الشورى هنا إعادة إدماج للنفوس بعد التوبة.

وهي كذلك إعلان أن القيادة لا تحتكر الحكمة، حتى وهي قيادة نبي مؤيد بالوحي فيما أوحي إليه. فكيف بمن دونه؟

القائد الذي لا يسمع إلا صوته يحرم نفسه من العقول التي حوله، ثم يحمل الجماعة نتائج ضيق رؤيته. وقد يطلب المشورة شكليًّا بعد أن يكون القرار قد اتخذ، فلا تكون الشورى إلا زينة.

أما الشورى الحقيقية فتمنح الرأي فرصةً للتأثير، وتحفظ للناس إحساسهم بالمسؤولية المشتركة.

## فإذا عزمت فتوكل على الله

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

للشورى وقت، وللعزم وقت. فإذا اتضح القرار، لا ينبغي أن يتحول النقاش إلى تردد دائم. القيادة التي لا تعرف لحظة الحسم تستهلك الجماعة في الاحتمالات.

لكن العزم لا يعني التوكل على دقة الخطة؛ قال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

استشر، وادرس، وخطط، ثم اعلم أن القرار لا يخلق نتيجته. التوكل يأتي بعد استفراغ الوسع، لا بدلًا منه.

ولو كانت الخطة الكاملة تضمن النتيجة، لما احتاج صاحبها إلى التوكل. إنما يتوكل لأن بين السبب والثمرة مساحةً لا يملكها إلا الله.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

المتوكل لا يترك السبب، ولا يعبد السبب. يتحرك بجوارحه في الأرض، بينما يستند قلبه إلى الله. فإذا نجحت خطته لم يغتر، وإذا تعطلت لم ينهدم؛ لأنه لم يكن متكئًا عليها وحدها.

## إن ينصركم الله فلا غالب لكم

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ **(١٦٠)**.

لا تعني الآية ترك الاستعداد، بل تعيد الاستعداد إلى حجمه الصحيح. السلاح لا ينصر وحده، والعدد لا ينصر وحده، والذكاء لا ينصر وحده.

قد تجتمع أسباب القوة ثم يتسرب الوهن إلى القلوب، أو يقع خلاف يهدم الخطة، أو تنشأ ثغرة صغيرة تقلب الموازين.

وقد تقل الأسباب، ثم يضع الله في القليل بركةً لا يحملها الكثير.

فلا يغتر صاحب القوة، ولا ييأس صاحب القلة.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾.

السؤال لا ينتظر جوابًا؛ فلا أحد. قد تجتمع الأرض كلها حول الإنسان، فإذا وكله الله إلى نفسه لم تصنع له كثرتها نصرًا. وقد تخلى عنه أهل الأرض، فإذا تولاه الله لم يضره أنه يسير قليل الرفاق.

لكن الخذلان لا يُفهم بمعزل عن أسبابه التي كشفتها السورة: فشل، وتنازع، وعصيان، وإرادة للدنيا. فمن طلب ولاية الله، فليقم بحق العبودية، وليحذر الأسباب التي تحجب عنه مددها.

ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

الإيمان الذي لا يصل إلى موضع الاعتماد ما يزال ناقص الأثر. قد يقول اللسان إن الله قادر، ثم يتصرف القلب كأن كل شيء معلق بشخص أو جهة أو مال.

والتوكل ليس كلمةً تقال عند العجز فقط؛ إنه تحرير مستمر للقلب من عبادة ما في يده.

## الفصل الحادي عشر

## من الآية (١٦١) إلى الآية (١٦٨)

## وما كان لنبي أن يَغُلَّ

قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١).**

بعد الحديث عن الغنيمة التي رأى بعض الرماة بريقها، تقطع الآية الطريق على كل ظن سيئ بمقام النبوة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

ليس من شأن نبي أن يخون في غنيمة، أو يكتم حقًّا، أو يستأثر لنفسه بما اؤتمن عليه. فالنبوة مقام اصطفاء، والأمانة ليست خُلُقًا زائدًا فيها، بل هي من جوهرها.

إن الذي ائتمنه الله على وحي السماء لا يخون الناس في متاع الأرض.

والتعبير ﴿وَمَا كَانَ﴾ أبلغ من مجرد النهي؛ فهو ينفي أن يكون الغلول مما يليق أصلًا بمقام النبوة. كأن الخيانة غريبة عن هذا المقام، لا تجد فيه موضعًا تستقر فيه.

وفي هذا تربية للأمة على صيانة سمعة الأمناء، وألا تجعل اضطراب الأحداث ذريعةً لسوء الظن بمن عُرفت أمانته. فالنفوس التي تشتعل فيها شهوة المال قد تظن أن الآخرين ينظرون إليه بعينها نفسها.

ومن اعتاد الخيانة يسهل عليه أن يتهم الأمين؛ لأنه يقيس القلوب على قلبه.

لكن الآية تنتقل من تبرئة النبي ﷺ إلى تهديد كل من تمتد يده إلى المال المشترك: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ما أُخذ خفيةً في الدنيا سيظهر علانيةً في الآخرة.

كان الغال يظن أن فعلته اختفت؛ أخفاها عن أعين القائد، وعن رفاقه، وربما محا أثرها من السجلات. لكنه لم يخرج بها من علم الله، وإنما نقلها من موضع يمكنه أن يتوب منه إلى مشهد سيحمل فيه فضيحته أمام الخلائق إن لم يتداركه الله بتوبة صادقة.

إن الأشياء التي نأخذها بغير حق لا تصبح ملكًا لنا؛ تتحول إلى أحمال.

قد يدخل المال الحرام إلى الجيب خفيفًا، لكنه يخرج يوم القيامة ثقيلًا على الظهر.

والغلول لا يقتصر معناه الأخلاقي على غنائم المعركة؛ فكل يدٍ استؤمنت على مال عام أو حق مشترك، ثم اقتطعت منه لنفسها، تحمل في فعلها روح الغلول.

من يستعمل موقعه ليأخذ ما ليس له، أو يجعل أموال الجماعة ملكًا شخصيًّا، أو يوزع الحقوق بحسب القرب والولاء، لم يفهم أن الأمانة ستخرج يوم القيامة من خزائن الأرض إلى ساحة الحساب.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

كل نفس ستلقى كسبها كاملًا، لا يُنقص من حسناتها شيء، ولا تُحمَّل ذنب غيرها، ولا تُدان بتهمة لم تفعلها.

يا لعدل اليوم الذي تنتهي فيه قدرة الأقوياء على كتابة التقارير ضد الأبرياء، وتنتهي قدرة المخادعين على إخفاء السجلات!

هناك لا يُدان إنسان بشائعة، ولا ينجو خائن بسلطانه، ولا تضيع أمانة لأن صاحبها كان مجهولًا.

## بين رضوان الله وسخطه

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ **(١٦٢)**.

تقيم الآية ميزانًا لا يسمح بمساواة الطريقين: طريق يتبع صاحبه رضوان الله.

وطريق يرجع صاحبه محملًا بسخطه.

قد يتشابه الرجلان في الصورة، ويدخلان الميدان نفسه، ويرفعان الشعار نفسه، لكن أحدهما يراقب رضا الله، والآخر تجره الغنيمة أو المكانة أو هوى النفس.

الفارق الحقيقي لا يبدأ دائمًا من حجم الفعل، بل من الجهة التي يتبعها القلب.

قال تعالى: ﴿اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

فالرضوان ليس تابعًا لأهواء الإنسان؛ الإنسان هو الذي يتبعه. لا يقرر ما يحب أولًا، ثم يبحث عن فتوى تجعل الله راضيًا عنه. وإنما يسأل: أين رضا الله؟ ثم يحمل نفسه إليه، ولو خالف شهوته ومصلحته القريبة.

أما الآخر فقد: ﴿بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

عاد بالسخط كمن رجع بحمل أحاط به. خرج يطلب مكسبًا صغيرًا، فعاد بخسارة لم تكن في حسابه.

وكم من إنسان ربح موقفًا عند الناس، وخسر مقامه عند الله!

وكم من رجل نال المال الذي أراده، لكنه حمل معه ظلمةً في القلب لا تساويها خزائن الأرض!

﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

المأوى هو الموضع الذي يرجع إليه الإنسان ويستقر فيه. ويا لبؤس من جعلت الخيانة والهوى نهاية طريقه، حتى لم يجد في ختام الرحلة إلا النار.

الآية تعلمنا ألا نقيس القرارات بما تمنحه في أول الطريق فقط، بل بالمصير الذي تقود إليه. فقد يكون أول الحرام لذة، وآخره مأوى لا يُطاق.

## هم درجات عند الله

قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ **(١٦٣)**.

ليس الناس عند الله كتلةً واحدة، ولا تتساوى الأعمال لمجرد تشابه مظاهرها.

هناك درجات يرتفع إليها أهل الرضوان، ودركات يهبط إليها أهل السخط. وكل خطوة أخلاقية يخطوها الإنسان تصنع موضعه، وإن لم يشعر بحركتها في اللحظة نفسها.

الصلاة ليست سواءً في كل القلوب.

والإنفاق ليس سواءً في كل الأيدي.

والقتال ليس سواءً في كل النيات.

والكلمة الواحدة قد يقولها إنسان لله، ويقولها آخر ليُرى، فتتشابه الحروف وتفترق الدرجات.

﴿عِندَ اللَّهِ﴾.

قد تتبدل درجات الناس في الأرض بحسب المال والنسب والنفوذ، فيُرفع من لا يستحق، ويُؤخر صاحب الأمانة لأنه لا يملك بابًا إلى أصحاب القرار.

لكن هناك ترتيبًا آخر لا تعبث به الوساطات: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾.

قد يكون الإنسان في آخر الصفوف عند الناس، وهو في منزلة عالية عند الله. وقد تمتلئ المنابر باسم رجل، ولا يكون لصوته في ميزان الحق ذلك الوزن الذي صنعته له الدعاية.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

يبصر الفعل وما وراءه، ويرى العمل حين يقع في الخفاء، ويعلم المخلص الذي لم يُشكر، والمخادع الذي أتقن عرض نفسه.

ومن أيقن ببصر الله، لم يحتج إلى أن يحول كل طاعة إلى مشهد عام، ولم يضره أن يغفل الناس عن بعض خيره. يكفيه أن العمل وقع في الموضع الذي لا تضيع فيه الأشياء.

## لقد مَنَّ الله على المؤمنين

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤).

بعد أن نفت الآيات عن النبي ﷺ الخيانة، أعادت الأمة إلى رؤية النعمة التي كان يمثلها وجوده بينهم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كان الرسول ﷺ منّةً إلهية؛ لأن الإنسان قد يملك الأرض والمال والقوة، ثم يبقى تائهًا لا يعرف لماذا يعيش، ولا كيف يعبد ربه، ولا إلى أين تمضي حياته.

ليس أعظم العطاء أن تتسع يدك، بل أن يتضح لك الطريق.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

يعرفون نسبه، ولسانه، وسيرته، وصدقه قبل البعثة. لم ينزل عليهم مَلَكًا لا يستطيعون الاقتداء بطبيعته، بل بعث بشرًا يعيش بينهم، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج، ويحزن، ويصبر، ويقود، ويعبد الله.

كانت بشريته ﷺ جسرًا للاقتداء، لا نقصًا في مقامه.

فرأى الناس في حياته أن القرآن ليس فكرةً معلقةً فوق القدرة البشرية؛ رأوه صدقًا وعدلًا ورحمةً وصبرًا تمشي على الأرض.

## يتلو عليهم آياته

أول وظائف الرسالة أن تصل كلمات الله إلى الناس نقيةً كما أُنزلت: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾.

التلاوة ليست مجرد نقل أصوات؛ إنها فتح نافذة بين الأرض والوحي. كان الناس يسمعون من فم الرسول ﷺ كلامًا يفسر وجودهم، ويكشف أسرار قلوبهم، ويخبرهم بما وراء الموت.

وما أفقر الحياة حين تمتلئ بأصوات البشر، ثم يغيب عنها صوت الوحي!

تكثر التحليلات، وتتزاحم الشعارات، لكن القلب لا يجد الكلمة التي ترده إلى أصله إلا في كلام الله.

## ويزكيهم

قال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

لم تكن مهمة الرسول أن يملأ العقول بالمعلومات فقط؛ كان يطهر النفوس وينمي فيها الخير.

يخرج منها رجس الشرك.

ويطهرها من الكبر.

ويحررها من عبودية الشهوة والقبيلة والمال.

وينمي فيها الصدق والرحمة والشجاعة والأمانة.

فالعلم الذي لا يزكي صاحبه قد يمنحه أدوات أكبر لخدمة غروره. وقد يصير الإنسان واسع المعرفة، لكنه أشد حسدًا وظلمًا وتعاليًا.

ولهذا جاءت التزكية قبل التعليم في نظم الآية. فالوعاء يحتاج إلى تطهير حتى لا تتحول المعرفة فيه إلى لون جديد من الفساد.

## ويعلمهم الكتاب والحكمة

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

يعلمهم ألفاظ الكتاب ومعانيه، ويبين لهم كيف يُنزَّل الوحي على تفاصيل الحياة. فليس القرآن زينةً للتلاوة وحدها، بل كتاب هداية يحتاج إلى فهم وامتثال.

والحكمة تضع الشيء في موضعه؛ تجعل العلم فعلًا راشدًا، وتحفظ صاحبه من تطبيق كلمة صحيحة في موضع يفسدها.

قد يعرف الإنسان الحكم ولا يحسن تنزيله.

ويعرف الحقيقة ولا يحسن تبليغها.

ويملك الدليل، لكنه يستخدمه للإذلال لا للهداية.

فتأتي الحكمة لتمنح العلم بصيرةً ورحمةً وميزانًا.

ثم تذكّرهم الآية بماضيهم: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

كانوا قبائل تقتل بعضها لأسباب صغيرة، وتسجد لأحجار صنعتها أيديها، وتأكل القويُّ فيها حق الضعيف. ثم صنع الوحي منهم أمةً تحمل النور إلى العالم.

إن تذكر الضلال القديم يحفظ الإنسان من الغرور بالهداية الجديدة. أنت لم تهتد لأنك أذكى من كل ضال، وإنما لأن فضل الله أدركك.

ومن عرف من أين أخرجه الله، رقّ قلبه لمن لا يزال يبحث عن الطريق.

## قلتم أنَّى هذا؟

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **(١٦٥)**.

حين أصابت المسلمين مصيبة أُحُد، سألوا في دهشة: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟

كيف وقع لنا هذا ونحن المؤمنون، وفينا رسول الله ﷺ؟

لكن الآية أعادت إليهم ذاكرة بدر: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

فقد أصابوا من عدوهم في بدر ضعف ما أصابهم في أُحُد بين قتيل وأسير. لكن النفس حين تتألم تنسى ما سبق من النعم، وتتعامل مع الجرح الحاضر كأنه القصة كلها.

إن ذاكرتنا في المحنة قد تكون غير عادلة؛ تحفظ الألم بتفاصيله، وتختصر أعوام اللطف في سطر صغير.

ولذلك يذكّرهم القرآن بأن يوم أُحُد ليس وحده في التاريخ. قبله بدر، وقبل الجرح مدد، وقبل المصيبة نعم كثيرة.

ثم يأتي الجواب الذي لا يجامل: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

ليس كل ما يصيب الجماعة مؤامرةً خارجية وحدها، وإن كانت المؤامرة موجودة. قد يكون العدو أمامها، لكن الثغرة التي دخل منها كانت في داخلها.

فشلتم.

وتنازعتم.

وعصيتم.

وأراد بعضكم الدنيا.

إن الأمة التي تفسر كل إخفاق بأعدائها تحرم نفسها من إصلاح ما في داخلها. فالعدو مسؤول عن عدوانه، لكن مسؤوليته لا تمحو مسؤوليتك عن ثغرتك.

﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ليست دعوةً إلى جلد الذات أو إنكار أثر العدو، بل إلى استرداد القدرة. فما دام بعض الخلل من عندك، فإن بعض الإصلاح أيضًا في يدك.

يمكنك أن تراجع.

وأن تتوب.

وأن تعيد بناء الطاعة.

وأن تغلق الثغرة.

أما من جعل أسباب هزيمته كلها خارج ذاته، فقد جعل مفاتيح نهوضه كلها في أيدي الآخرين.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لم تقع الهزيمة لأن الله عجز عن نصرهم، تعالى الله. إنه قادر على النصر، لكنه سبحانه أجرى عليهم سنن الطاعة والمخالفة؛ ليربيهم ويطهرهم.

وقدرة الله لا تعني أن تترك الأمة الأسباب، بل أن تعلم أن إصلاحها لن يضيع، وأن القادر على نصرها بالأمس قادر على أن ينهض بها بعد عثرتها إذا عادت إليه.

**فبإذن الله**

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **(١٦٦)**.

قال في الآية السابقة: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

وقال هنا: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وبين العبارتين يقوم ميزان القدر والمسؤولية.

من عند أنفسكم؛ لأنكم اخترتم الفشل والتنازع والمخالفة.

وبإذن الله؛ لأن شيئًا لا يقع خارج علمه وسلطانه وتقديره.

لا يلغي القدر مسؤولية الإنسان، ولا تخرج مسؤولية الإنسان الحدث من قدر الله. إنهما حقيقتان تجتمعان دون تناقض.

فإذا أخطأ الإنسان، لا يقل: كان هذا قدرًا فلا ذنب لي. وإذا أصابه أثر الخطأ، لا يظن أن الأمر خرج من ملك الله وأفلت من حكمته.

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي ليظهر في عالم الواقع ما علمه الله أزلًا، وليتميز المؤمنون بمواقفهم، ويروا هم أنفسهم حقيقة ما يحملون.

قبل المحنة تختلط الدعاوى.

الجميع يقول إنه ثابت.

والجميع يعلن الولاء.

لكن حين ترتفع الكلفة، تتحول الكلمات إلى مواقف، ويخرج الإيمان من الخفاء إلى الشهادة.

الابتلاء لا يضيف إلى علم الله شيئًا، لكنه يضيف إلى معرفة الإنسان بنفسه كثيرًا.

## وليعلم الذين نافقوا

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ **(١٦٧)**.

كما أظهرت أُحُد المؤمنين، أظهرت المنافقين.

كان النفاق يستطيع أن يعيش في المدينة خلف اللغة المشتركة، والصلاة الظاهرة، والانتساب إلى الجماعة. لكن حين خرج الجيش وصار الانتماء مكلفًا، لم تعد الكلمات وحدها كافيةً لحجب الحقيقة.

قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾.

إن لم تسمُ نياتكم إلى القتال في سبيل الله، فادفعوا عن بلدكم وأهليكم، وكثّروا سواد المدافعين. فقد قُدّم لهم أكثر من مدخل إلى الواجب، لكن القلب الذي عزم على القعود سيصنع لكل باب عذرًا.

قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

لم يقولوا صراحةً: لا نريد أن نقاتل. اختاروا عذرًا يبدو موضوعيًّا: لا نظن أن قتالًا سيقع، أو لا نعرف هذا قتالًا يستحق الخروج.

وهكذا يعمل النفاق: لا يقدم الهوى عاريًا، بل يكسوه لغة العقل والحكمة.

قد يكون القرار قد اتخذ في داخل النفس أولًا، ثم يُستدعى التحليل لتبريره. فتبدو الخيانة اجتهادًا، ويُقدَّم الجبن على أنه تقدير حكيم للموقف، ويُسمى التخلي عن الجماعة اعتراضًا مهنيًّا على الخطة.

لكن الله كشف حقيقة اللحظة: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.

قال: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لأن المواقف تحرك الإنسان في مساره الداخلي. كل اختيار يقربه من جهة ويبعده عن أخرى.

فالقلوب لا تقف جامدة. الطاعة تقربها، والتبرير المستمر للخذلان يدفعها خطوةً بعد خطوة نحو الظلمة.

ولم تقل الآية إنهم كانوا أقرب إلى الكفر بسبب شعور عابر بالخوف؛ فقد خاف بعض المؤمنين ثم ثبتهم الله. وإنما كان ذلك بسبب موقف كامل جمع الانسحاب والكذب وإخفاء خلاف ما أظهروه.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

الفم في جهة، والقلب في جهة أخرى.

وهذه هي بنية النفاق: مسافة بين الظاهر والباطن تتسع حتى يعيش الإنسان بوجهين، ويصبح حريصًا على إدارة صورته أكثر من إصلاح حقيقته.

قد يتقن العبارة الإيمانية، لكنه لا يسمح للإيمان بأن يقود قراره.

وقد يتحدث عن المصلحة العامة، بينما لا يرى في داخله إلا سلامته وموقعه.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

يمكنهم أن يخفوا مقاصدهم عن المؤمنين زمنًا، وأن يمنحوا قعودهم أسماء براقة، لكنهم لا يستطيعون تحسين صورتهم في علم الله.

والنجاة لا تكون بإتقان الحجة أمام الناس، بل بصدق القلب أمام من يعلم السر وأخفى.

## لو أطاعونا ما قُتلوا

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ **(١٦٨)**.

لم يكتفوا بالقعود؛ جعلوا من دماء الذين نهضوا دليلًا على حكمة قعودهم.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

إنها قسوة مضاعفة: تخلّف عن النصرة، ثم شماتة مستترة في صورة تحليل. بدل أن يخجل القاعد أمام دم الشهيد، جعل الشهيد مخطئًا لأنه لم يختر السلامة التي اختارها القاعد.

وكثيرًا ما يبحث المتخلف عن فلسفة أخلاقية تريحه من رؤية نفسه. لا يقول: خفت. بل يقول: كنت أبعد نظرًا. ولا يعترف بأنه خذل، بل يعيد كتابة الحدث حتى يبدو الثابت متهورًا والقاعد حكيمًا.

قالوا ذلك: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾.

وهنا مرارة خاصة؛ فقد جمعهم بهم نسب أو قوم أو صحبة، لكن هذه الأخوة لم تدفعهم إلى الخروج معهم، ولم تمنع ألسنتهم من تحويل مقتلهم إلى مادة للوم.

الأخوة التي لا تظهر عند الخطر قد لا تكون إلا اسمًا اجتماعيًّا بلا روح.

ثم يواجههم القرآن بالبرهان الذي لا يستطيعون دفعه: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إذا كان القعود يمنع الموت، فامنعوه عن أنفسكم إلى الأبد.

اجعلوا بيوتكم حصونًا لا يدخلها الأجل.

واحفظوا أجسادكم من المرض والهرم والحوادث.

لكنكم لا تستطيعون؛ لأنكم لم تختاروا بين الموت والحياة، وإنما اخترتم بين أداء الواجب والتخلف عنه، أما الموت فسيأتيكم في الموعد الذي كتبه الله.

إن المؤمن لا يطلب الموت لذاته، ولا يستخف بحفظ النفس. يأخذ بالحذر، ويختار أحكم السبل، ويبتعد عن التهور. لكنه لا يجعل حب البقاء ذريعةً لترك كل حق إذا صار الحق مكلفًا.

فالحياة ليست في عدد الأيام وحده؛ قد يطيل إنسان عمره وهو ينسحب من كل موقف كريم، حتى لا يبقى من حياته إلا زمن نجا فيه الجسد وخسرت الروح معناها.

## الفصل الثاني عشر

## من الآية (١٦٩) إلى الآية (١٧٥)

## لا تحسبنهم أمواتًا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ **(١٦٩)**.

كانت أرض أُحُد لا تزال تحمل آثار الدماء، وكانت البيوت في المدينة تستقبل فراغًا جديدًا: أب لم يعد، وزوج غاب، وابن خرج صباحًا ثم حُمل خبره في المساء.

وفي عين الناس كانت الأجساد قد سكنت، وانقطعت الأصوات، وانتهت الحركة.

لكن القرآن يفتح نافذةً لا تفتحها الحواس: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾.

لا تجعل ما رأته عيناك نهاية المعرفة. فالبصر رأى الجسد بعد خروج الروح، لكنه لم يرَ ما استقبل الروح بعد ذلك. والحواس تخبرك بجانب من الحقيقة، أما الوحي فيخبرك بما وراء حدودها.

﴿أَمْوَاتًا﴾.

النهي ليس عن استعمال كلمة الموت في حكم الدنيا؛ فقد ماتوا وانقطعت أحكام حياتهم الدنيوية. وإنما هو نهي عن الظن بأن الموت قد ابتلع وجودهم، وأنهم سقطوا في العدم، وأن آخر قصتهم كان عند سفح الجبل.

ثم تأتي ﴿بَلْ﴾ لتزيل الصورة الناقصة: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾.

حياة برزخية حقيقية، يعلم الله كيفيتها، ولا نقيسها بحياة الدنيا ولا نتكلف تصوير ما لم يخبرنا الوحي بتفاصيله. نؤمن بها كما جاءت، من غير تشبيه ولا تأويل يفرغها من حقيقتها.

لقد غابوا عن أعين أهل الأرض، لكنهم لم يغيبوا عن كرامة السماء.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

ليست الحياة وحدها هي البشارة، بل هذا المقام: عند ربهم.

إن الذين خرجوا من ديارهم يريدون رضا الله، انتهت رحلتهم إلى جوار رحمته وكرامته. سقطوا من بين أيدي أحبابهم، لكنهم لم يسقطوا من عناية ربهم.

وفي إضافة الرب إليهم معنى الرعاية: ربهم الذي عرف صدقهم، ورأى خطواتهم، وعلم آلامهم، هو الذي استقبلهم بعد أن عجز أهلهم عن استبقائهم.

ثم قال: ﴿يُرْزَقُونَ﴾.

لم يدخلوا عالمًا من السكون والحرمان، بل عالم رزق متجدد. والفعل المضارع يشعر بالاستمرار؛ رزق يتوالى، وفضل لا ينقطع.

كان أهل الدنيا يظنون أنهم فقدوا نصيبهم من الحياة، فإذا الوحي يخبر أن أرواحهم قد انتقلت إلى رزق أوسع من كل ما تركوه.

لا تجعل الآية الموت شيئًا محبوبًا لذاته، ولا تهوّن ألم الفقد على أهله بعبارة باردة. فالرسول ﷺ حزن على أصحابه، وبكى على من أحب. لكنها تمنح الحزن معنىً يحميه من اليأس.

يبقى الفراق موجعًا، لكن الغائب ليس عدمًا.

وتبقى العين دامعةً، لكنها تعرف أن وراء الدمع لقاءً.

## فرحين بما آتاهم الله

قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ **(١٧٠)**.

على الأرض يبكيهم أهلهم، وفي عالم البرزخ هم: ﴿فَرِحِينَ﴾.

إنها مفارقة لا يكشفها إلا الوحي. نحن نرى مكان الغياب، وهم يرون ما أعد الله لهم. نحن نقيس اللحظة بما فقدناه، وهم يعيشون ما وجدوه.

﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

لم تنسب الآية فرحهم إلى عملهم وحده، مع عظمة ما بذلوه، بل إلى فضل الله. فالشهادة نفسها توفيق، والثبات فضل، والقبول فضل، والثواب فوق ذلك فضل.

العمل لا يُدخل العبد على الله مستغنيًا عن رحمته. يجيء بعمله فقيرًا، فيغمره الله بعطاء أوسع من حدود العمل.

ولم يكن فرح الشهداء فرحًا فرديًّا أغلق عليهم أبواب الشعور بمن تركوا وراءهم: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾.

ما زالت قلوبهم متصلةً بإخوانهم. يفرحون بما ينتظر الصادقين الذين سيواصلون الطريق بعدهم.

إنها أخوة تجاوزت الموت. لم تنقطع بانقطاع المجالس، ولم تنته حين وارى التراب الأجساد. بقيت الرسالة التي جمعتهم تمد خيطها بين من سبق ومن بقي.

الشهيد لا يقول: نجوت وحدي ولا يعنيني من بعدي. إنه يستبشر بإخوانه الذين يحملون الأمانة نفسها.

وكأن دماء الشهداء لا تريد من الأحياء أن يقيموا عند قبورها طويلًا، بل أن يكملوا الطريق الذي توقفت عنده خطواتهم.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخوف يتجه إلى المستقبل، والحزن يتعلق بما مضى. والبشارة ترفع عنهم ثقل الجهتين: لا خوف مما يستقبلون.

ولا حزن على ما خلفوا.

في الدنيا يعيش الإنسان بين خوف ما سيأتي، وحزن ما فات. أما هناك، فتستقر النفس في أمان لا يهدده غد، وفرح لا يطارده ماض.

**يستبشرون بنعمة من الله وفضل**

قال تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **(١٧١)**.

تكررت البشارة؛ لأن ما رأوه أعظم من أن تحمله كلمة واحدة.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

النعمة هي ما بلغهم من الخير، والفضل هو الزيادة التي لا تحدها استحقاقات العمل. وكأنهم يرون أن الله لم يحفظ لهم ما قدموه فحسب، بل أكرمهم فوق ما كانوا يرجون.

ثم تأتي القاعدة التي تحمل قلوب كل العاملين: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قد يضيع العمل في ذاكرة الناس.

وقد يُمحى اسم صاحبه من الرواية.

وقد ينسب آخرون جهده إلى أنفسهم.

وقد يموت قبل أن يرى الثمرة التي زرع لها عمره.

لكنه لا يضيع عند الله.

العمل الذي خرج صادقًا صار محفوظًا في خزائن لا يصل إليها النسيان ولا السرقة.

كم من إنسان خدم الحق في زاوية مجهولة، ثم رحل ولم يُكتب عنه سطر! وكم من أم بنت في نفوس أبنائها معاني عظيمة، ثم ماتت قبل أن ترى ما صاروا إليه! وكم من كلمة صادقة دُفنت تحت ضجيج الباطل، لكنها بقيت تعمل في قلب واحد حتى غيرت حياةً كاملة!

لا يضيع الله ذلك.

وحين يستقر هذا اليقين، يتحرر المؤمن من عبادة النتائج العاجلة. يعمل لأنه مأمور، ويطلب الإتقان لأنه أمين، لكنه لا يجعل اعتراف الناس شرطًا لاستمراره.

يكفيه أن الله رأى.

ويكفيه أن الأجر محفوظ.

## الذين استجابوا من بعد ما أصابهم القرح

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ **(١٧٢)**.

لم تكن الاستجابة هذه المرة صادرةً عن أجساد مستريحة. جاءت: ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

جراحهم مفتوحة، وأحزانهم قريبة، وأجسادهم لم تسترد عافيتها. ومع ذلك، حين دعاهم الله والرسول، استجابوا.

وهنا تظهر منزلة الاستجابة بعد الألم.

فقد يستجيب الإنسان وهو قوي، لكنه حين يُجرح تتغير علاقته بالتكليف. يصبح لكل خطوة ثمن مضاعف، ويستطيع أن يصنع من ألمه عذرًا مفهومًا للقعود.

لكن هؤلاء لم يجعلوا الجرح يقودهم بعيدًا عن الواجب.

لم يقولوا: أعطينا ما يكفي.

ولم يقولوا: ليخرج هذه المرة من لم يُصب.

ولم يحولوا تضحيتهم السابقة إلى رصيد يعفيهم من كل تكليف لاحق.

إنهم فهموا أن الطريق لا ينتهي عند أول جرح، وأن المؤمن لا يختار مواسم الطاعة وفق راحة جسده.

والآية لا تمجد الألم لذاته؛ فالقرح مؤلم، والعافية نعمة تُسأل. لكنها تمجد الروح التي لا تسمح للألم بأن يقرر عنها علاقتها بالله.

قد تعجز عن العمل نفسه الذي كنت تقوم به قبل الجرح، لكنك تستطيع أن تستجيب بما بقي في وسعك. فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لكنه يريد أن يرى صدقها داخل هذا الوسع.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

لم تجعل الآية مجرد الوجود في الصف كافيًا؛ قيدت الوعد بالإحسان والتقوى.

الإحسان أن يؤدى العمل على الوجه الذي يحبه الله.

والتقوى أن يبقى القلب حارسًا لصحة الطريق.

فقد يتحرك الإنسان مع الجماعة، لكن دوافعه مختلطة، أو يتجاوز حدود الله باسم القضية. أما المؤمن فيجمع حرارة الاستجابة ونقاء الوسيلة.

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

عظيم لأن الاستجابة جاءت بعد القرح، وحين تكون الطاعة أثقل يكون صدقها أظهر.

## فزادهم إيمانًا

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ **(١٧٣)**.

بدأت الحرب هنا بالكلمات قبل السيوف.

﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾.

خبر صُمم ليكبر العدو في الوعي قبل أن يصل إلى الميدان. فالإنسان قد يُهزم بصورة خصمه في خياله قبل أن يراه بعينيه.

ثم جاءت الغاية صريحة: ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾.

ليست كل الأخبار بريئة. قد تحمل المعلومة في ظاهرها، لكنها تريد في باطنها أن تعيد ترتيب مخاوفك، حتى يصبح العدو أكبر في قلبك من ربك.

إنها صناعة الخوف: تكرار الحديث عن قوة الخصم، وضخامة عدده، واتساع نفوذه، حتى يبدو الاعتراض عليه جنونًا، والثبات أمامه ضربًا من العبث.

لكن الرسالة وقعت في قلوب امتلأت باليقين، فأنتجت عكس ما أراده ناقلوها:

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

المعلومة نفسها قد تزيد قلبًا خوفًا، وتزيد قلبًا آخر إيمانًا. ليست قوة الحدث وحدها هي التي تصنع أثره؛ بل البنية التي تستقبله في الداخل.

حين علموا أن العدو جمع لهم، أدركوا أنهم يحتاجون إلى الله أكثر، فازداد استنادهم إليه.

لم ينكروا أن الناس جمعوا، ولم يقولوا إن العدد وهم، ولم يتظاهروا بعدم وجود الخطر. الإيمان لا يبني شجاعته على إنكار الواقع، بل على رؤية قدرة الله فوق الواقع.

ثم نطقت القلوب: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: كافينا الله.

ليست معناها أننا لا نحتاج إلى إعداد أو تعاون أو تخطيط، بل إن كل هذه الأشياء لا تستقل بكفايتنا. نأخذ بها، ثم لا نضع قلوبنا تحت رحمتها.

قد تكون الأسباب قليلة، لكن الله يكفي.

وقد تكون كثيرة، لكنها لا تكفي إذا نُزعت منها البركة.

﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

الوكيل هو الذي تُسند إليه الأمور ثقةً بكفايته وحسن تدبيره. والله نعم الوكيل؛ لأنه لا يعجزه ما وكل إليه، ولا يخفى عليه جانب من القضية، ولا تختلط عليه المصالح، ولا ينسى عبده.

أما وكلاء الأرض فقد يريدون نصرتك ويعجزون، أو يقدرون ويتغيرون، أو ينصرونك بقدر ما تخدم مصالحهم.

لكن الله إذا توكل عليه العبد صادقًا، فقد أسند أمره إلى من لا يعجز ولا يغيب.

وما أجمل أن تقال هذه الكلمة لا في سكون المجالس فقط، بل عند سماع الخبر المخيف: حسبنا الله.

ليست تعويذةً تلغي الواقع، بل يقين يمنع الواقع من إلغاء القلب.

## فانقلبوا بنعمة من الله وفضل

قال تعالى: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ **(١٧٤)**.

خرجوا وهم يحملون آثار الجراح، فعادوا يحملون: ﴿نِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

الطريق الذي أراد المخوفون أن يجعلوه بابًا إلى الهلاك، جعله الله بابًا إلى النعمة. وهذا يعلم المؤمن ألا يحكم على نهاية الطريق من الرهبة التي يشعر بها في أوله.

كم من خطوة إلى الحق بدت في بدايتها مخيفة، ثم وجد الإنسان وراءها سكينةً لم يعرفها في زمن التردد!

وكم من قرار أخلاقي ظن صاحبه أنه سيفقد به كل شيء، فلما صدق مع الله اكتشف أن ما نجا به أكبر مما فقده!

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.

لم يقع القتال الذي خُوّفوا به، وعادوا سالمين. لكن النعمة لم تكن السلامة الجسدية وحدها؛ كانت كذلك انتصارهم على الخوف.

قد يعود الإنسان من الخطر بلا جرح في جسده، لكنه مهزوم الروح. وهؤلاء عادوا وقد ثبتوا لأنفسهم ولعدوهم أن أُحُد لم تكسر إرادتهم.

لقد أصابهم القرح بالأمس، لكنهم لم يسمحوا للقرح أن يصير تعريفهم الجديد.

ثم قالت الآية: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾.

هذا هو النصر الأعمق.

ليس أعظم ما في القصة أنهم لم يُمسوا بسوء، بل أنهم ساروا في الطريق الذي يرضي الله. فالسلامة قد تُعطى للمطيع والعاصي، أما اتباع الرضوان فهو الذي يمنح السلامة معناها.

ولو لم يعد الإنسان من الطريق بمكسب ظاهر، لكنه عاد برضا الله، فقد عاد بالخير كله.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

فضلٌ في أن دعاهم.

وفضلٌ في أن ثبتهم.

وفضلٌ في أن رد عنهم السوء.

وفضلٌ في أن كتب لهم أجر الاستجابة.

فالعبد يمشي إلى الله بتوفيق من الله، ثم يكافئه الله على المشي الذي وفقه إليه. وما الرحلة كلها إلا فضل يفتح أبواب فضل.

## إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ **(١٧٥)**.

تكشف الآية اليد الخفية التي كانت تعمل وراء رسالة التخويف: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾.

ليس معنى ذلك أن البشر الذين نقلوا الخبر لم تكن لهم إرادة ومسؤولية، بل إن الشيطان استعمل أصواتهم ليؤدي وظيفته القديمة: تضخيم الباطل في عين المؤمن حتى يتراجع عن الحق.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

أي يخوفكم أولياءه، ويجعلهم في وعيكم أكبر مما هم عليه؛ حتى يصبح ذكرهم كافيًا لتعطيل الإرادة.

فالشيطان لا يحتاج دائمًا إلى أن يقنعك بمحبة الباطل. يكفيه أحيانًا أن يجعلك تخشاه خشيةً تمنعك من مقاومته.

قد تعرف أن الظالم مبطل، لكنك تصمت لأن صورته في داخلك تضخمت.

وقد تؤمن بعدالة قضيتك، لكنك تتخلى عنها لأنك أقنعت نفسك بأن خصمها لا يُغلب.

وهكذا تتحول القوة المحدودة إلى قدر مطلق في الخيال.

لذلك جاء الأمر: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾.

لا يعني ذلك نزع الخوف الغريزي من النفس؛ فالإنسان قد يشعر بالخوف عند الخطر. وإنما يعني ألا تمنحهم الخوف الذي يقرر لك موقفك، وألا تجعل رهبتهم مقدمةً على أمر الله.

الشجاعة ليست غياب الشعور بالخوف، بل بقاء الطاعة أعلى منه.

ثم قال: ﴿وَخَافُونِ﴾.

لا يحرر القلب من خوف المخلوق إلا خوف الخالق.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا ميزان يخشاه ويراقبه. فإذا غاب خوف الله، دخلت مخاوف الناس، وتوزعت النفس بين رضا الأقوياء وغضب الجماعة وخسارة المصالح.

أما حين يخاف الله، فإن المخاوف الأخرى تعود إلى حجمها.

يخاف الله فلا يخون ليرضي صاحب سلطة.

ويخاف الله فلا يكذب لينجو من موقف.

ويخاف الله فلا يجعل سلامته الشخصية أثمن من كل حق.

وخوف الله ليس فزعًا من ظالم، تعالى الله؛ بل هيبةٌ من العدل، وتعظيمٌ للجلال، وخشية تحمل العبد على الطاعة وتحجزه عن المعصية، وهي مقرونة بالرجاء والمحبة.

ثم ختمت الآية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

لأن الإيمان ليس فكرةً عن قدرة الله فحسب؛ بل إعادة ترتيب كاملة لمصادر الخوف في القلب.

## الفصل الثالث عشر

## من الآية (١٧٦) إلى الآية (١٨٠)

## ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **(١٧٦)**.

كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الناس، يؤلمه أن يرى إنسانًا يبتعد عن النور بعد أن قامت عليه الحجة، ويحزنه أن يرى أهل النفاق يسارعون إلى نصرة الباطل، ويحسبون كل اضطراب في صف المؤمنين فرصةً للانقضاض على الرسالة.

فجاءت المواساة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾.

لم يُنهَ النبي ﷺ عن الرحمة بالضالين، ولا عن الألم لانحرافهم؛ وإنما نُهي أن يتحول ذلك الحزن إلى ثقل يعوقه عن مواصلة الطريق.

هناك حزن يولد من الرحمة، وهذا من حياة القلب.

وهناك حزن يتسلل منه اليأس، حتى يوهم الداعية أن الحق قد أصبح في خطر لا نجاة منه. وهذا ما يرده القرآن.

﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

لم يقل: يمشون، بل ﴿يُسَارِعُونَ﴾؛ كأنهم وجدوا الطريق الذي يشبه ما استقر في داخلهم، فاندفعوا إليه بلا تردد.

يسارعون إلى استغلال الهزيمة.

وإلى بث الشائعة.

وإلى تفتيت الصف.

وإلى اتخاذ كل حادثة دليلًا مزعومًا على ضعف الدين.

والباطل حين يتحرك بسرعة يترك في النفس انطباعًا بأنه يملك المستقبل. فالناس كثيرًا ما يخلطون بين سرعة الحركة وصحة الاتجاه.

لكن المركبة المسرعة في طريق الهلاك لا ينقذها أنها تسبق غيرها؛ بل قد تكون سرعتها نفسها سببًا في قرب نهايتها.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

لن ينقصوا من ملك الله، ولن يطفئوا نوره، ولن يجعلوا الحق باطلًا لأنهم رفضوه.

إنما يضر الإنسان نفسه حين يحارب الله. فالله غني عن إيمانه، لكن الإنسان ليس غنيًّا عن ربه.

وحين يتخلى شخص عن خدمة الدين، لا ينبغي أن يظن أن الدين أصبح يتيمًا بعده. لقد حرم نفسه شرف الخدمة، أما الله فقادر على أن يستبدل به غيره.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾.

اختاروا طريقهم بعد قيام الحجة، وأصروا على الكفر، فكانت عاقبة اختيارهم أن حُرموا حظ الآخرة. وليس في ذلك ظلم لهم؛ فقد أُعطوا إرادةً وبيانًا وفرصةً، لكنهم جعلوا سرعتهم كلها في الاتجاه المضاد للهدى.

قد ينالون حظًّا واسعًا من الدنيا، لكن أشد الحرمان أن تمتلئ اليد هنا، ثم تصل الروح إلى الآخرة بلا نصيب.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

عظيم لأن الجريمة لم تكن جهلًا عابرًا فحسب، بل مسارعةً واعيةً في محاربة الحق، وإصرارًا على أن تُستعمل الحياة في إطفاء النور.

## الذين اشتروا الكفر بالإيمان

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧).

تصور الآية الكفر صفقةً عقدها أصحابها: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾.

كانت بين أيديهم قابلية الإيمان، ووصلتهم دلائله، وعرفوا شيئًا من نوره، ثم دفعوا هذا كله ثمنًا للكفر.

ويا لها من صفقة خاسرة!

اشتروا ظلمةً بنور.

وحيرةً بيقين.

وخوفًا من الناس بأمن مع الله.

ومتاعًا ينتهي بعهد لا ينقض.

إن التعبير بالشراء يكشف مسؤولية الاختيار. لم يُدفعوا إلى الكفر بلا إرادة، بل آثروه لما وجدوا فيه من حفظ مصالح عاجلة أو مواقع موروثة أو شهوات لا يريدون أن يقيدها الوحي.

وقد يبيع الإنسان إيمانه دفعةً واحدة، وقد يبيعه أجزاءً صغيرة:

يصمت مرةً عن الحق ليحفظ موقعه.

ثم يبرر باطلًا ليرضي قويًّا.

ثم يطعن في الصادقين حتى يثبت ولاءه.

ثم يستيقظ يومًا فلا يجد في قلبه من الإيمان ما كان يعرفه.

الصفقات الكبرى قد تبدأ بتنازلات صغيرة لم يشعر صاحبها بأنها كانت تنقل ملكية قلبه.

ثم تكرر السورة: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾.

لئلا يتوهم أحد أن كفرهم انتصار على الله أو نقص في ملكه. إنهم لم يشتروا لأنفسهم قوةً أمام الله، بل اشتروا عذابهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

في الآية السابقة وصف العذاب بأنه عظيم، وهنا وصفه بأنه أليم؛ عظيم في قدره، أليم في وقعه. وهكذا تحيط العبارة بالمصير الذي انتهت إليه الصفقة من جهتي الضخامة والإحساس.

**الإمهال ليس إهمالًا**

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ **(١٧٨)**.

قد يطول عمر الظالم، وتتسع أمواله، ويشتد نفوذه، وتفتح له الأبواب؛ فيظن أن استمرار النعمة شهادة رضا، وأن تأخر العقوبة دليل على سلامة طريقه.

فتنقض الآية هذا الوهم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾.

ليس كل امتداد في الزمن خيرًا، ولا كل زيادة في المال كرامة، ولا كل تأخر للعقوبة نجاة.

قد تكون الأيام الجديدة فرصةً للتوبة، فإذا استعملها الإنسان في مزيد من الظلم تحولت الفرصة نفسها إلى حجة عليه.

﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾.

الإملاء هو الإمهال وإطالة المدة. والله لا يعجل لعجلة البشر، ولا يحكم على الأحداث بمقياس اللحظة القصيرة التي نعيشها.

نحن نرى الظالم ينجو اليوم، فنظن أن العدالة غابت. لكننا رأينا مقطعًا صغيرًا من المشهد، ولم نر نهايته.

إن تأخر الحساب لا يعني إلغاءه.

وقد يكون الإمهال رحمةً إذا قاد إلى التوبة، وقد يصير استدراجًا إذا حمل صاحبه على مزيد من الغرور. والفرق لا يكمن في الأيام التي أُعطيت، بل في العمل الذي ملأ به الإنسان تلك الأيام.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾.

ليس المعنى أن الله أجبرهم على الإثم، تعالى الله عن الظلم؛ وإنما ترك لهم ما اختاروه بعد إصرارهم، فاستعملوا المهلة في توسيع جريمتهم، حتى ازدادوا بما كسبت أيديهم.

كان يمكن لكل يوم جديد أن يكون عودة.

لكنهم جعلوه إضافةً إلى سجل الطغيان.

وكان يمكن لكل قوة وصلت إليهم أن تكون بابًا للإحسان.

لكنهم جعلوها أداةً أوسع للأذى.

ومن هنا ينبغي للإنسان ألا يقيس منزلته عند الله بما يجري على يديه من متاع. فربما أُعطي وهو يُستدرج، وربما مُنع وهو يُحفظ.

المقياس ليس: ماذا أملك؟

بل: ماذا صنع ما أملك بقلبي وعلاقتي بالله؟

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

لأنهم طلبوا بالإثم عزةً زائفة، فجاء الجزاء من جنس ما أرادوا أن يهربوا منه: الإهانة.

تكبروا على الحق كي يحفظوا مكانتهم، فإذا الطريق نفسه ينتهي بهم إلى المهانة التي لا تنفع معها ألقاب الدنيا ولا حراساتها.

## حتى يميز الخبيث من الطيب

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ **(١٧٩)**.

قبل أُحُد كان الصف يجمع المؤمن الصادق والمنافق المتستر، وكان ظاهر الانتساب يحجب كثيرًا من الفروق.

لكن الله لم يشأ أن يظل الصف مختلطًا على حال لا تظهر فيها المعادن: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

جاءت المحنة ففصلت بين الكلمات ومصادرها.

من كان يقول: نحن معكم، ثم عاد من منتصف الطريق.

ومن كان يتمنى الشهادة، ثم رأى الموت رأي العين.

ومن ثبت حول النبي ﷺ.

ومن أخطأ، ثم انكسر قلبه وعاد.

ومن استعمل الهزيمة ليطعن في الرسالة.

الأحداث الكبيرة لا تصنع الناس من العدم، لكنها تمنح ما في داخلهم جسدًا يمكن رؤيته.

الذهب والتراب قد يختلطان في الأرض، لكن النار تكشف الفرق.

ولهذا تكون المحنة مؤلمةً حتى حين تكون رحمة؛ لأنها تنزع عن الصف راحته الوهمية، وتريه ما لم يكن يريد أن يراه.

قد يظن الناس أن الجماعة متماسكة لأن أحدًا لم يعترض في أيام السعة، ثم تأتي لحظة توزيع الكلفة، فيظهر أن الصمت القديم لم يكن دائمًا اتفاقًا؛ ربما كان انتظارًا للمكاسب.

لكن التمييز لا يعني أن المؤمن لا يخطئ، وأن المنافق هو كل من زل. لقد أخطأ مؤمنون في أُحُد، ثم قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

الفرق أن المؤمن إذا كُشف عيبه تاب وأصلح، أما صاحب القلب الخبيث فيستعمل انكشافه ليزداد تبريرًا وابتعادًا.

## وما كان الله ليطلعكم على الغيب

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

أنتم لا ترون القلوب، ولا تعرفون على وجه اليقين ما سيختاره كل إنسان عند الامتحان.

ولو تُرك الأمر للفراسة والظنون، لاتُّهم الأبرياء، ونجا المنافق المتقن لتمثيل الصلاح.

لذلك تكشف السنن والمواقف ما لا تكشفه الوجوه. لا يحتاج الناس إلى ادعاء علم الغيب، بل إلى معايير عادلة وابتلاءات عملية تظهر بها الحقائق.

وهذا يحذرنا من أن نحكم على النيات حكمًا قاطعًا. نزن الأقوال والأعمال بما ظهر، ونحذر الخلل، لكن سرائر الخلق لله.

قد تسيء الظن بصادق لأنه قليل الكلام.

وتحسن الظن بمخادع لأنه أتقن لغة الإخلاص.

أما العلم المحيط بالباطن فليس للبشر.

## ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

الله وحده يختار من رسله من يطلعه على ما يشاء من الغيب بطريق الوحي. وليس للرسول من علم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

فالنبوة اصطفاء، لا مهارة يكتسبها الإنسان بالرياضة، ولا مقامًا يصل إليه من ادعى كشف الأسرار. والله يجتبي رسله، ويؤيدهم بوحيه، ويعصمهم في تبليغ رسالته.

ثم ردّ المؤمنين إلى واجبهم: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

ليس المطلوب أن تعرفوا كل غيب، بل أن تؤمنوا بمن يعلمه، وأن تصدقوا رسله فيما بلغوا عنه.

فالإنسان لا يحتاج إلى كشف المستقبل كله كي يسير؛ يحتاج إلى نور يهديه في خطوته، وثقة بمن يملك المستقبل.

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الإيمان يصحح المصدر الذي تتلقى منه الحقيقة.

والتقوى تصحح الطريقة التي تعيش بها هذه الحقيقة.

فلا يكفي أن يصدق العقل، ثم تتحرك الجوارح بعيدًا عما صدق به.

## سيُطوَّقون ما بخلوا به

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠).

البخيل يظن أنه يحفظ ماله، والآية تكشف أن المال قد يكون هو الذي يحاصره.

﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

بدأت الآية بتصحيح فكرة الملكية. ما في يدك لم ينشأ منك وحدك؛ الله هو الذي أعطاك القدرة، وهيأ لك السبب، وفتح الباب، وحفظ النعمة.

قد تسعى وتتعب، وهذا السعي معتبر، لكن من منحك جسدًا يسعى، وعقلًا يدبر، وأرضًا تحمل الثمرة؟

حين يرى الإنسان المال فضلًا من الله، يصبح العطاء امتدادًا طبيعيًّا للشكر. أما حين يراه خلقًا خالصًا لنفسه، يشعر أن كل محتاج يقتطع جزءًا من ذاته.

والبخل ليس حسن تدبير، ولا يعني أن ينفق الإنسان بلا حساب أو يضيع حقوق من يعول. التدبير يحفظ النعمة لتؤدي وظيفتها، أما البخل فيحبسها عن الحق الواجب خوفًا من النقص.

قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾.

قد يبدو المال المحبوس خيرًا؛ الرقم يزداد، والخزانة تمتلئ، واليد لا تفقد شيئًا.

لكن القرآن لا يقيس الخير بما بقي في اليد وحدها، بل بما صنعه المال في الروح، وبما سيصير إليه في الآخرة.

كم من شيء حماه الإنسان، ثم اكتشف أنه كان يحمي سبب تعاسته!

وكم من مال أغلق عليه أبواب الرحمة، وقطع رحمه، وأفسد قلبه، وأشعل الخصومات بين أبنائه!

فليس كل محفوظ خيرًا، وليس كل مبذول خسارة.

ثم تأتي الصورة المروعة:

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

المال الذي ظنوه زينةً يتحول إلى طوق.

وما أرادوا أن يخففوا منه أيديهم يثقل أعناقهم.

إنها مفارقة الجزاء: احتضن الإنسان المال خوفًا من أن يفارقه، فإذا به يوم القيامة يلازمه على الصورة التي يتمنى لو استطاع الفرار منها.

لم يكن المطلوب أن يترك ماله كله، بل أن يؤدي حق الله فيه. لكنه اختار أن يحمل المال بدل أن يقدمه أمامه، فصار ما بخل به شاهدًا عليه.

والبخل أوسع من المال.

قد يبخل عالم بعلم يحتاجه الناس، لأن نشره لا يخدم مكانته.

ويبخل صاحب جاه بشفاعته في حق.

ويبخل قادر بوقته.

ويبخل إنسان بكلمة إنصاف يخشى أن يخسر بها رضا جماعته.

كل نعمة لها زكاتها، ومن حبس فضل الله عن موضعه، فقد عرّض النعمة لأن تتحول من وسيلة نجاة إلى حجة عليه.

## ولله ميراث السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

لماذا يبخل الإنسان بشيء سيتركه حتمًا؟

جاء إلى الدنيا بلا مال، وسيرحل منها بلا مال، وتبقى الخزائن بعده تنتقل من يد إلى يد حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الميراث كله لله؛ لا لأن ملكه يبدأ بعد زوال البشر، فهو المالك دائمًا، بل لأن الملكيات العارضة تنكشف، ولا يبقى في المشهد إلا المالك الحق.

ما نسميه ملكًا في الدنيا استخلاف مؤقت.

أُعطيت المال مدةً لتظهر ماذا ستصنع به.

هل تجعله طريقًا إلى الله؟

أم تبني به جدارًا بينك وبين عباد الله؟

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

خبير باليد حين تعطي وحين تمسك.

وخبير بما وراء الإمساك: أهو تدبير مشروع، أم خوف مَرَضي، أم قسوة، أم إنكار لحق الله؟

وخبير بالصدقة التي خرجت طلبًا لوجهه، وتلك التي خرجت لتصنع لصاحبها صورةً عند الناس.

إنه لا ينظر إلى حركة المال وحدها؛ بل إلى حركة القلب معه.

وقد اكتملت هنا الآيات من **(١٧٦) إلى (١٨٠)** دون إسقاط آية. وتأتي بعدها الآية **(١٨١)** لتسجل كلمةً عظيمة الجرم قالها أهل الجرأة على الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

## لقد سمع الله قولهم

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١).

جرؤوا على الله فقالوا قولًا ترتعد له القلوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

لما دعا الله عباده إلى الإنفاق، وسمّى ما يقدمونه قرضًا حسنًا تشريفًا لهم ووعدًا بمضاعفة الجزاء، أخذوا العبارة من مقام التكريم إلى مقام السخرية، كأن طلب الإنفاق حاجة من الله إلى أموالهم.

لكن الله غني عن العالمين.

هو الذي خلق المال وأصحابه، ومنح اليد ما تمسك، والأرض ما تنبت، والعقل ما يدبر. وإذا أمر عباده بالإنفاق، فإنما يريد أن يطهرهم من شح أنفسهم، ويجعل بعضهم رحمةً لبعض، ويدخر لهم ما أنفقوه أجرًا عنده.

إن المحتاج إلى الصدقة في حقيقته ليس الله، تعالى الله، بل المتصدق نفسه؛ يحتاج أن ينقذ قلبه من البخل، وأن ينقل ماله من الفناء إلى البقاء.

ثم قال: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

كلمة قيلت في مجلس، وربما توهم صاحبها أنها ستضيع في الهواء. لكن الأصوات لا تتبدد في ملك الله.

يسمع سبحانه الكلمة قبل أن تبلغ أذن الجالس القريب، ويعلم ما حملها من استهزاء وكبر.

وهذا المعنى يحمل للمظلوم عزاءً، وللمعتدي تحذيرًا:

قد لا يجد المظلوم من يشهد له، لكن الله سمع.

وقد يغلق المسيء المجلس على كلمته، لكن الله سمع.

وقد تُمحى العبارة من التسجيل، لكنها لم تُمح من العلم الذي لا ينسى.

ثم قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾.

ليست الكلمات هواءً يمر بلا تبعة. إنها أعمال تكتب، وقد تهوي كلمة بصاحبها أبعد مما كان يتصور.

والكتابة هنا توكيد للحفظ والجزاء. سيجد الإنسان كلمته التي نسيها حاضرةً في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة.

ثم قرن قولهم بتاريخ من الجرائم: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

فاللسان الذي تجرأ على الله ينتمي إلى البنية الأخلاقية نفسها التي تجرأت على رسله. حين يسقط تعظيم الله من القلب، لا تبقى لرسوله حرمة، ولا للحقيقة قداسة.

ولم يقتل المخاطبون كلهم الأنبياء بأيديهم، لكن من رضي طريق أسلافه، ودافع عنه، وحمل روحه، صار له نصيب من تبعته.

إن التاريخ لا يورث الإنسان ذنبًا لم يفعله، لكنه يصبح شريكًا أخلاقيًّا في الجريمة حين يتبناها ويفتخر بها ويرفض البراءة منها.

ثم يكون الجواب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ذاقوا في الدنيا لذة السخرية القصيرة، فجاء يوم يتذوقون فيه حقيقة ما صنعت كلماتهم.

## ذلك بما قدمت أيديكم

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ **(١٨٢)**.

لا يأتي العذاب ظلمًا ولا مفاجأةً بلا سبب: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

قدمت الأيدي الأعمال قبل أن يصل أصحابها إلى الآخرة، وكأن كل إنسان يرسل أمامه مواد مصيره.

هناك من يقدم صدقةً تنتظره.

ومن يقدم كلمة حق.

ومن يقدم ظلمًا.

ومن يقدم دمعةً تسبب فيها.

ومن يقدم علمًا نافعًا أو تضليلًا يمتد بعد موته.

نحن لا نمضي إلى مستقبل خالٍ؛ إن أعمالنا تسبقنا إليه وتعد موضع استقبالنا.

ونسب التقديم إلى الأيدي لأنها أظهر أدوات العمل، وإلا فالجزاء يشمل ما كسبه القلب واللسان والجوارح.

ثم قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

تعالى الله عن أن يظلم أحدًا مثقال ذرة.

لا يعذب بريئًا بذنب غيره.

ولا يضيع حسنةً لصاحبها.

ولا يزيد في السيئة فوق ما تستحق.

ولا يحاسب إنسانًا على ما لم يبلغه أو ما لم يكن في وسعه.

وإذا استقر عدل الله في القلب، تغيرت رؤيته للحساب. لم تعد الآخرة ساحة قوة مطلقة مجردةً عن العدل، بل يوم يظهر فيه العدل الكامل الذي افتقدته الأرض مرارًا.

والعبد حين يقف بين يدي الله لا يواجه حاكمًا تخفى عليه الأدلة، ولا قاضيًا تميل به الخصومة، بل ربًّا أحاط بكل شيء علمًا، وحرم الظلم على نفسه.

## ذريعة القربان

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ **(١٨٣)**.

قدموا لرفضهم ثوبًا دينيًّا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾.

لم يقولوا: لا نريد الإيمان، بل زعموا أن امتناعهم وفاء بعهد الله، واشترطوا أن يأتيهم الرسول بقربان تأكله النار.

وهنا تبلغ النفس غاية الخداع: تجعل رفض أمر الله طاعةً لله، وتستعمل الدين حاجزًا بينها وبين الرسول.

وقد لا يرفض الإنسان الحق لأنه غامض، بل لأنه لا يريد نتائجه، ثم يطلب دليلًا جديدًا كلما جاءه الدليل السابق.

المشكلة ليست دائمًا نقص البرهان؛ قد تكون غياب الإرادة الصادقة للاستجابة.

فجاءهم الجواب من تاريخهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

جاءت العلامة التي يطلبونها، ومعها بينات أخرى، فلم يؤمن أسلافهم ببعض أولئك الرسل، بل امتدت أيديهم إليهم.

إذن لم يكن القربان هو القضية.

لو ظهرت العلامة التي اشترطوها، لابتكر الهوى شرطًا جديدًا. فالذي لا يريد الإيمان لا يعجز عن صناعة الأسئلة، لكنه يعجز عن الإجابة عن سؤال صدقه مع نفسه.

﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾.

القرآن لا يناقش الذريعة داخل إطارها فقط، بل يكشف تناقضها مع السلوك التاريخي. ومن أراد أن يعرف صدق شعارٍ ما، فلينظر ماذا فعل أصحابه حين تحقق الشرط الذي يطالبون به.

## فإن كذبوك

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ **(١٨٤)**.

مواساة للنبي ﷺ، وتثبيت لكل حامل حق يأتي بعده.

إن التكذيب لا يعني أن البيان كان ضعيفًا، ولا أن الداعية فشل بالضرورة في أداء رسالته. فقد كُذّب رسل جاءوا بأوضح البينات.

كان معهم البرهان.

وكانت معهم الزبر والمواعظ.

وكان معهم الكتاب المنير الذي يكشف الطريق.

ومع ذلك كذّبهم من كذّبهم.

الهداية ليست عمليةً آليةً يكفي فيها أن تضع الدليل أمام الإنسان فيؤمن. فبين الدليل والقلب بوابة اسمها الإرادة، وقد يغلقها الكبر والمصلحة والحسد.

وهذا لا يعفي الداعية من تحسين بيانه، أو مراجعة أسلوبه، أو إزالة ما يستطيع من العوائق. لكنه يحميه من وهم أن كل رفضٍ دليل نقص في الحق.

قد يكون النور ساطعًا، لكن الإنسان أغمض عينيه.

﴿الْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

الكتاب في ذاته منير، يكشف الأشياء ويمنح القلب القدرة على رؤيتها. لكن النور لا ينفع من يصر على إدارة ظهره له.

وفي الآية كذلك ربط لمحمد ﷺ بموكب الرسالات. ليس ما يلقاه حادثةً عارضة، بل سنة قديمة: يأتي الوحي، فتؤمن به قلوب، وتقاومه مصالح، ثم يمضي الحق وتذبل وجوه مكذبيه.

## كل نفس ذائقة الموت

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ **(١٨٥)**.

بعد ذكر الذين قتلوا الأنبياء، والرسل الذين كُذبوا، والذين يملكون المال ويبخلون به، تأتي الحقيقة التي تضع الجميع على أرض واحدة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

النبي يموت.

والمكذب يموت.

والغني يموت.

والفقير يموت.

والظالم الذي ظن أن سلطانه يحميه سيذوق ما ذاقه ضحاياه من قبله: مفارقة الدنيا.

قال: ﴿ذَائِقَةُ﴾، فجعل الموت شيئًا تذوقه النفس بنفسها. يسمع الإنسان عنه طويلًا، ويرى الآخرين يعبرون بابه، لكنه سيأتي عليه يوم يصبح الموت خبرته الشخصية.

ولا يستطيع أحد أن ينيب غيره في هذه الذائقة.

قد يحيط بك الأحباب، لكنك تعبر وحدك.

وقد يملك الأطباء كل الوسائل، لكنهم يقفون عند الأجل.

ومع ذلك، فالموت في القرآن ليس نهاية الحساب: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قد ينال الإنسان في الدنيا طرفًا من ثمرة عمله، لكن الوفاء الكامل هناك.

وهذا يفسر أشياء كثيرة تبدو ناقصةً في الأرض:

صالح يموت قبل أن يرى ثمرة صلاحه.

ومظلوم لا يأخذ حقه.

وظالم يرحل دون محاكمة بشرية.

وعامل للخير يُنسى اسمه.

لو كانت الدنيا آخر المشهد لبقي السؤال الأخلاقي مفتوحًا. لكن يوم القيامة هو يوم توفية الأجور، حيث لا يضيع شيء ولا يبقى حق بلا ميزان.

ثم يضع القرآن تعريفًا حاسمًا للفوز: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

كم ضاقت كلمة الفوز في لغة الناس!

يقولون: فاز بالمنصب.

وفاز بالمال.

وفاز بالشهرة.

وفاز على خصمه.

لكن القرآن يأخذ الكلمة من مكاسب الطريق ويضعها عند النهاية.

الفائز حقًّا من أُبعد عن النار وأُدخل الجنة.

واختيار لفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ يصور شدة الحاجة إلى رحمة الله؛ كأن النار قريبة، والنجاة أن يُبعد العبد عنها إبعادًا متتابعًا حتى يفارق مجالها.

ثم لا تكتمل النجاة بالبعد عن النار وحده، بل: ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾.

نجاة من الخوف، ووصول إلى المحبوب.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾.

ما قبل هذا قد يكون نجاحًا، لكنه ليس الفوز النهائي. قد تربح الدنيا كلها ثم تصل إلى النار، فتكتشف أنك خسرت. وقد تفوتك أشياء كثيرة ثم تدخل الجنة، فلا يبقى في وعيك شيء يستحق اسم الخسارة.

ثم قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

ليست الدنيا شرًّا محضًا؛ فيها العبادة والرحمة والعلم والحب والعمل. وإنما هي متاع غرور حين تُرى بلا آخرتها، وحين يقنع الإنسان نفسه بأن المؤقت دائم، وأن الوسيلة غاية.

المتاع يُستعمل في الرحلة، ولا يُتخذ وطنًا أبديًّا.

وأشد الغرور أن ينشغل المسافر بترتيب متاعه حتى يفوته الوصول.

## لتُبلون في أموالكم وأنفسكم

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ **(١٨٦)**.

لا تعد الآية المؤمن بحياة خالية من الامتحان، بل تخبره بصيغة التوكيد: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾.

الابتلاء ليس احتمالًا نادرًا في طريق الإيمان؛ إنه جزء من الطريق.

ستُبتلى الأموال: بنقصها.

وبحقوق الله فيها.

وبالمفاضلة بين المكسب والأمانة.

وبعرض حرام يأتي في ساعة الحاجة.

وتُبتلى الأنفس: بالخوف والمرض والفقد.

وبمشقة الطاعة.

وباحتمال الأذى في سبيل الموقف.

والمعرفة المسبقة بطبيعة الطريق تمنع الصدمة من أن تتحول إلى سؤال عن صدق الوعد. لم يعد المؤمن يقول عند أول محنة: لماذا وقع هذا؟ لقد أخبره الله أن الدنيا دار ابتلاء.

لكن الإخبار بالبلاء ليس دعوةً إلى طلبه. نسأل الله العافية، وندفع الضرر بما شرع، فإذا نزل البلاء استقبلناه بالمعنى الذي يليق بالمؤمن.

ثم قال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ... أَذًى كَثِيرًا﴾.

بعض الأذى لا يصيب الجسد ولا المال، بل يدخل من الأذن إلى القلب:

سخرية من العقيدة.

وطعن في الرسول.

واستهزاء بالقيم.

وتشويه لأهل الحق.

وكذب يكرر حتى يحاول أن يصير حقيقةً عامة.

وقد يكون أذى الكلمة أشد من جرح الجسد؛ لأنها تصيب موضع الكرامة والمحبة والمقدسات.

لكن القرآن لم يأمر أن يُقابل كل أذى بانفعال غير منضبط، بل وضع العلاج في كلمتين: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

الصبر يمنع الأذى من إخراجك من الطريق.

والتقوى تمنع ردك عليه من إخراجك من حدود الله.

قد يصبر الإنسان، لكنه يختزن حقدًا ينتظر فرصة الانتقام. وقد يرد الأذى، لكنه يتجاوز الحق إلى الظلم. أما المؤمن فيجمع احتمال المشقة مع نقاء الموقف.

والصبر لا يعني السكوت الدائم عن الباطل، ولا ترك الدفاع المشروع. قد يكون من الصبر أن تستمر في بيان الحق، ومن التقوى أن يكون ردك عادلًا لا يكذب ولا يخون.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أي من الأمور التي تحتاج إلى إرادة قوية وعزم راسخ. فكل إنسان يستطيع أن يبدو متزنًا ما دام لم يُمس موضع ألمه، لكن الأخلاق تُعرف حين يملك الغضب أسباب الانفجار ثم يظل ميزان الله حاضرًا.

## ميثاق البيان

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ **(١٨٧)**.

العلم في التصور القرآني ليس امتيازًا يمنح صاحبه مكانةً فقط؛ إنه ميثاق.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾.

من عرف الحق صار مسؤولًا عن بيانه بقدر علمه وقدرته وحاجة الناس إليه.

لا يملك العالم أن يحبس النصوص التي تزعج أصحاب السلطة، ويُظهر فقط ما يضمن سلامة موقعه. ولا يجوز له أن يجعل العلم مخزنًا مغلقًا لا يفتحه إلا لمن يدفع الثمن أو ينتمي إلى دائرته.

البيان ضد الكتمان.

والبيان ليس مجرد عرض المعلومة، بل إظهارها على وجه يزيل اللبس، ويحفظ الأمانة، ولا يقتطع منها ما يغير معناها.

لكنهم: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

صورة عنيفة: لم يتركوا الميثاق إلى جانبهم فحسب، بل رموه وراء الظهور؛ في الموضع الذي لا يرونه ولا يسمحون له بأن يقود خطاهم.

قد يبقى الكتاب على الرف، وتقام حوله الاحتفالات، لكنه يكون منبوذًا وراء الظهور إذا لم يعد مرجعًا يحكم المواقف.

ليس هجر النص أن تمزق صفحاته وحدها؛ قد تهجره وأنت تحفظ ألفاظه، حين تمنعه من الاقتراب من مصالحك.

ثم قالت الآية: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

كتموا الحق ليحفظوا رئاسةً أو مالًا أو رضا جماعة.

وكل ثمن يؤخذ مقابل آيات الله قليل، مهما بدا كبيرًا في حساب الدنيا؛ لأنه مؤقت، ولأن الشيء الذي بيع أعظم من أن تقابله خزائن الأرض.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

بئست الصفقة التي يخرج صاحبها منها وقد حفظ موقعه عند الناس، وأسقط منزلته عند الله.

وهذه الآية ليست قصةً عن أهل كتاب مضوا فحسب؛ إنها إنذار لكل من حمل علمًا من الوحي. فمن عاب كتمان من قبله، ثم كتم ما عنده خوفًا أو طمعًا، فقد ورث الخُلُق الذي أدانه القرآن.

## يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **(١٨٨)**.

تكشف الآية مرضًا مركبًا: يفرحون بما فعلوا.

ويطلبون الثناء على ما لم يفعلوا.

قد يفعل الإنسان السوء، ثم لا يكتفي بالنجاة من اللوم، بل يريد أن يُقدَّم بوصفه صاحب فضل. يعيد كتابة قصته، ويخفي مواضع الخيانة، ثم يقف ليتلقى التصفيق.

إنها سرقة للصورة الأخلاقية بعد التفريط في الحقيقة الأخلاقية.

لم يبذل، لكنه يريد اسم الباذل.

ولم يثبت، لكنه يحب أن يُذكر بين الثابتين.

ولم ينصر المظلوم، لكنه يصنع روايةً يظهر فيها حاميًا له.

ولم يكتب العمل، لكنه يضع اسمه على جهد غيره.

ولم يتحمل كلفة القرار، لكنه يتقدم لقطف ثمرته.

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا﴾.

المشكلة ليست في أن يفرح الإنسان بثناء صادق جاءه من غير طلب، ولا في أن يُعرف الفضل لأهله؛ فالعدل يقتضي نسبة الأعمال إلى أصحابها. إنما المرض أن تصبح المحمدة غايةً مستقلة، حتى يطلبها الإنسان بلا عمل.

عندئذ تنفصل السمعة عن الحقيقة.

ويبني المرء لنفسه تمثالًا من الكلمات، ثم ينشغل بحمايته عن إصلاح نفسه.

ومن أحب الحمد بما لم يفعل سيضيق بمن يعرف حقيقته، ويحارب الشهود، ويعيد ترتيب الرواية، لأن وجود الحقيقة يهدد الصورة التي يتغذى عليها.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

قد ينجحون في إدارة صورتهم في الدنيا، ويصنعون حول أنفسهم حصنًا من المديح، لكن هذا الحصن لا يبلغ الآخرة.

كلمة ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ توحي بمكان نجاة، والآية تنفي أن يكون الثناء الكاذب قادرًا على صنع هذا المكان.

فالتصفيق لا يطفئ النار.

والألقاب لا تغير الصحائف.

وما كتبه المادحون لا يمحو ما كتبته الملائكة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لأنهم لم يكتفوا بترك العمل، بل زاحموا العاملين على ثمرته، وجعلوا الكذب على الحقيقة مصدر مجدهم.

وفي الآية تطهير للمؤمن من إدمان الصورة. ليكن اهتمامك بأن تكون عند الله صادقًا أكبر من اهتمامك بأن تبدو عند الناس كاملًا.

قد يعمل الإنسان خيرًا لا يُذكر، فيكون محفوظًا.

وقد يُذكر بخير لم يعمله، فلا يزيده الذكر عند الله شيئًا.

## ولله ملك السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ **(١٨٩)**.

بعد قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وبعد حديث المال والبخل وشراء الآيات بالأثمان، يأتي الإعلان الذي يهدم الوهم من أساسه:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

كيف يفتقر من يملك السماوات والأرض؟

وكيف يستغني عنه مَن لا يملك أن يثبت نبض قلبه لحظةً واحدة؟

كل ما يراه الإنسان ملكًا له يقع داخل ملك الله.

الأرض التي بنى عليها بيته لله.

والمادة التي صُنعت منها خزائنه لله.

والجسد الذي تحرك لجمع المال لله.

والزمن الذي استعمله في العمل لله.

حتى الملكية التي نُسبت إليه لم تكن إلا إذنًا مؤقتًا داخل الملك الأكبر.

وحين يستقر هذا المعنى، يتغير إحساس الإنسان بالأشياء. لا يعود مالكًا متألهًا يتصرف بلا حساب، بل أمينًا مستخلفًا يعرف أنه سيُسأل.

وملك الله ليس كملك البشر، تعالى الله عن مماثلة خلقه. البشر يملكون ملكًا ناقصًا، محدودًا، معرضًا للزوال، وقد يملكون ظاهر الشيء ولا يملكون مصيره. أما الله فله الملك التام، خلقًا وتدبيرًا وأمرًا، لا يخرج عن سلطانه شيء، وليس كمثله شيء.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قادر على أخذ من ظن أنه نجا.

وقادر على إنصاف من مات قبل أن يأخذ حقه.

وقادر على إحياء النفوس بعد موتها.

وقادر على تحويل أيام الضعف إلى قوة، والليل إلى صباح.

لكنه سبحانه يجري أفعاله بحكمة، ولا تُقاس قدرته بعجلة البشر. قد يؤخر ما نريده، لا لعجز، بل لأن علمه أحاط بما لم نحط به.

وبهذه الآية تتهيأ الروح للانتقال من ملك الأرض وصراعاتها إلى ملكوت السماوات والأرض؛ فبعدها مباشرةً يقول الله:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

## الفصل الرابع عشر

## اصبروا وصابروا ورابطوا

تقترب سورة آل عمران من خاتمتها بعد رحلة طويلة قطعتها بالقلب بين المحراب والميدان، وبين الكتاب والتاريخ، وبين ميلاد المسيح وإشاعة موت محمد ﷺ، وبين فتنة الشهوة وفتنة الهزيمة.

لم يعد المؤمن الذي يصل إلى خواتيمها هو الإنسان نفسه الذي دخل من بابها الأول.

لقد تعلّم أن يرد المتشابه إلى المحكم، وألا يجعل عقله تابعًا لهوى خفي. ورأى زينة الدنيا في ضوء نهايتها. ودخل بيت عمران، وسمع دعاء أم، وشاهد طفلةً تنبت في رعاية الله. ووقف في محراب زكريا، حيث استيقظ الرجاء بعد أن شاخ الجسد. وعرف المسيح عبدًا كريمًا ورسولًا وجيهًا، لا إلهًا ولا ابن إله. ودُعي إلى كلمة سواء، ثم امتحن صدقه فيما يحب. ونزل إلى أُحُد، فرأى كيف تفتح مخالفة صغيرة ثغرةً يدخل منها الانكسار. ثم سمع النداء الذي يحرر الرسالة من الفناء: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

والآن، بعد أن اكتمل البناء، تضع السورة في يد المؤمن وصيتها الأخيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

لكنها، قبل هذه الكلمات الأربع، تفتح للقلب نافذةً على السماء.

## من ضجيج المعركة إلى صمت الكون

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ **(١٩٠)**.

بعد الحديث عن الجراح والمكر والقتال والموت، ترفع السورة رأس المؤمن إلى السماوات. ليس هروبًا من الواقع، بل إعادةً لحجمه.

حين يحاصر الإنسانَ حدثٌ مؤلم، يضيق وعيه حتى يظن أن الكون كله انكمش إلى ذلك الجرح. لا يرى إلا خصمه، ولا يسمع إلا صدى الخسارة، ولا يتخيل مستقبلًا وراء اللحظة.

ثم ينظر إلى السماء.

يرى امتدادًا لم يتغير لأن جيشًا انهزم، ويرى ليلًا ونهارًا يتعاقبان، ويعرف أن اليوم الذي ملأ قلبه ليس الزمن كله.

التفكر في الكون يعيد الإنسان من سجن الحادثة إلى سعة الحكمة.

فالإله الذي يدبر هذا الملك العظيم لم يغب عن معركة صغيرة على سفح أُحُد، ولم يعجز عن تدبير حياة فرد انغلقت في وجهه الأبواب. إن الذي يخرج الصباح من ظلمة الليل قادر على أن يخرج من قلب المحنة فجرًا لم يظهر بعد.

## إن في خلق السماوات والأرض

لم تقل الآية: في السماوات والأرض فقط، بل: ﴿فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فالكون ليس موجودًا فحسب؛ إنه مخلوق. والانتقال من رؤية الشيء إلى رؤية خلقه ينقل العقل من الانبهار بالصورة إلى السؤال عن الموجد والحكمة.

ترى السماء، ثم تسأل: من رفعها؟

وترى انتظام الأفلاك، فتسأل: من أمسكها؟

وترى الأرض تحمل الحياة، فتسأل: من أودع فيها شروطها؟

وترى نفسك قادرةً على السؤال، فتسأل عن سر العقل الذي يقرأ الكون.

ليس التفكر أن تقف عند جمال المشهد وتقول: ما أجمله. بل أن تعبر من الجمال إلى خالقه سبحانه، ومن النظام إلى الحكيم، ومن الافتقار إلى القيوم.

الكون لا يتكلم بحروف، لكنه ممتلئ بالدلالات. وكل موجود يحمل على جبهته أثر العجز عن إيجاد نفسه.

## واختلاف الليل والنهار

الاختلاف هنا تعاقب، وتفاوت، وذهاب أحدهما ومجيء الآخر. لا يستبد الليل بالوجود، ولا يستطيع النهار أن يمنع الغروب.

وفي هذا قانون للروح والتاريخ.

لا حزن يبقى على صورته إلى الأبد.

ولا قوة تستقر لصاحبها بلا نهاية.

ولا مرحلة من مراحل الأمة هي الكلمة الأخيرة.

تداول الليل والنهار في الكون يذكّر بمداولة الأيام بين الناس في التاريخ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

وكأن المشهد الكوني يشرح القانون التاريخي. كما لا يقول الليل: سأبقى، لا ينبغي للباطل أن يظن أن ساعته أبدية. وكما لا يستطيع الإنسان استعجال الفجر قبل موعده، لا تُبنى النهضات بالقفز فوق سنن النضج.

هناك وقت للعمل في العتمة قبل ظهور الضوء.

وقد يكون أعظم الإيمان أن تواصل زرعك في ليل لم يبدُ في أفقه الصباح؛ لأنك تعرف رب الليل والصباح.

## لآيات لأولي الألباب

لا يقرأ كل ناظر الآيات نفسها. قد يرى الإنسان السماء كل يوم، فلا توقظ فيه سؤالًا. الألفة قد تجعل المعجزة خلفيةً صامتةً للحياة.

نعتاد الشمس حتى لا نرى في طلوعها شيئًا عجيبًا.

ونعتاد نبض القلب حتى لا نفكر في القدرة التي تحفظ إيقاعه.

ونعتاد الوعي حتى نستخدم أعجب ما فينا دون أن نسأل كيف صار التراب قادرًا على التفكير في السماء.

أما أولو الألباب فهم أصحاب العقول التي خلصت من قشور الغفلة. لا تمر الأشياء أمامهم بلا دلالة. يرون المألوف بعين متجددة، فلا يحتاجون دائمًا إلى خرق العادة حتى يؤمنوا؛ لأن العادة نفسها عندهم آية مستمرة.

المعجزة ليست في أن تشرق الشمس من مغربها وحده؛ المعجزة الأولى أنها تشرق كل يوم في موعدها دون أن يختل نظامها.

## الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ **(١٩١)**.

## الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا

لا ينحصر الذكر في هيئة واحدة. يحيط بحركة الإنسان كلها:

قائمًا في عمله.

وقاعدًا في سكونه.

وعلى جنبه حين يضعف جسده أو يأوي إلى فراشه.

كأن المؤمن يعيش داخل دائرة من الذكر لا يخرج منها بتغير حاله.

وقد يكون في ترتيب الهيئات إشارة إلى مراحل القوة: يبدأ قائمًا، ثم يقعد، ثم يضطجع؛ لكن صلته بالله لا تسقط حين تسقط بعض قدرته.

ربما عجز المريض عن القيام، لكنه لا يعجز عن الذكر.

وربما حُبس الإنسان عن العمل الذي يحبه، لكن قلبه يبقى قادرًا على العبودية.

القيمة عند الله لا تُقاس بالحركة الظاهرة وحدها؛ فقد يكون جسد ساكن وقلبه يطوف في ملكوت اليقين، وقد يتحرك جسد في ميادين كثيرة وقلبه غائب عن الله.

## الذكر الذي يصاحب التفكير

قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

جمعت الآية بين الذكر والفكر.

ذكر بلا تفكر قد يتحول عند بعض الناس إلى ألفاظ تكررها الشفاه دون أن تتجدد دلالاتها. وفكر بلا ذكر قد يصير عقلًا باردًا يرى النظام ولا يعرف المنعم، أو يغتر بقدرته على التحليل.

أما القرآن فيجمع القلب والعقل:

يذكرون الله، فلا ينفصل الفكر عن العبودية.

ويتفكرون في الخلق، فلا ينفصل الذكر عن الوعي.

العقل يفتح نافذة الدلالة، والقلب يتلقى نورها. وحين يتآلفان لا تعود المعرفة خصمًا للخشوع، بل تصبح طريقًا إليه.

كلما ازداد المؤمن فهمًا لدقة الخلق، ازداد تواضعًا أمام الخالق. فإن زاده العلم استعلاءً، فربما ازدادت معلوماته ولم يزدد لبُّه.

## ربنا ما خلقت هذا باطلًا

ثم تنطق ثمرة التفكر: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾.

لم يقولوا: ما أعظم الكون فحسب، بل اكتشفوا الغاية. هذا النظام لا يمكن أن يكون عبثًا، وهذه القدرة لم تخلق الإنسان ليعيش لحظات ثم يذوب بلا حساب.

إن الاعتقاد بعبث الوجود لا ينسجم مع هذا الإحكام. فكيف يكون الكون مضبوطًا في وسائله، بلا غاية في نهايته؟ وكيف يُعطى الإنسان عقلًا يطلب العدل، وضميرًا يتألم للظلم، ثم يتساوى الظالم والمظلوم في الفناء؟

الآخرة ليست إضافةً غريبةً إلى مشهد الكون؛ إنها تمام معناه الأخلاقي.

من دونها يبقى كثير من العدل ناقصًا، وكثير من التضحيات بلا وفاء، وكثير من الجرائم بلا حساب.

لذلك انتقل المتفكرون مباشرةً من الخلق إلى النار: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

## سبحانك: تنزيه يخرج من المعرفة

قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

ننزهك أن تخلق عبثًا، أو يخرج شيء عن حكمتك، أو يستوي عندك المحسن والمسيء.

التسبيح هنا ليس كلمةً منفصلة عن النظر، بل خلاصة رؤية. حين قرؤوا إحكام الكون، نزّهوا الخالق عن الباطل.

وهو سبحانه منزه عن مشابهة خلقه، وعن النقص والعجز والظلم والعبث. ليس كمثله شيء، ولا تُقاس أفعاله بأفعال المخلوقين، ولا تحيط العقول بكيفية صفاته. لكنها تعرف من آياته ما يملؤها تعظيمًا وتسليمًا.

ثم قالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

لم تجعلهم المعرفة الكونية يشعرون بالأمان من الحساب، بل زادتهم خوفًا. رأوا عظمة الخلق، فعرفوا عظمة المسؤولية. فمن خلق هذا الكون قادر على البعث، ومن أحكمه لم يترك أفعال الإنسان بلا وزن.

## ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ **(١٩٢)**.

الخزي ليس ألم النار وحده، بل انكشاف الحقيقة بعد سقوط الأقنعة. في الدنيا قد يلبس الظالم ثياب الاحترام، ويشتري الأقلام، ويعيد كتابة قصته، ويطلب من ضحيته أن تصمت حتى لا تسيء إلى سمعته.

أما في الآخرة، فلا يملك روايته الخاصة.

تنكشف الأعمال كما هي، ويقوم العدل الذي لا تخدعه الدعاية. عندئذ يعرف الناس أن ما بدا انتصارًا كان بناءً طويلًا للخزي.

كم من إنسان عاش يحرس صورته أمام الخلق، ولم يحرس حقيقته أمام الخالق!

أخفى عيوبه.

وصنع لنفسه تاريخًا نقيًّا.

وأحاط اسمه بالثناء.

لكن النار تكشف أن السمعة التي شيدها في الأرض لم تكن قادرةً على تغيير مصيره.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

قد تحيط بالظالم في الدنيا شبكة تحميه: قريب يتعصب له، وقائد يغطي جريمته، ومال يشتري الصمت، وجماعة تبرر. لكنها شبكة تنقطع عند أول خطوة في الآخرة.

هناك لا ينصره الذين صفقوا له، ولا يحملون عنه شيئًا من أوزاره. وربما كانوا أول من يخاصمه حين يعرفون أنه أضلهم.

## ربنا إننا سمعنا مناديًا للإيمان

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ **(١٩٣)**.

لم يقولوا: سمعنا صوتًا جميلًا، بل استجابوا لمضمون النداء.

﴿فَآمَنَّا﴾.

هذه الفاء تختصر المسافة بين المعرفة والاستجابة. لم يحولوا النداء إلى مادة للجدل الدائم، ولا أجّلوا الإيمان حتى تنتهي كل أسئلة الوجود. قامت الحجة، فتحرك القلب.

والمنادي هو الرسول ﷺ، ويدخل في معنى النداء كل من حمل دعوته بصدق. لكن فضل المنادي لا يلغي مسؤولية السامع. كثيرون سمعوا النداء نفسه، ولم يؤمنوا.

فليس وصول الصوت هو الهداية كلها؛ الهداية أن يجد النداء في القلب موضعًا مستعدًّا للانقياد.

قد يسمع الإنسان الحق، ثم يمنعه الكبر من اتباعه.

وقد يعرف صحة الدليل، لكن يخشى ما سيخسره إذا اعترف به.

وقد يؤجل الاستجابة إلى غد، حتى يصبح التأجيل نفسه عادةً تحجب عنه الطريق.

أما هؤلاء فقالوا: ﴿فَآمَنَّا﴾.

لم يجعلوا الإيمان مجرد لحظة ماضية يفاخرون بها، بل اتخذوه بابًا إلى الاستغفار.

## فاغفر لنا ذنوبنا

بعد إعلان الإيمان، لم يطلبوا مكافأةً دنيوية، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

كلما صح الإيمان، ازداد الإنسان شعورًا بحاجته إلى المغفرة؛ لأن النور لا يكشف الطريق وحده، بل يكشف كذلك الغبار الذي على الثوب.

أما الغافل فقد يظن نفسه نقيًّا، لا لكماله، بل لأن الضوء في داخله ضعيف.

طلبوا المغفرة والتكفير، ثم حسن الخاتمة: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

لم يقولوا: اجعل الناس يشهدون لنا بالبر، بل اجعل موتنا مع الأبرار. فالعبرة ليست بالصورة التي يستقر عليها اسم الإنسان في الدنيا، بل بالحقيقة التي يلقى الله بها.

قد يصنع الناس لرجل صورة صلاح، وهو عند الله على غير ذلك. وقد يجهلون عبدًا صالحًا لا يحمل لقبًا، واسمه في زمرة الأبرار.

المهم ليس أن تبدو بارًّا، بل أن تكون مع الأبرار حين تنكشف الحقائق.

## وآتنا ما وعدتنا على رسلك

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ **(١٩٤)**.

إنهم لا يشكون في وعد الله، وإنما يتعبدون له بطلبه، ويرجون أن يجعلهم من أهله. فالوعد العام لا يغني عن سؤال الثبات حتى النهاية.

كم من إنسان بدأ الطريق ولم يتمه!

وكم من قلب ذاق الهداية، ثم دخله زيغ دعا الراسخون أن يعافوا منه!

لذلك لا يغتر المؤمن ببدايته. يسأل الله أن يبلغه تمام الوعد، وأن يحفظه من الخزي يوم القيامة.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

لم يطلبوا النجاة من الألم وحده، بل من انكشاف السوء بين يدي الله. فالقلب الحي يستحي من ربه قبل أن يخاف عقوبته، ويخشى أن يلقاه وقد بدد الأمانة.

ثم تعود الخاتمة إلى معنى ظهر قرب بداية السورة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

السورة التي حذرت من زيغ القلوب أعطت القلب مرساةً: وعد الله لا يزيغ ولا يتبدل.

قد تتبدل وعود البشر لأن قدرتهم تنقص، أو لأن مصالحهم تتغير، أو لأنهم لم يكونوا صادقين منذ البداية.

أما الله فلا يخلف الميعاد؛ كمالًا في صدقه، وكمالًا في قدرته، وكمالًا في علمه.

## فاستجاب لهم ربهم

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ **(١٩٥)**.

بعد سلسلة الدعوات يأتي الجواب قريبًا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

لم يقل: فسمعهم فقط، مع أنه السميع، بل أعلن الاستجابة. وكل استجابة قد تأتي على الصورة التي يعلم الله أنها الخير، وفي الوقت الذي تختاره حكمته.

والأجمل أن الذي استجاب هو: ﴿رَبُّهُمْ﴾.

ربّاهم بالآيات، وربّاهم بالمحن، وربّاهم بالدعاء، ثم استجاب لهم. فالمسافة بين السؤال والجواب قد تكون نفسها جزءًا من التربية.

كم من دعاء غيّر صاحبه قبل أن تتغير به ظروفه!

دخل الإنسان يسأل الله شيئًا، فطال وقوفه عند الباب حتى عرف ربه على نحو أعمق. وحين جاءت الإجابة، كان قد صار إنسانًا آخر قادرًا على حملها.

## أني لا أضيع عمل عامل منكم

قال تعالى: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾.

لا يضيع عمل.

لا تضيع ركعة في ليل لا يراك فيه أحد.

ولا كلمة حق قيلت ثم حوربت.

ولا دمعة مظلوم لم تجد في الأرض من يفهمها.

ولا جهد كاتب خدم معنى الخير ولم يعرف الناس قدره.

ولا تربية أم ماتت قبل أن ترى ثمرتها.

ولا صبر مريض ظن أن أيامه تمر بلا إنجاز.

الله لا يقيس العمل بالضجيج الذي أحدثه، بل بالصدق الذي حمله، وبالأمانة التي أُدي بها.

وقد يضيع عند الناس جهد إنسان لأنهم لم يعرفوه، أو لأن غيره نسبه إلى نفسه، أو لأن الموازين الاجتماعية لا تحتفي إلا بمن يملك النفوذ. لكنه لا يضيع عند الله.

ومن كان الله حافظ عمله، فلا يضره أن تتأخر شهادة البشر، وإن كان إنصافهم واجبًا عليهم.

## من ذكر أو أنثى

تأتي العبارة في سياق امرأة عمران ومريم وما قدمتاه من أثر، وفي سياق رجال قاتلوا وهاجروا وأوذوا، فتقرر أن ميزان العمل لا يظلم أحدًا بسبب جنسه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

لا تُحجب المرأة عن ثواب صدقها لأن المجتمع لم يضع اسمها في صدر المشهد، ولا يُمنح الرجل فضلًا لمجرد كونه رجلًا. كلٌّ واقف بعمله بين يدي الله.

كانت امرأة عمران مجهولة الاسم في النص، لكنها معلومة العمل عند الله.

ومريم امرأة، وقد صارت آيةً للعالمين.

فالمعيار ليس صخب الحضور، بل حقيقة العبودية.

**بعضكم من بعض**

قال تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾.

الرجال والنساء ليسوا عالمين متخاصمين، بل أصل إنساني واحد، ومجتمع تتبادل أجزاؤه البناء والتأثير. كل طرف ينشأ من الآخر، ويحتاج إليه، ويكمل معه وظيفة العمران.

وفي العبارة كذلك كسر لغرور الفرد. لا أحد صنع نفسه وحده. في كل إنجاز شخصي آثار لقلوب كثيرة: أم ربت، ومعلم دل، وصديق ثبت، وإنسان مجهول مهّد طريقًا لم يعرف من سيمشي فيه.

حين يقول الإنسان: فعلت وحدي، يكون قد نسي الأيدي التي حملته في مراحله الخفية.

والتواضع أن ترى نفسك ثمرة شبكة من النعم، لا جزيرة أنشأت ترابها بنفسها.

**فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم**

قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾.

تجمع الآية طبقات الألم: هاجروا طائعين لله.

وأُخرجوا مقهورين.

وأوذوا.

وقاتلوا.

وقُتلوا.

ليس كل ألم اختاره المؤمن، لكنه اختار المعنى الذي حمل به الألم. أُخرج من بيته، لكنه لم يسمح للتهجير أن يخرجه من إيمانه. أوذي في سبيل الله، فلم يجعل الأذى حجةً للرجوع.

هناك فرق بين ما يحدث للإنسان، وما يصنعه الإنسان بما حدث له.

لا يملك المظلوم وقوع الظلم، لكنه يستطيع ـ بعون الله ـ ألا يجعل الظلم يعيد تشكيله على صورة ظالمه. قد يخرج من التجربة أعمق رحمةً وعدلًا، أو يخرج منها ممتلئًا برغبة أن يذيق الآخرين ما ذاق.

الإيمان لا يلغي الندبة، لكنه يمنعها من أن تصير هويةً كاملة.

## لأكفرن عنهم سيئاتهم

قال تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

أمام هذه التضحيات، لا يذكر الله أعمالهم كأنها ثمن مستقل يشتري الجنة، بل يبدأ بتكفير السيئات؛ فحاجتهم الأولى إلى الرحمة.

ثم الجنة، ثم يقال: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

وما جاء من عند الله لا يشبه عطايا البشر. البشر يعطون بقدر خزائنهم، وقد يذكّرون بعطائهم، وقد يمنحون ويمنعون لهوى. أما الله فواسع الفضل، كريم، لا تنقص خزائنه، ويضاعف الحسنة.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

كانت السورة قد قالت في أولها: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

وهنا تقول: ﴿عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾.

بدأت الرحلة بتوجيه العين مما في الدنيا إلى ما عند الله، وتقترب من نهايتها بتأكيد أن أجمل الجزاء مودع عنده.

## لا يغرنك تقلب الذين كفروا

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ **(١٩٦)**.

قد يرى المؤمن أهل الباطل يتقلبون في البلاد قوةً ومالًا ونفوذًا، بينما يضيق عليه الطريق، فيتسلل إلى قلبه السؤال: أين العدل؟

فتقول السورة: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾.

لم تقل: لا ترَ قوتهم، أو أنكر نجاحهم المادي؛ بل لا تسمح للمشهد الناقص أن يصنع حكمك الكامل.

الإيمان لا يطلب منك أن تكذب عينيك، بل أن توسع أفقهما.

قد يكون خصمك قويًّا بالفعل.

وقد تتسع تجارته.

وقد تفتح له الحدود.

وقد يحاط بالمادحين والحراس.

لكن كل هذا وصف للحظة، لا حكم على المصير.

أنت ترى صفحةً من القصة، والوحي يريك نهايتها.

وكلمة ﴿تَقَلُّبُ﴾ تحمل معنى الحركة والانتقال في البلاد. يذهبون ويجيئون، ويتاجرون ويجمعون، وتبدو الأرض مفتوحةً أمامهم. لكن الحركة الكثيرة لا تعني أن صاحبها يتقدم إلى النجاة؛ فقد يقطع مسافات واسعة وهو يبتعد عن غايته.

## متاع قليل

قال تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ **(١٩٧)**.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾.

قد يكون كثيرًا في العدد، لكنه قليل في الزمن، وقليل إذا قورن بما بعده. فالشيء لا يُقاس بحجمه داخل لحظته فقط، بل بعمره ومصيره.

مئة عام من النعيم قليلة إذا انتهت إلى عذاب لا ينتهي.

ومال الأرض كله قليل إذا تركه صاحبه عند أول خطوة في القبر.

وسلطان واسع قليل إذا عجز أن يؤخر الموت دقيقة.

كم من سلطان ملأ زمانه خوفًا، ثم صار اسمه سطرًا يتأمله الناس في سقوط الطغاة!

وكم من مظلوم مات مجهولًا، ثم وجد عند الله حياةً لا تمسها يد الظالم!

ثم قال: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

إنها ﴿ثُمَّ﴾ التي تنقل من المشهد اللامع إلى النهاية الثقيلة. كان التقلب ظاهرًا يملأ العيون، أما المأوى فكان غائبًا لا يراه إلا الوحي.

﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

المهاد موضع الراحة والتمهيد، لكنهم هيؤوا بأعمالهم لأنفسهم فراشًا من النار. فما أبشع أن يقضي الإنسان عمره يهيئ الراحة لجسده في الدنيا، بينما يهيئ لروحه مهاد العذاب في الآخرة.

## لكن الذين اتقوا ربهم

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ **(١٩٨)**.

﴿لَٰكِنِ﴾ تقلب الميزان بعد أن كاد المشهد الدنيوي يخدع العين.

هناك تقلب قصير في البلاد.

وهنا خلود في الجنات.

هناك متاع قليل.

وهنا نُزل من عند الله.

هناك حركة لا تعرف أين تنتهي.

وهنا استقرار في دار لا يدخلها الفناء.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

لم تضيع تقواهم في زحام الدنيا، ولم يكن امتناعهم عن الحرام حرمانًا. كل شهوة تركوها لله، وكل مال رفضوا أخذه من باطل، وكل موقف ثبتوا فيه، تحول إلى طريق نحو هذه الجنات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

الخلود هو الذي يطهر النعمة من خوف زوالها. ففي الدنيا، حتى أجمل اللحظات تحمل في داخلها ألم أنها ستمضي. أما الجنة، فلا يفسد فرحها انتظار النهاية.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

والنُّزل ما يُهيأ للضيف عند قدومه. فإذا كان ما ذُكر نُزل الضيافة، فكيف بما وراءه من رضوان وفضل وكرامة؟

ثم قال: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

هذه الجملة تصلح أن توضع أمام كل مفاضلة في الحياة:

حين تتعارض مصلحة عاجلة مع أمانة.

وحين يعرض عليك الباطل مكسبًا سريعًا.

وحين يُطلب منك أن تبيع كلمة الحق بموقع.

وحين ترى غيرك يبلغ بالحرام ما امتنعت عنه بالتقوى.

تذكر: ما عند الله خير.

ليس خيرًا بمعنى أنه أكثر فقط، بل أنقى وأبقى وأكرم.

## وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ **(١٩٩)**.

في ختام السورة يعود الإنصاف مرةً أخرى.

بعد كل المحاجّة وكشف التحريف، لا يغلق القرآن باب الهداية، ولا يحكم على الجميع بنهاية واحدة.

قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

فمنهم، لا كلهم؛ لأن العدل يرفض التعميم الذي يمحو الفروق بين الأفراد.

هناك من أهل الكتاب من صدق، وخشع، وآمن بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على الأنبياء قبله.

فالقلوب ليست أسرى دائمةً لمواضع ولادتها. يستطيع الإنسان أن يعبر من الموروث إلى الحق إذا صدق. والتاريخ لا يملك أن يحكم عليه بالسجن المؤبد داخل اعتقاد الآباء.

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾.

لم يجعل إيمانه بالرسالة الجديدة سببًا لإنكار أصل الوحي الذي جاء به الأنبياء السابقون، ولم يجعل انتسابه إلى الكتاب السابق ذريعةً لرفض الرسول الخاتم.

رأى المصدر الواحد خلف الرسالات، فجمع بينها في قلبه على التوحيد، ولم يجعل الأنبياء أحزابًا متخاصمة.

## خاشعين لله

وصفهم الله بقوله: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

فالانتقال إلى الحق ليس استعراضًا فكريًّا، بل انكسار لله. يعترف الإنسان أن ما كان عليه ليس صحيحًا، ويتحمل كلفة الخروج منه.

وهذا من أشق ما تفعله النفس؛ لأنها لا تراجع فكرةً فقط، بل تراجع جزءًا من سيرتها وهويتها وعلاقاتها. لذلك كان الخشوع قوةً تحررها من كبرياء الاعتراف.

المتكبر قد يرى الدليل، لكنه يشعر أن الرجوع هزيمة شخصية.

أما الخاشع فيرى الرجوع إلى الحق انتصارًا، ولو اضطره إلى الاعتراف بأنه أخطأ أعوامًا.

## لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا

قال تعالى: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

واجهوا الامتحان الذي سقط فيه غيرهم: هل يحتفظون بمكانتهم ومصالحهم، أم يتبعون ما عرفوا أنه الحق؟

اختاروا الآيات.

وكل ما عداها قليل.

قد يخسر أحدهم منصبًا دينيًّا، أو قبول جماعته، أو أمنًا اجتماعيًّا، لكنه ربح صدقه أمام الله. والعين الدنيوية ترى ما فقد، بينما ميزان الآخرة يرى ما نجا به.

ما أعظم أن يعرف الإنسان الحق، ثم يدفع ثمن اتباعه، بدل أن يبيع الحق ليقبض ثمن صمته!

## أولئك لهم أجرهم عند ربهم

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

مرةً أخرى: عند ربهم.

قد يحرمهم الناس مكافأة الصدق، لكن أجرهم ليس مودعًا عند الناس. وربهم لا يضيع في علمه اسم ولا موقف ولا دمعة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لا يحتاج حساب الخلق إلى زمن يثقله، ولا تختلط عليه الملفات، ولا يشغله حساب عن حساب. وحين يأتي الأجل الذي حدده، يجد كل إنسان عمله حاضرًا.

## الوصية الأخيرة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **(٢٠٠)**.

تُختتم السورة بأربعة أوامر، كل واحد منها يبني طبقةً في جدار الثبات:

اصبروا. وصابروا. ورابطوا. واتقوا الله.

ثم الغاية: لعلكم تفلحون.

## اصبروا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

اصبروا على الطاعة حين يطول الطريق.

وعن المعصية حين تقترب الشهوة.

وعلى القدر حين يؤلم القلب.

وعلى بطء الثمرة حين لا يرى الزارع إلا التراب.

الصبر ليس أن تتوقف المشاعر، ولا أن يدعي الإنسان أن الجرح لا يؤلمه. إنه أن يبقى مخلصًا لوجهته وهو يتألم.

قد يبكي الصابر.

وقد يشكو إلى الله.

وقد يطلب المساعدة.

وقد يغير المكان الذي يؤذيه.

ليس الصبر إقامةً أبديةً داخل الظلم مع القدرة على دفعه، ولا رضا بالهوان؛ إنه ألا يدفعك الأذى إلى معصية الله أو خيانة قيمك.

الصبر يحفظ الإنسان من أن يصير نسخةً ممن آذاه.

وقد يكون الصبر عملًا لا انتظارًا؛ تبني وأنت لا ترى الثمرة، وتعلم وأنت لا ترى أثر الدرس، وتكتب وأنت لا تسمع صدى الكلمة، لأنك تعرف أن ما عند الله لا يضيع.

**وصابروا**

الصبر جهاد النفس على الثبات، أما المصابرة فهي ملاقاة صبر الخصم بصبر أعظم. لا يكون الباطل أصبر على مشروعه من أهل الحق.

فالخصوم قد يطيلون الطريق، ويراهنون على تعبك. لا يحتاجون دائمًا إلى هزيمتك دفعةً واحدة؛ يكفيهم أن يجعلوك تيأس وتغادر موضعك.

وهنا تأتي المصابرة: إذا صبروا على مكرهم، فاصبر على بيانك.

وإذا كرروا الشبهة، فلا تمل من إظهار الحق.

وإذا بنوا عبر السنين، فلا تطلب أنت ثمرة مشروعك في أيام.

كثير من القضايا العادلة لا تُهزم بقوة خصومها، بل بقصر نَفَس أصحابها. يبدأون بحماسة عالية، ثم يكتشفون أن التاريخ أبطأ من رغباتهم، فيتركون الثغر.

المصابرة تعني أن يكون إيمانك بالغاية أطول عمرًا من ضجيج المرحلة.

**ورابطوا**

قال تعالى: ﴿وَرَابِطُوا﴾.

المرابطة لزوم الثغور وحراستها من العدو، وهي تحمل كذلك معنى دوام اليقظة والثبات على مواطن التكليف.

لكل إنسان ثغر.

العالم يرابط على ثغر المعنى، فلا يسمح للتحريف أن يمر باسم التجديد أو باسم التراث.

والمعلم يرابط عند عقل الطفل، فلا يتركه فريسةً للجهل.

والأب والأم يرابطان على فطرة الأسرة.

والكاتب يرابط عند اللغة والوعي، فلا يبيع كلمته لمن يدفع أكثر.

والقاضي يرابط عند العدل.

والقائد يرابط عند كرامة من ائتمنوه.

والإنسان يرابط على قلبه، يراقب المنافذ التي يدخل منها الهوى.

وقد تنهزم الأمة لأن كل فرد ظن أن الثغر مسؤولية غيره.

ينتظرون رجلًا استثنائيًّا يحمل الأحمال كلها، بينما تتسع الفجوات الصغيرة التي تركها الأشخاص العاديون. لكن التاريخ لا يبنيه الأبطال وحدهم؛ تبنيه أمانات صامتة يؤديها أناس لا تُذكر أسماؤهم.

الرماة في أُحُد لم يُطلب منهم أن يقودوا الجيش، بل أن يبقوا في موضع واحد. وكان بقاء كل منهم جزءًا من مصير المعركة.

قد يكون ثغرك متواضعًا في عينك، لكنه ليس صغيرًا في هندسة الرسالة.

**لا تغادر الجبل حين ترى الغنيمة**

المرابطة هي الدرس الأخير لأُحُد.

ابق حيث أقامك الواجب، ولو بدا لك أن المعركة انتهت.

لا تغادر موضعك لأن الآخرين يجمعون المكاسب.

لا تجعل نجاحًا أوليًّا يقنعك بأن الحراسة لم تعد ضرورية.

فالثغور تُقتحم غالبًا بعد أن يشعر حراسها بالأمان.

يبدأ الكاتب صادقًا، ثم تأتيه الشهرة، فيغادر ثغر الحقيقة إلى غنيمة التصفيق.

ويبدأ القائد خادمًا للمبدأ، ثم تفتح له السلطة أبوابها، فيغادر موقع الأمانة إلى حظ نفسه.

ويبدأ العالم مدافعًا عن الدليل، ثم يلتف حوله الأتباع، فيصبح همه حماية مكانته.

إن لكل أُحُد رماة، ولكل رامٍ جبلًا، ولكل جبل غنيمة تلمع في الأسفل.

والسؤال الذي يتكرر في كل جيل:

هل تبقى في موضعك حين ترى ما تحب؟

**واتقوا الله**

بعد الصبر والمصابرة والمرابطة، تأتي التقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

لأن الثبات وحده لا يكفي إذا كان على باطل.

وقد يصابر الإنسان خصمه بدافع الكبر.

ويرابط على موقعه حبًّا في السلطة.

ويصبر على مشروع منحرف.

فتأتي التقوى لتصحح الاتجاه.

التقوى هي الحارس الداخلي لكل الخصال السابقة. تسأل الصابر: لماذا تصبر؟ وتسأل المرابط: أي ثغر تحرس؟ وتسأل المجاهد: لمن تقاتل؟ وتسأل العالم: هل تخدم الحق أم ذاتك من خلاله؟

من دون التقوى قد تتحول الفضائل إلى أدوات للهوى. الشجاعة تصير تهورًا، والثبات عنادًا، والطاعة تبعيةً عمياء، والوحدة عصبية، والقيادة استبدادًا.

أما التقوى فتضع الله في مركز الحركة، فيستقيم المعنى.

## لعلكم تفلحون

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفلاح أوسع من النصر. قد ينتصر الإنسان في معركة ولا يكون مفلحًا، وقد يفوته بعض نصر الدنيا ويكون قد بلغ الفلاح.

الفلاح أن تنجو بنفسك وأمانتك.

أن تحقق الغاية التي خُلقت لها.

أن تصل إلى الله دون أن تفقد قلبك في الطريق.

أن تنجح في الدنيا بقدر ما يخدم آخرتك، وأن تدخل الآخرة وقد غُفرت لك ذنوبك ورُضي عنك.

ولهذا لم تختم السورة بوعد نصر عسكري مباشر، بل بالفلاح. فهي لا تريد صناعة مقاتل فحسب، بل إنسان متكامل: عقله محكوم بالوحي، وقلبه متعلق بالله، ويده منفقة، ولسانه صادق، وصفه متحد، وثغره محفوظ.

## من القيومية إلى المرابطة

افتتحت السورة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

وختمت: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾.

بين القيومية والمرابطة تقوم العلاقة كلها.

الله هو القيوم الذي يقيم الخلق، والعبد مأمور أن يقوم بأمانته.

الله لا يموت، ولذلك لا تموت الرسالة بموت الرسول.

الله لا يعجز، ولذلك لا ييأس المؤمن حين تعجز أسبابه.

الله لا يخفى عليه شيء، ولذلك لا يحتاج المخلص إلى تصفيق الناس.

الله عنده حسن الثواب، ولذلك يستطيع المؤمن أن ينفق مما يحب.

الله يؤتي فضله من يشاء، ولذلك لا يأكل الحسد قلبه.

الله مولاه، ولذلك لا يبيع هويته خوفًا من قوة عابرة.

الله هو المركز؛ وكل ما في السورة إعادة للأشياء إلى الدوران حول هذا المركز.

**السورة التي بنت الإنسان بعد أن كشفت ضعفه**

لم تأتِ آل عمران بصورة مثالية مزيفة عن الجماعة المؤمنة.

أخبرت أن من المؤمنين من أراد الدنيا.

وأنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا.

وأن منهم من فر.

وأن بعضهم ظن بالله غير الحق.

لكنها لم تجعل هذه الأخطاء خاتمة قصتهم.

قالت: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

وأمرت النبي ﷺ أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ويشاورهم.

ثم أعادتهم إلى موقع المسؤولية.

هذا هو البناء القرآني للإنسان: لا ينكر ضعفه، ولا يختزله فيه. يكشف الخطأ بدقة، ثم يفتح باب النهوض. فلا يتحول التسامح إلى تبرير، ولا تتحول المحاسبة إلى تحطيم.

إن الأمة لا تنجو لأنها لا تخطئ، فهذا ليس من شأن البشر؛ بل تنجو لأنها تملك وحيًا يكشف خطأها، وقلوبًا تتوب، وقيادةً ترحم، وذاكرةً تتعلم، وصفًّا يعيد بناء نفسه.

## من المحراب إلى الميدان

في مريم تعلّمنا أن الرسالات تنبت في المحاريب.

وفي زكريا تعلمنا أن الدعاء لا تشيخه السنون.

وفي المسيح تعلمنا أن المعجزة تشير إلى الله ولا تمنح العبد ألوهية.

وفي الكلمة السواء تعلمنا أن الحوار لا يحتاج إلى إذابة العقيدة.

وفي الإنفاق تعلمنا أن البر يمر مما نحب.

وفي أُحُد تعلمنا أن الثغر الصغير قد يحمل مصير المعركة.

وفي آية محمد ﷺ تعلمنا أن الرسالة أكبر من حامليها.

وفي الخاتمة تعلمنا أن النجاة ليست ومضة حماسة، بل صبر ومصابرة ومرابطة.

هكذا تصل السورة المحراب بالميدان.

فمن لم يبنِ محرابه الداخلي، قد يبيع موقعه حين تظهر الغنيمة. ومن لم يعرف الله في السحر، قد لا يثبت حين يعلو الغبار. ومن لم يتعلم السجود، قد تفسده القيادة إذا جاءته.

الميدان يكشف ما بناه المحراب، والمحراب يمد الميدان بالمعنى.

## كلمة الختام: ابقَ عند ثغرك

ربما تكون أعظم وصية تخرج بها من آل عمران:

ابقَ عند ثغرك.

إذا تشابهت عليك المعاني، فابق عند محكمات الكتاب.

وإذا زُينت لك الدنيا، فابق عند وعد الآخرة.

وإذا تأخرت الإجابة، فابق عند باب الدعاء.

وإذا كثر الغالون والجافون، فابق عند ميزان الحق.

وإذا اشتد الجدل، فابق عند الكلمة السواء.

وإذا ناداك البر، فأنفق مما تحب.

وإذا اضطرب الصف، فاعتصم بحبل الله.

وإذا وقعت الهزيمة، ففتش عن موضع الخلل ولا تفقد رجاءك.

وإذا غاب القائد، فابق مع الرسالة.

وإذا لمعت الغنيمة أسفل الجبل، فلا تغادر موضعك.

ليس كل ثبات جمودًا؛ قد يكون الثبات أعلى صور الحركة، لأنك تحرس الطريق كي يستطيع الآخرون أن يمضوا.

وليست كل مرابطة على حدود الأرض. بعض الحدود تمر داخل القلب، بين الإخلاص والرياء، وبين العدل والهوى، وبين التوكل والاتكال، وبين الحب والعبادة.

وهناك تقع المعركة التي لا يراها الناس، لكنها تحدد وجهة المعارك كلها.

تغلق سورة آل عمران أبوابها على المؤمن، لا ليخرج منها مستريحًا إلى السكون، بل واقفًا عند ثغره، رافعًا عينيه إلى السماء، ذاكرًا ربه، عارفًا بضعفه، مستمدًّا قوته من الحي القيوم.

لقد رأى كيف تبدأ النهضة من دعاء امرأة، وكيف يولد الرجاء في قلب شيخ، وكيف يقف نبي أمام الغلو والجفاء، وكيف تتحول الهزيمة إلى مدرسة، وكيف يمضي الدين بعد وفاة الرسول ﷺ.

ولم يعد يسأل: هل الطريق بلا جراح؟

بل يسأل: كيف أحفظ قلبي حين تأتي الجراح؟

ولا يسأل: هل يغيب العظماء؟

بل: ماذا سأفعل بالأمانة بعد غيابهم؟

ولا يسأل: هل تلمع الدنيا؟

بل: هل أعرف قدر لمعانها وموعد انطفائه؟

ولا يسأل: هل أقع؟

بل: هل أعرف كيف أنهض إذا وقعت؟

ذلك هو الإنسان الذي تريد آل عمران أن تصنعه: لا إنسانًا لا تهزه الأحداث، بل إنسانًا يعرف إلى أين يعود كلما اهتز؛ ولا جماعةً لا تُهزم في جولة، بل جماعةً لا تسمح للهزيمة أن تنتزع منها رسالتها.

وعندما تثقل عليه الطريق، يسمع النداء الأخير يتردد في داخله كأنه موجّه إليه وحده:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فيشد يده على الحبل.

ويعود إلى موقعه.

وينظر إلى الغنيمة اللامعة في الأسفل، ثم يرفع بصره عنها.

فوق الجبل ثغرٌ لا يجوز أن يُترك.

وفي القلب عهدٌ لا يجوز أن يُباع.

وفي آخر الطريق ربٌّ لا يضيع عنده صبر الصابرين.

# فهرس الكتاب


| الرقم | المحتوى | الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | المقدمة المنهجية | ٣ |
| ٢ | الفصل الأول | ١٢ |
| ٣ | الفصل الثاني | ٤٠ |
| ٤ | الفصل الثالث | ٨٣ |
| ٥ | الفصل الرابع | ٨٣ |
| ٦ | الفصل الخامس | ١٠٣ |
| ٧ | الفصل السادس | ١٤١ |
| ٨ | الفصل السابع | ١٨٤ |
| ٩ | الفصل الثامن | ١٩٨ |
| ١٠ | الفصل التاسع | ٢٤٩ |
| ١١ | الفصل العاشر | ٢٧٧ |
| ١٢ | الفصل الحادي عشر | ٢٩٧ |
| ١٣ | الفصل الثاني عشر | ٣١٤ |
| ١٤ | الفصل الثالث عشر | ٣٢٩ |
| ١٥ | الفصل الرابع عشر | ٣٦٢ |
| ١٦ | كلمة الختام | ٣٩٦ |